أنور الجندي

مؤامرة على الإسلام

دار الاعتصام

المؤامرة على الاسلام

معالم تاريخ الإسلام

المؤامرة على الإسلام

أنور الجندى

الطبعة الثانية
١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل الى البحـــث

ان من اخطر التحديات التى تواجه الاســلام فى العصر الحــديث ابتعاث الفكر الوثني والغنوصي القديم الذى كان معروفا قبل ظهور الاسلام فى البيئات الشرقية والغربية على السواء ، والذى تشكل فى صورة جامعة من بعد فى الافلاطونية الحديثة وهو الفكر البشرى الذى ظهر باسم الغنوصية فى الشرق وباسم الفلسفة اليونانية فى الغرب .

هذا الفكر الذى يجمع بين الوثنية والالحاد والتعدد والاشراق والمادية ، والذى عرفه العرب والمسلمون بعد ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وظهر اثره فى الفلسفة وعلم الكلام والتصوف والدعوات الباطنية المتجددة عن المجوسية وغيرها . ولقد كان هذا الفكر البشرى الفلسفى القائم على نظريتين أساسيتين :

١ ـــ نظرية العقل والحس فى الفكر اليونانى الهلينى .

٢ ـــ نظرية الحدس والاشراق فى الفكر الغنوصى الشرقى .

وقد قامت بعد ترجمة الفلسفات معركة ضارية فى مواجهة النظريات والأفكار والشبهات التى طرحتها الفلسفات الوافدة فى أفق الفكر الاسلامى انتهت بهزيمة الفلسفة والاعتزال والتصوف الفلسفى والفكر الباطنى وتألقت الاصالة الاسلامية التى تتمثل فى مفهوم أهل السنة والجماعة . هذا المفهوم الذى استطاع استيعاب الايجابيات المستمدة من مفهوم التوحيد فى مختلف هذه الدعوات ، كما استطاع نفى واسقاط السلبيات التى تتنافى مع جوهر الاسلام وعقيدته السمحة . وبذلك أخذ الفكر الاسلامى من جديد طابعه الأصيل المستمد من جوهره الاول ومنابعه الاساسية .

وذلك بعـــد أن امتدت هـــذه المعركة قرنين من الزمان وشارك فى تصحيح مفاهيمها وتحريرها من الزيف والشبهات والاخطاء والتحديات عدد كبير من اعلام الفكر الاسلامى فى مقدمتهم : الأئمة الشافعى وأحمد بن حنبل والاشعرى وابن حزم والغزالى وابن تيمية وابن القيم ، هذه القضية يمكن أن نطلق عليها مؤامرة ((احتواء الاسلام)) .

واليوم تحاول حركة التغريب والغزو الثقــافى اثارة هـــذه المعركة على نحو اشد عنفا وفتح باب الفتنة من جديد ، فى محاولة لطرح هـــذه الشبهات والسموم التى سبق النظر فيها ودحضها والرد عليها مرة أخرى

فى أفق الفكر الاسلامى وبأسلوب عصرى ، وفى أغلفة من الفكر الغربى الحديث ، وفى أطر من أساليب التفسير المادى للتاريخ ، وفى تصور خادع يسنل حلقات ونقطا ومواقف من بين احشاء هذه المعركة فى محاولة لتصوير هذه الحلقات على انها صور مستقلة يمكن عرضها والنظر فيها بذأتها بصرف النظر عن عصرها وارتباطاتها بالمشكلة كلها التى تعددت جوانبها وتشعبت فروعها .

ومن ذلك مثلا مايثار اليوم حول ((الاعتزال)) ومحاولة تصويره على أنه منهج اسلامى للفكر يمكن اقتطاعه عن قضية احتواء الاسلام بكل أبعادها ، وعرضه على أنه منهج عقلانى يتفق مع روح العصر ويصلح لان يكون منطلقا لتبرير الحضارة الحديثة وأوضاع المجتمعات البشرية اليوم .

والواقع أن هذا التصور ليس سليما ولا صحيحا . ذلك لان الاعتزال لا يمثل الاسلام بنظرته الجامعة المتكاملة التى تربط بين العقل والوجدان فضلا عن أن الاعتزال نفسه لم يكن فى داخل قضية ((احتـواء الاسلام)) الا خيطا من خيوط كثيرة متشابكة ، وانه عجز فى ابان استعلائه عن ان يكون تعبيرا صادقا بل لقد كان استعلاؤه خطرا أحدث أسوأ الأثر فى مصادرة الرأى والنأى عن الحق .

كذلك فان ما تحـاول حركة التغريب اثارته من اعادة كتابة تاريخ القرامطة والزنج وغيرهم من الحركات الضالة وتصويرها على انها ثورات عدل وحرية ، هو من تلك المحاولات الماكرة التى يراد بها القاء هذه السموم فى أفق الفكر الاسلامى الحديث مرة أخرى ، كذلك فان ما تحاول بعض الجهات من اعادة نشر كتب التصوف الفلسفى وأخبار الحلاج وابن عربى وطبع كتب وحدة الوجود والحلول والاتحاد هو واحد من هذه المحاولات فى ذلك الاتجاه الخطير .

وتتعدد المحاولات اليوم فى هـذا الاتجاه بحيث تخلق صورة جديدة لاحتواء الاسـلام أو المؤامرة عليه تتمثل فى تجديد صفحات هـذا الركام المضطرب الذى عجز عن تحقيق شىء ما فى الماضى وسيكون اليوم اعجز عن ان يحقق شيئا الا اثارة الشبهات فى نفوس الأجيـال الجديدة التى هى بطبيعة ثقافتها وتعليمها عاجزة عن ان تعرف ابعاد المؤامرة المراد فرضها عليهم أو تتبين الخلفية التى تختفى من ورائها المؤامرة .

ذلك لأن الحديث عن الاعتزال والتصوف والفلسفة ، هو فى مفهوم الاسلام حديث يتكامل مع مختلف وحدات الفكر الاسلامى ، وحيث لايكون حين يستقل بنفسه ممثلا للاسلام الجامع ، وان كل وحدة من هذه الوحدات لا تفهم فهما صحيحا الا فى اطار التكامل ، ولا تؤدى دورها الا بالارتباط فى توازن ومواءمة مع الوحدات الأخرى ، وان النظرة العقلية ، أو النظـرة الروحية ، لاتستطيع وحدها ان تقدم تصورا اسلاميا صحيحا وان كل هذه الوحدات لابد ان تتلاقى فى تكامل لتمثل منظورا جامعا متكاملا للاسلام يضم العقل والروح ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة .

واذا كنا نجد اليوم من يحلول ان يتصور ان التراث الاسلامى يمكن تجزئته وأن خير مافيه هو عقلانية المعتزلة ، فان ذلك يختلف مع النظـرة الاسلامية الجامعة التى لا ترى هذا الرأى .

وفى نفس الوقت لا ترى استعلاء الدعوة الى روحانية التصوف كمنطلق الى مفهوم الاسلام وان هذه المحاولات التى تعلى من شأن هذا الجانب او ذاك ليست سليمة ولا صحيحة وان محاولات زكي نجيب محمود بنحسين كتابات الاعتزال وابن الراوندى ، أو كتابات عبد الرحمن بدوى باعلاء التصوف الفلسفى والحلول والاتحاد ، او كتابات محمود اسماعيل باعلاء حركات القرامطة والزنج او اتجاه الدكتور محمود الشنيطى الى احياء ابن عربى ، أو طه حسين الى احياء اخوان الصفا او ماسينون وصلاح عبـد الصبور الى احياء الحلاج أو عباس صالح وعبد الرحمن الشرقاوى وطه حسين الى تفسير تاريخ احياء الاسلام تفسيرا ماركسيا أو ماديا كل هذه المحاولات تدخل فى نطاق المؤامرة على الاسـلام واعادة محاولة ((احتواء الاسلام)) الأولى . كذلك فان الدعوات القاديانية والبهائية والروحية الحديثة هى ايضا محاولات جديدة على نفس الطريق .

* * *

(٢)

أهداف المؤامرة على الإســلام

لا ريب أن الهدف من المؤامرة على الاسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى هو نفس هدف محاولة احتواء الاسلام فى القرن الرابع الهجرى : النيل من الاسلام واسقاط دولته واذابته فى أتون الأممية ، ونجد اليــوم من وراء المحاولة الجديدة قوى خطيرة أبرزها ((الاستعمار الغربى)) الذى يحمل خصومة الدين ومطمع السيطرة الاقتصــادية ، والذى يضمر فى اعماقه كراهية ضخمة للاســلام الذى غزا أوربا تحت لواء الدولة العثمانية . ((والصهيونية)) الطامعة فى العودة الى السيطرة على فلسطين وبيت المقدس باسم الوعد الذى زيفته التوراة و ((الشيوعية)) التى تحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الاديان وهدم الاخلاق ، هذه القوى الثلاث الكبرى .

أما تلك الفرق والدعوات والمذاهب القديمة فانها قد ماتت منذ وقت بعيد ، ولكن انبعاثها واحياءها هو هدف يرمى الى تمزيق جبهة الاسلام حتى يحال بينها وبين الوحدة الشاملة القادرة على مواجهة الغزو الخارجى ،واقامة دولة الاسلام بالحق فى أرض الله .

وهىواحدة من سلسلة المؤامرة المتصلة على الاســلام عن طــريق خصومه وفى مقدمتهم اليهودية التلمودية ، التى تستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية على ارض الاسلام وأهله ، وهىتحقيق للغرض الذى دعا اليه لويس الباسع بهزيمة المسلمين فى فكرهم ودينهم وعقائدهم قبل هزيمتهم فى أرضهم وبلادهم .

ان هدف المؤامرة هو احيــاء الفكر البشرى القديم قبــل الاسلام ، والمتجدد ابان حملة الترجمة مرة أخرى فى قوالب جــديدة واساليب عصرية لنفس الهدف : لنفس الغاية ، غاية الهدم والهزيمة والتمزيق لجبهة الاسلام التى لم يبق على وجه الأرض غيرها فى طريق التوحيد الصحيح .

وتحاول حركة المؤامرة على الاسلام اليــوم أن تتبــع نفس الاساليب القديمة ، فهى تهاجم أصول القيم الاسلامية وجذور المفاهيم الأساســية ، وتهاجم تاريخ الاسلام واللغة العربية وتدعو الى تفسيخ القيم الخلقية الاسلامية بالدعوة الى اذاعة المجون والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى ، وهو نفس الأسلوب الذى اتخذته حركة احتواء الاسلام ، كان ذلك فى الماضى لحساب

المجوسية الفارسية ولتمكين القرامطة والباطنية من السيطرة على الدولة الاسلامية واليوم يجرى نفس المخطط لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية .

وكما كان أخطر سلاح فى الحركة القديمة هو وضع الكتب الزائفة المليئة بالمغالطات والاباطيل والانحراف فى ثوب براق ، وتزييف كتب التاريخ حتى يجهل أبناء الأمة الاسلامية أمجادهم وبطولاتهم وكذلك أعداد طبقة من اتباعهم الحافدين وتزويدهم بالمعلومات العامة من شتى المعارف والفنون دون أن يتعمقوا فيها حيث تؤدى بهم هذه التربية الناقصة الى الغرور والقدرة على الجدل والمراوغة والانتقال من موضوع الى موضوع مبالغة فى خداع الناس وايهامهم بالعلم الفياض فان الحركة الجديدة تتبع نفس الأسلوب .

وهذا الذى يصف به السيد أبو الحسن الندوى حركة احتواء الاسلام القديمة نجده واضحا تماما فى محاولة المؤامرة على الاسلام الجديدة ونجد اسماء بعينها تقوم على هذا المخطط يمكن حصرهم وتسمينهم ، على نحو أبو نواس وبشار وحماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان فى الشعر وابن الراوندى والحلاج والسهروردى وابن عربى والرازى ، ونجد تماما عصبة الزنادقة وعصبة المجان ودعاة الانحلال الاجتماعى ومهاجمة القيم الأخلاقية ، ونجد امثال حماد الذى هاجم أهل التقوى والورع فسبهم بأقذع الوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم مستهدفا نشر الفساد بين أبناء المجتمع وتجرىء الشباب على السخرية من أهل العلم والخلق ، كذلك نجد أمثال حماد عجرد الذى عرف بالتهتك واللسان البذىء ، وأمثال أبى نواس فى الترويج للشر وحث الناس عليه تحت ستار التظاهر بالعصرية والتقدم .

(٢)

بدأ ((الاستشراق)) هذا المخطط فى احياء الفكر اليونانى والغنوصى كجزء من خطته فى اثارة الشبهات والسموم فى وجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث وكمحاولة لتمزيق جبهة هذا الفكر والحيلولة دون التقاء المسلمين على وحدة الفكر الجامعة التى وصل اليها الفكر الاسلامى ، بعد مؤامرة الاحتواء التى قام بها الفكر الباطنى والفارسى والمجوسى ابان حركة الترجمة . ان هدف الاستشراق هو تمزيق جبهة الوحدة الفكرية الاسلامية الجامعة . والمعروف أن هذه المذاهب والفرق قد تلاشت وانتهت منذ وقت بعيد ، ولم يبق من وجوه الخلاف الا ما يعرف بالخلاف فى الفروع بين السنة والشيعة . وان كان هذا الخلاف أيضا مستحدثا قد عمل الاستعمار والقوى الغربية على تعميقه باثارة الصراع بين الدولة الصفوية الفارسية والدولة التركية العثمانية منذ القرن التاسع الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

ولا ريب ان خطة احياء الفكر المعتزلى والصوفى والفلسفى والباطنى وتجديده واثارة قضاياه التى قام بها الاستشراق كانت بهدف التأثير على صميم فكرة التوحيد الأساسية التى هى عقيدة المسلمين جميعا بعد ان صفيت مختلف القوى التى كانت تحمل اسم الاعتزال او التصوف الفلسفى او

الفلسفة وانصهارها في مفهوم الأصالة السنى الجامع ، ومحاولة احياء هذه القضايا بشبهاتها وشكوكها ووجهات نظرها المستمدة من الفكر الفارسي الغنوصي القديم ، او الفكر اليونانى الهلينى او الفكر النهلستينى المتمثل في الافلاطونية الحديثة ، كل هذا لايراد به الا طرح هذه الشبهات والشكوك والسموم مرة اخرى في أفق الفكر الاسلامى ، فتنقسم الآراء حوله ، وبذلك يبعد المسلمون عن وحدة فكرهم الجامعة المتكاملة ، ويعودون مرة اخرى الى صراع الفرد ، فضلاً عما يؤديه طرح هذه المفاهيم من افساد لجوهر الاسلام نفسه .

ويجرى مع هذا الاتجاه القول المضلل بان مفهوم السنة والجماعة ليس الا واحدا من جملة مفاهيم يمثلها الاسلام ، مفهوم الاعتزال ، والفلسفة ، والتصوف ، والباطنية ، مع أن هذا ليس صحيحا ، فلم تكن هذه الفرق بمثابة فرق متصارعة مع المفهوم الجامع ، ولكنها كانت وسيلة اليه ، عندما قام هذا المفهوم كانت قد سقطت كل هذه الفرق تماما ، فقد استطاع المفهوم الجامع ان يصهر في داخله كل حسنات الفرق ، فجعل للارادة الحرة اهميتها وهو خير ما في الاعتزال ، وجعل النظرة المنطقية اسلوبا في الفهم وهو خير ما في الفلسفة وجعل الأخلاقية طابعا اساسيا للقيم وهو خير ما في التصوف ، وجعل حب آل البيت جزءاً من عقيدة الايمان وهو خير ما في الباطنية وهكذا .

ولذلك فان من الزيف المسموم القول بان في الاسلام عدة مفاهيم يحتملها جميعاً ، والواقع ان الاسلام مفهوم جامع متكامل ، والنظرة العقلية جزء منه والنظرة الوجدانية جزء منه ، وان واحدة منهما لاتستطيع بحال أن تكون ممثلة للاسلام بمفردها . وان فكرة العقلانية او فكرة الوجدانية لايمكن ان تتقدم منفصلة عن سياقها التاريخي وعن حركة المواجهة التى قام بها الفكر الاسلامى ازاء حركة احتواء الاسلام كلها التى قامت من بعد .

وقد وجدت المؤامرة على الاسلام مواجهة صحيحه وصريحة وقوية في العصر الحديث كما حدث ذلك كلما تعرضت مفاهيم الاسلام لمحاولة الاحتواء والتزييف ، وعندما بدأت هذه الحركة في القرن الثانى للهجرة وجدت معارضة بعيدة المدى كشفت زيفها وشبهاتها وأبانت عن أنها حركة معادية للاسلام ناشئة من وجهة اجنبية خارجة ضد الاسلام والعرب ، ترمى الى هدم الدولة الاسلامية بهدم قدم الاسلام ومفاهيمه ، وقد تبين أن هناك معاهدات وعقوداً بين دولة الروم وبين هذه القوى ، كما تبين أن بين الحلاج والقرامطة معاهدة مكتوبة ، وكشف الباحثون عن أن الذين وضعوا أسس الباطنية والشعوبية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين أسلافهم . وقد أنكرت السنة التى حملت لواء الأصالة الاسلامية : التشبيه والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وبننة والمعطلين ملحدون ، كما حرص أهل السنة على تعقب الملحدين والكشف عنهم ، كذلك عارضت الأصالة الاسلامية اخضاع الاسلام للجـــدل العقلى ، ودعت الى الاخذ من المعين الاول والمنبع الأصيل : القرآن والسنة ، ورفضت الهيات ارسطو لان مقدماتها ونتائجها كانت متعارضة اشد التعارض مع مفهوم التوحيد الخالص .

وقد وقف الشافعى والأشعرى والغزالى وابن تيمية بصدق أمام اطراف المحاولة وكشفوا قضايا الفلاسفة وعلماء الكلام والمعتزلة والصوفية الفلسفية والباطنية وقرروا أن (منهاج السنة : الأصالة الاسلامية) ليس واحدا من هذه بل هو غيرها ، وعلينا اليوم أن نقف نفس الموقف وأن نحرر مفاهيم الاسلام من الاسرائيليات القديمة والجديدة ، ومن الوثنيات المتجددة التى يقومون على بعثها اليوم ، ولكى يكون منطلق الفهم واضحا ، فان علينا ان نفهم أساسا :

اولا : ان الاسلام فى كلمة هو كلمة التوحيد الذى يرتفع عن الوثنيات والتثنية والتعدد وعن الشرك جميعا . وتختلف كلمة اسلام عن كلمة دين فى المعنى العام المتعارف ، فالاسلام دين من حيث انه يرسم العلاقة بين الله والانسان . وهو منهج حياة من حيث انه يرسم ايضا — وفى تكامل — العلاقة بين الفرد والمجتمع . وقد أوجد الاسلام صيغة من التكامل والتوازن والالتقاء بين الفردية والجماعة على نحو يحقق ذاتية الفرد وحريته وكرامته ، ويحقق فى نفس الوقت ايجابية المجتمع ودور الفرد فى بنائه ، وهو نظام متكامل فيه جذور كل الدعوات التى عرفها العصر من حرية وعدالة ومساواة وتكامل اجتماعى ، وله فى هذه القيم مفهومه الواضح السمح الخاص به .

ويسمح الاسلام بالاجتهاد والتأويل على نحو لا يتعدى أصوله العامة وقيمه الأساسية التى أقرها ، وكذلك يؤمن الاسلام بالثبات أصلا وبالحركة فى اطار الثبات ، ولا يقول الاسلام بالتطور المطلق .

ويفرق الاسلام بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو ما أثبتته التجـارب الحسية والمعملية ثبوتا قاطعا ، وهذا يقره الاسلام ، أما الفلسفة فهى امور نظرية براها المفكرون فى بيئة من البيئات وعصر من العصور فهى ليست ثابتة ولا عامة ، كذلك يفرق الاسلام بين الثقافة والمعرفة ، فالمعرفة عامة كالعلم وهى ملك البشرية كلها أما الثقافة فهى خاصة وهى مرتبطة بمزاج الأمة ووجدانها وليست قابلة لان تنقل من تربة الى تربة .

ولقد كان الفكر الاسلامى مفتوحا دوما يقبل ما يراه صالحا من ثقافات وفكر الأمم فى الشرق والغرب ، ولكنه كان دوما قادرا على امتلاك ذاتيته الخاصة وحريصا على ألا يفسدها أى فكر زائف أو وافد .

ثانيا : ان الاسلام بمفهومه فى التوحيد الخالص قد أنشأ فكرا له طابعه الاستقلالى الكامل ومفاهيمه الواضحة الخالصة التى لايمكن ان تختلط بمفاهيم الفلسفات ، وخاصة فيما يتصل بالوثنيات الاغريقية ومفاهيم الفلسفات الهندية والفارسية القديمة ، ولذلك رفض الاسلام العقلانية المطلقة ومفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ولقد خاض الاسلام معركة ضخمة فى مواجهة الفلسفة اليونانية والوثنيات المجوسية والفارسية والهندية ومواجهة ما دس عليه من اسرائيليات وتارن ذلك كله ببناء منهج متكامل مستمد من القرآن نفسه فى مجال تحقيق الحديث (البخارى ومسلم) وبناء الفقه (مالك والشافعى وابو حنيفة وابن حنبل)

وفى تصحيح المفاهيم (ابن حزم والغزالى وابن تيمية) .

وقد خرج الفكر الاسلامى من هذه المعركة الضخمة بمفهوم اهل السنة ناصعا صافيا مبرءا من الوثنية ومفاهيم الفلسفات الهلينية والمجوسية .

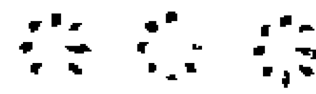
وبعد .. فان هذه المراجعة الواسعة تستطيع ان تعطى الباحث المسلم ارضية صلبة لمعرفة النصوص المختلفة وردها الى التيارات المتعـددة التى صاولت العقيدة الاسلامية فى حلقات التآمر المتصل على الاسلام خلال العصور ، وتكشف له كيف واجهتهـا الأصالة الاسلامية وردت زيفها وابانت فساد منطلقاتها ، ثم كيف استطاعت الأصالة الاسلامية دائما ان تلتمس جوهر العقيدة وان تتمسك بأصولها وان نرد كل زيف تجرى المحاولة الى اضافته اليها .

ولقد كان من أبرز هذه المفاهيم أن كل قيم الفكر الاسلامى الأساسية قد تقررت قبل أن يختار صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى ، جامعة بين العقل والوجدان والدين والعلم والروح والمادة لا انفصال لاحدهما ولا استعلاء ، وان هذه الأصول هى التى تقررت يوم انزل على الرسول من ربه « اليوم اكملت لكم دينكم » فلم تتغير ولم تجر أى اضافة اليها من بعد ، وكل ماجاء من بعد فهو تفسير أو تفصيل وفق قاعدة الاجتهاد التى اقرها الاسلام لمواجهة تغير العصور والبيئات .

وللاسلام قانونه الذى لا يتخلف ابدا ، هو أنه يتجدد من داخله ويتحرر من اعماقه ، فعندما تهب رياح الجمود او الجبرية او الانحراف لتحجب جوهر مفهومه فانه يكون قادرا على التماس المنابع . ولقد كان لابن حزم والغزالى والأشعرى وابن تيمية وابن القيم مواقف مشهودة فى الكشف عن هذه الشبهات وتلك الاتهامات وتصحيح المفاهيم والتماس مفهوم الاسلام الأصيل .

واليوم نمر بنفس المعركة مرة أخرى ولكن فى شراسة الخصوم وعنفهم ، وقد تحددت قوى علماء الاسلام ومفكريه للرد على هذه الشبهات ومواجهتها والادالة منها .

والله من وراء القصد .



المراجع

الامام الغزالى : فضائح الباطنية .

« **الشافعى** : كتاب الأم .

« **ابن تيمية** : الرد على المنطقيين .

« **أبو الحسن الأشعرى** : مقالات الاسلاميين .

« **ابن حزم** : الفصل فى الملل والنحل .

ابن الجوزى : تلبيس ابليس .

الشهرستانى : الملل والنحل .

ابو الحسن الندوى : رجال الدعوة والفكر .

الحسن بن عثمان الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندى .

مصطفى عبد الرازق : مقدمة فى الفلسفة الاسلامية .

مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمه.

الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام .

الدكتور محمود قاسم : الحلاج والباطنية .

أنور الجندى : القيم الأساسية للفكر الاسلامى .

« : المساجلات والمعارك الأدبية .

« : الشبهات والأخطاء الشائعة .

الباب الأول

إحياء الفكر المعتزلى

(١)

الإسلام والاعتزال

اهتم الاستشراق ودعاة التغريب والغزو الثقافى بالاعتزال والمعتزلة : ووصفهم المستشرقون وكتاب التغريب بأنهم أغارقة الإسلام الحقيقيون ، أو المعتزلة العظام ، ونعى هؤلاء وهؤلاء على الخليفة المتوكل الذى أعاد السنة ووصفوا هذه العودة بأنها ردة فى حرية الفكر التى أقامها دعاة الاعتزال . وقال الأستاذ أحمد أمين أن المسلمين ضعفوا وتخلفوا لأنهم لم يأخذوا بأسلوب المعتزلة العقلانى وأطلق على جمال الدين ومحمد عبده المعتزلة الجدد ، وكتب عن هذا كثيرون وألف الدكتور البير نصرى نادر كتابا عن المعتزلة فقال ان أبرز مفاهيمهم وجود العقل وقيام الأخلاق على العقل دون الوحى ، وقد أعلن المعتزلة سلطان العقل وأيدوه فى مختلف المسائل .

ولما كان الفكر الغربى هو الصورة التى يستمد منها المستشرقون ودعاة التغريب مثلهم الأعلى فهم يحاولون ان يجعلوا من الدعوة العقلانية مثلا وشبيها بما جرى فى عصر النهضة حين جرى الفصل بين الدين والعلم واستعلاء شأن العقلانية واللادينية والعلمانية والمادية وغيرها ، غير ناظرين الى الفوارق البعيدة بين التفسيرات الغربية للمسيحية التى حالت بين الغرب وبين اقتحام مجالات العلم والانحباس فى نصوص الجمود والرهبانية والتقليد والجبرية والفرق واضح تماما بين ذلك وبين الاسلام الذى حمل منهج المعرفة الجامع المتكامل الذى يستمد طرائقه ومناهجه من جماع العقل والروح ، ويرى ان بينهما ترابطا عضويا لاسبيل الى فصمه .

ولعل الاستشراق والتغريب يجدان فى الاعتزال والمعتزلة منهجا وافدا له صلته بالفكر اليونانى ، فهم يعلون من شأنه لهذا الغرض ويرون مدى أثره فى افساد الفكر الاسلامى وبلبلة الآراء والحيلولة دون قيام الوحدة الجامعة فهم يجددونه ليكون له فى العصر الحديث نفس الأثر القديم .

ولاريب ان فكرة الاعتزال جاءت أصلا من الفلسفات الهندية واليونانية والفكر الوثنى القديم ، وانها حين حاولت فى أول الأمر ان تواجه المتكلمين فى الديانات السالفة للاسلام استطاعت أن تحقق نتائج طيبة ولكنها حين استقلت بنفسها وخرجت عن حدودها لتقيم لنفسها منهجا عقلانيا خالصا يستعلى على مفهوم الاسلام الجامع فانها قد انحرفت انحرافا شديدا وأخطأت خطأ بالغا .

ولكن الفكر الاسلامى لم يلبث ان تجاوزها الى منهجه الاصيل بما أعلنه الاشعرى حيث أدار أسلوب العقل فى دائرة الوحي .

وكان أخطر ما أحدثه المعتزلة هو الاتصال بالحكم وفرض مذهبهم الفكرى على الدولة ، وبذلك دخلت المعتزلة تلك المرحلة الخطرة التى عرضت مئات العلماء والباحثين الى الامتحان والعقوبة خلال حكم ثلاثة من الخلفاء هم المأمون والمعتصم والواثق ، وخلال ستة عشر عاما كانت من اقسى اعوام مصادرة الرأى ، وكان ذلك فى أمر لا يدخل فى اطار الشريعة الاسلامية ولا فى الاصول العامة الاسلامية ولكن فى أمر محدث لم تعرفه السنة الصحيحة ومما دخل الى الفكر اليونانى والوثنى القديم وكان موقف الامام ابن حنبل فى ذلك الأمر غاية فى القوة فى معارضة هذا الخطر حتى انكشف فساده وعـاد الامر الى الاصالة التى هى المذهب الجامع .

وكانت هذه هى نهاية المعتزلة : وهى نهاية مظلمة .

(٢)

ما هو خطأ المعتزلة فى مجال الفكر :

١ ــ اعتمدت المعتزلة العقـل ولو خالف ظاهر النقل وبذلك خرجوا عن مفهوم السنة الأصيل .

« فلقد كان القرآن هو المصدر الأصيل يرجع اليه الباحثون والى السنة لا يصدرون عن غيره ولا يطمئنون الى سواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب وهى بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء وان تعذر علهم توقفوا وفوضوا الأمور لله » .

غير أن المعتزلة خالفوا هذا المنهج وحكموا العقل فى كل شىء وجعلوه أساس بحثهم .

٢ ــ كذلك فان انشغال المعتزلة بمنازلة خصومهم من الزنادقة والروافض والثنوية وغيرهم جعلهم يأخذون بطرق محاربتهم فى القتال وكانوا يعتدون بأسلحتهم ، وهكذا فانهم تأثروا بخصومهم وأخذوا عنهم بعض مناهجهم ، قال ينيرج : من نازل عدوا عظيما فى معركة فهو مربوط به مقيـد بشروط القتال وتقلب أحواله ، ويلزمه أن يلاحق عدوه فى حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله ، وكذلك الأمر فى معركة الافكار .

لقد مضى المعتزلة فى الاستدلال العقلى فاذا بدا خلاف فى ظاهر النصوص بين رأى يقرونه ورأى لا يقرونه اولوا النص بما لايخرج من معناه ولا يخالف رأيهم . وان هذه الطريقة أساسها الثقة بالعقل ، وللعقل نزوات . ولذلك وقعوا فى كثير من الهنات دفعتهم اليها نزعتهم العقلية .

٣ ــ وقد وجد كثيرون من خصوم الاسلام فى المعتزلة عشا يفرخون فيه بمفاسدهم وآرائهم ويطلقون من تنواته دسهم على الاسلام والمسلمين .

(٣)

ولعل اخطر مقولتهم : هى قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بها شرع ، ويقول السيد ابو الحسن الندوى : اسرف المعتزلة فى تقدير سلطان العقل وحدود العلم الانسانى وقد لاحظ الدكتور احمد امين وكان من المنتصرين لهم — ان نقطة الضعف فيهم انهم اسرفوا فى تمجيد العقل والايمان بقوته واقتداره يقول : (راى المعتزلة ان العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله (تعالى) فلا حدود للعقل الا براهينه) .

والراى : ان العقل اضعف من ذلك ، وان استطاعته محدودة بادراك ما يتعلق بشانه هو ، وانه منح القدرة على ان يدرك البرهان على وجود الله والنبوة العامة ونبوة محمد خاصة ، ولم يمنح القدرة على معرفة كنه الله تعالى وصفاته .

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، اعنى فى قياس الله على الانسان واخضاع الله تعالى لقوانين العالم ، وقد الزموا الله مثلا بالعدل كما يتصوره الانسان وكما هو نظام دنيوى ، وفاتهم ان معنى العدل — حتى فى الدنيا — معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ، ونحن فى اعمالنا ننظر الى عالمنا ، والله تعالى رب العالمين ينظر فى أعماله الى جميع العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نخضع الله لتصور العدل الذى نتصوره نحن فى عالمنا .

ويقول : هذا هو خطل الاتجاه العقلى الذى تزعمه المعتزلة والذى كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، واخضاع النظام الدينى بما فيه من عقائد وحقائق له ، ولا ريب ان قياس الغائب على الشاهد اتجاه خطر على الاسلام وفتح باب فساد عظيم فى المجتمع الاسلامى ، لقد كان هذا تحويلا للدين البسيط العملى الذى جاء به الرسول ، والذى يستسيغه العقل البشرى بكل سهولة الى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها واساغتها كثير من العقلاء والأذكياء ، ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ، واضعافا للايمان واثارة للشبهات والشكوك وعدم الثقة بما يقوله النبى مما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل على وجوده . وفى العالم ما اكثر ما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل عليه .

(٤)

وعيب المعتزلة وتصورهم — انهم نقلوا « الدين الى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، والدين خلاف الفلسفة » وقد وصل بهم تقدير العقل الى ما يشبه تقديس العقل وكان استخدامهم المنهج الجدلى من شأنه انه يعطى براعة فى التفكير ولكنه يظل مع ذلك عاجزا عن اعطاء الروح ما يرضيها ويسد حاجتها « فالى براعة التفكير كان هناك ضعف الروح ، والمغالاة فى تقدير العقل والتصور فى جانب العاطفة » كانت البراعة الفائقة

فى الكلام قد اعطتهم القدرة على الكلام فى الشىء وضده والمعنى ونقيضه بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الاقناع كما يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع .

(٥)

ولا ريب أن المعتزلة قد عجزوا عن ادراك تكامل الاسلام الجامع بين العقل والوجدان . ودفعهم تعصبهم للعقل الى تجاهل الجانب الآخر لمنهج المعرفة الاسلامى ، بل انهم ذهبوا الى حد اضطهادهم لكل من يرى غير رأيهم ، وغفلوا عن عجز العقل وحده عن اعطاء حاجات النفس البشرية الجامعة : حاجة الوجدان وعالم الغيب من قدرات حسية وعاطفية مختلفة يصور هذا المعنى الدكتور عماد الدين خليل حين يقول :

« تظاهرات المعتزلة الفكرية وتشبثهم المتشنج بالعقل واضطهادهم المذهبى لكل معارض وهم يقراون ما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعا فى القرآن دعوة لاعمال الفكر البشرى فى كل صغيرة وكبيرة وفى تحريك العقل لحل المشاكل الأساسية ، وهم يقرءون فى نفس الوقت ان العقل وحده ليس بقادر على انتشال الانسان من معضلاته الكونية وانه لو كان قادرا حقا لانتفت الحاجة أساسا لمجىء الأديان وانزال القرآن ، ويدركون من خلال عشرات المواضيع القرآنية أن وراء العالم يمكن للعقل ان يتعامل مع عالم غيبى شامل بعيد ، خفى محيط ينبه عن قدرات الانسان الحسية والعقلية ؛ ولكنه حق واقع ، كما ان علم الطبيعة الملموس حق واقع وان الايمان به والتسليم بوجوده يجىء بمثابة حجر الزاوية لكل ايمان حقيقى كامل . لقد قدم كتاب الله المسألة بطرفيها فلماذا نجنح ونغادر الموقع الوسط الشامل المتوازن » .

واخطر مايقف منه المعتزلة موقف التحدى هو « الوحى » :

والوحى ظاهرة غيبية صرفة لا تخضع للاختبار العقلى وان مجرد التسليم بسائر ما ينبثق عنها من وقائع غيبية موثقة وردت فى سيرة الرسول .

ولا ريب أن كل هذا مما تنتفع به حركة التغريب والغزو الثقافى فى توهين اكتمال الرسالة الاسلامية وتعدد جوانبها وعمق صلتها بعالم الغيب ، ودفع الناس الى الظواهر والمحسوسات والمعقولات وحدها . وبذلك ينقطع ذلك التكامل الجامع من المادة والروح والعقل والقلب ، وبذلك يفقد الاسلام ميزته الربانية الأساسية ويصبح شبيها بالنحل والمذاهب البشرية . وهم لايقفون عند هذا الحد بل انهم يعملون فى المجال الآخر : مجال التصوف العقلى ووحدة الوجود وشطحات الروح والخيال ويغذونها حتى ينشئوا لها انصارا واعوانا ، وبذلك يفقد هؤلاء ايضا تكامل الاسلام الجامع بين العقل والروح ، وبذلك يصبحون مهومين منطلقين وراء الأهواء . ولا ريب أن العالم قبل الاسلام كان منقسما الى فريقين : فريق العقلانيين اليونانيين ومن تابعهم ، وفريق الغنوصيين الاشراقيين ، وكل منهما يرى أن أسلوبه هو وحده

الاسلوب الصحيح ، وكلاهما مضلل فى وجهة نظره ، انشطارى فى نظرته وعقيدته ، ثم تجدد الاسلوب مرة اخرى بعد ترجمة الفلسفات ، ويتجدد اليوم مرة اخرى ليمزق جبهة المؤمنين بالله الى عقلانيين ووجدانيين ولكى يقيم بين هؤلاء وهؤلاء تلك الحواجز العالية والاسوار الضخمة حتى يتصارعوا ويتمزقوا ولا يصلوا الى حقيقة الاسلام التى تجعل المسلم عقلانيا ووجدانيا فى نفس الوقت ، استمداداً من جوهر مفهوم القرآن والسنة وبعيدا عن المغالاة والانحراف ، وتحرراً من الفكر الوافد الوثنى والمجوسى والمادى الذى هو من صنع العقل البشرى .

(٦)

أخطر ماعمد اليه المعتزلة فتح باب التأويل على مصراعيه فأولوا الدليل النقلى اذا لم يتفق مع ما انتهوا اليه فى بحثهم العقلى ، واستشهدوا به اذا كان يتفق مع القيمة العقلية التى خلصوا اليها ، بل انكروا الدليل العقلى فى مجال الأحاديث النبوية اذا لم يجدوا وسيلة الا ذلك ، فهم أمام العقل يسلمون ما وافق منها البرهان العقلى ويؤولون ما خالفه فالعقل هو الحكم فى الآيات المتشابهات وهو الحكم على الحديث ليقرر عدم صحته اذا لم يوافق العقل ويحتمل التأويل .

وقد تطرق المعتزلة فى التأويل العقلى حتى بلغوا نفى الصفات الالهية ومنها وصلوا الى التعطيل وهذا اسوا ماوصل اليه غلو المعتزلة ، وكان اخطر قرارانهم : ترجيح المعقول على المنقول ، وما المنقول الا السنة التى هى من عطاء الرسول الى جوار الوحى : وقد اشار النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك حين قال :

« أوتيت هذا الكتاب ومثله معه » : يعنى السنة .

وهكذا نجد المعتزلة حين اتخذوا البراعة فى الكلام هدفا ، يتكلمون فى الشىء وضده بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الاقناع قد خرجوا عن الحق الذى كانوا يدعون اليه وقد شغلهم هذا حتى تفننوا فى استعمال الالفاظ على نحو يؤيد دعواهم مهما بلغ ذلك من الخروج عن الحق الاصيل وكأنهم خرجوا من مدافعة خطر الرد على الزنادقة وكيدهم الى ابتداع كيد أشد خطرا هو الانحراف الى الجانب العقلى وحده وترك مفهوم الاسلام الكامل الجامع ، وقد وصل ذلك الى محاولة اخضاع العقائد الاسلامية للعقل ، وكان هذا اتجاها شديد الخطر على الاسلام وانحرافا به عن مفهومه الجامع بين العقل والقلب .

(٧)

تعد فكرة خلق القرآن من أخطر ماوصل اليه المعتزلة من استعلاء عقلى وهى فى نفس الوقت مقتلهم ومصدر هزيمتهم الساحقة . وذلك بعد أن استطاعوا بالاتصال بالحكام واعلنوا التعصب الحاد وصمموا على ان يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الاسلام . وتبنى قاضى القضاة أحمد

ابن أبى داؤود هذا الاتجاه ، وجعلوا مدخلهم الى هذا النفوذ والسلطان مسألة خلق القرآن ، فقد وصف المعتزلة القرآن بالمخلوق اختلافا ومعارضة مع مايراه مفهوم الاسـلام الأصيل من ان القرآن هو كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق . وان اثارة هذه المسألة بدعة لم يقل بها النبى صلى الله عليه وسلم ولاصحابته ، وانه اذا تردد فى العامة ان القرآن مخلوق لم يبق فى نفوسهم له اى تقديس أو اجلال ، ولكن المعتزلة اصروا على فرض هذه النظرية الوافدة نحملوا عليها الناس وحمل لواء الدعوة الى ذلك المأمون ودعا اليه علماء المسلمين قبل وفاته بأربعة اشهر عام ٢١٨ وأمر باقصاء كل من لا يدين بذلك وعقد الامتحان للعلماء فكان ذلك بمثابة محنة كبرى ، واوصى خلفاءه بالاستمرار على هذا الاتجاه حين وفاته .

وقد عجز كثير من العلماء والمشايخ والفقهاء عن مواجهة هذا الموقف والاعلان ببطلانه ماعدا أربعة هم احمد بن حنبل وسجاده والقواريرى ومحمد ابن نوح وقد شدوا فى الحديد ، واستسلم سجاده وأجاب القواريرى بعد يوم ومات محمد بن نوح وهو عائد الى بغداد وتركزت المقاومة فى امام السنة : احمد بن حنبل . وكان قول المعتزلة بخلق القرآن انكارا لقدسيته وعظمته وجلاله ، وذلك هو مقتلهم وغاية انحرافهم عن منهج الاصالة الاسلامية الجامع بعد ان اعلنوا ان العقل وحده وبدون مساعدة الشرع قادر على معرفة الله تبارك وتعالى ، وليس هذا منهج الاسلام ولا طبيعة الأمور . ولو كانت للعقل هذه القدرة لما ارسل الله تبارك وتعالى الرسل .

وقد استمرت فتنة خلق القرآن سبعة عشر عاما : خلال أيام المأمون والمعتصم والواثق ذاق فيها المسلمون كل الوان التحدى والاضطهاد ،ووقف الامام احمد بن حنبل موقف المعارضة والصمود طوال هذه الفترة ، واحتمل التعذيب والاضطهاد والسجن ، وكان لثباته وشجاعته واخلاصه اكبر الأثر فى انطفاء فتنة خلق القرآن ، فقد وقف صامدا كالسد المنيع فى وجه تيار ذلك الخطر الفلسفى اليونانى الذى حاول احتواء عقيدة الاسلام وتوهين أصالة المفهوم الاسلامى الجامع ، والذى عرض كل مقومات الدين من توحيد ووحى ونبوة للخطر ، وقد اعترف المؤرخون والباحثون جميعا بأن صمود ابن حنبل ومقاومته وهو الأعزل قد سدت ثلمة الخطر الذى كاد أن يحدث فى الاسلام .

يشير المؤرخون الى ان أحمد بن أبى داؤود هو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء فى أمر خلق القرآن ، وكان المأمون بطبيعته مؤهلا لهذا الاتجاه . وعنهما بدات رحلة التعصب الشديد والمبالغة فى محاكمة علماء المسلمين وارغامهم على قبول هذه الشبهة التى تتعارض مع المفهوم الاصيل للاسلام الذى يتحدد فى ان كلام الله تعالى قديم وغير مخلوق ، وقد نقل المأمون الخلاف الى دائرة السلطان فتدخل بوصفة الخليفة واكره الناس على التسليم بوجهـة نظـر مستحدثة فى أمر من أمور الدين ، « وقد ارتكب بسبب هذه الفكرة من التنكيل بالعلماء مايحمل المأمون وزره ووزر من اتى بعده ومن شاركه فيما يدعو اليه .

وقد مضى المعتصم على خطة المأمون فولى منصب قاضي القضاة الى احمد بن ابى داؤود ، وكان تأثيره على المعتصم اكبر . ولذلك سار المعتصم فى الفتنة وترك لابن ابى داؤود مناظرة المخالفين والتهجم عليهم واتهامهم بالمروق من الدين ، فقتل من قتل ، وضرب الامام ابن حنبل من أجل ذلك بالسياط ، وذلك عام ٢٢٠ هـ .

وفى عام ٢٣٧ جاء المتوكل وجاء معه اعتدال الميزان نحـــو الأصالة الاسلامية ، وقد انتقم الله تبارك وتعالى من ابن ابى داؤد انتقاما شديداً مرا فأصيب بالفالج وصودرت ضياعه واخذ من ولده مالا بلغ مائة الف وعشرين الف دينار وجواهر بأربعين الفا وعادت السنة الى مكانها وعاش أحمد بن حنبل بعد عزل ابن أبى داؤد أربعة أعوام ونيفا يشاهد تقلص نفوذ وثراء وغنى هؤلاء الذين طمعوا فى امر الدنيا وخرجوا عن جوهر الدين .

ومنذ ايام الواثق تبين ان المؤامرة فاسدة ، وان الدعوى باطلة ، وقد جوبه الواثق بحجة دامغـــة ردعت ابن أبى داود وأعادت للخليفة صوابه وصرفته عن متابعة الأذى بسببها ، ذلك انه جيء بشيخ الى الواثق من آزينه اوردت النجوم الزاهرة قصته وكتبها صاحب كتاب أحمد بن حنبل والمحنة (ولتر مالفيل باتون) على نحو رائع قال : قال الواثق لابن ابى داود : ناظره .

فسأل الشيخ ابن داود اذا كان مذهبه فى خلق القرآن اصلا ضروريا من اصول الايمان على المؤمنين ان يقروا به ، فأجاب ابن ابى داود : نعم . ثم استفسر الشيخ قائلا : بعد ان بعث الله محمداً ليبلغ الوحى الى قومه هل كتم شيئا من الرسالة التى ابلغها . فأقر ابن أبى داؤود بأن محمدا أبلغ الرسالة كاملة ، وعند ذلك سأله مناظره عما اذا كان النبى وعلى اساس الوحى الذى كان واسطة فى ابلاغه قد دعا الناس الى الاقرار بأن القرآن مخلوق . فلم يحر ابن ابى داود جوابا . فطلب الشيخ من الواثق ان يعد هذه نقطة فى جانبه تؤيد دعواه فأقره الواثق على هذه النقطة . وكانت الخطوة الثانية من النقاش مبنية على الاستشهاد بالآية الكريمة « **اليوم اكملت لكم دينكم** » وذلك حين سأل الشيخ عن الكيفية التى يبرز بها استحداث فكرة مذهبية جديدة بعد نزول هذه الاية ، ولم يحاول ابن ابى داود ان يدافع عن موقفه ازاء هذا الهجوم ، وطلب الشيخ ان تعد هذه نقطة ثانية فى تأييد حجته وسلم الواثق بذلك .

وفى الخطوة الثالثة من المناظرة سأل الشيخ عما اذا كان النبى قد عرف النحلة المذهبية التى دعا الناس اليها فى ذلك الوقت وعما اذا كان النبى قد دعا الى الاقرار بها فزعم ابن أبى داؤود أنه قد علمها ، ولكن لم يجب عما اذا كان النبى قد الزم المسلمين الايمان بها أم لا وهنا طلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثالثة واخيرة فى تأييد حجته .

بيد ان الشيخ لم يقف عند هذا الحد بل احتج قائلا بانه اذا سلمنا بأن محمدا علم بهذه النحلة كما علمها الخلفاء الأوائل وانهم جميعا قد رضوا

بالامتناع عن حمل الناس على الاقرار بأن القرآن مخلوق فهل من الواجب على داعية جديد ان يشتد فى القيام بما لم يقوموا به ؟ ولو فرضنا ان النبى والخلفاء قد آمنوا بما يؤمن به هذا الداعية انما كان الأجدر به ان يحتفظ بهذه العقيدة على أنها مجرد رأى شخصى من آرائه الخاصة كما صنع السلف بدلا من ان يرغموا الناس على الاقرار بها مثلما عمـد هو نفسـه الى ذلك » ا . هـ .

كانت عبارة الشيخ الأذينى : لم لم يدعوا الناس كما دعوتهم أنت ، أما يسعك ماوسعهم . فدخل الواثق المنزل فاستلقى على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه : « أما وسعك ما وسعهم » ثم أطلق الشيخ وأعطاه اربعمائة دينار ورده الى بلاده ورفض الشيخ ان يقبل ما وهبه اياه .

وهذا هو ماقاله احمد بن حنبل حين قال :

القرآن كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق .

لقد كان المعتزلة اسرع الفرق الى السقوط فى اتون الفلسفة اليونانية ومحاولة صبغها بصبغة اسلامية ، وقد فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا اذ حملوا النصوص ما لا تحتمل ، وبالغوا فى ذلك مبالغة شديدة ، وكانوا أول من تحطم بها ، ومنهم خرجت كل الفرق التى وصفت بأنها منحرفة عن مفهوم الاصالة الاسلامية والتوحيد الحق (اتباع جهم بن صفوان وضرار ابن عمرو وبشر المريسى وغيرهم من اتباع الباطنية والمؤامرة المجوسية) .

(٨)

وقف احمد بن حنبل فى وجه المحنة ثمانية عشر عاما . سجنه المأمون وحاكمه الواثق وكان فى السجن منذ اخذ الى ان ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهرا . وكانت صيحته المدوية فى محاكماته : « اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله اقول به : القران كلام الله لا اقول مخلوق » وقد اقام صابرا محتسبا امام المأمون والمعتصم والواثق ووقف سدا منيعا — كما يقول العلامة ابو الحسن الندوى — فى اتجاه هذه الامة الى التفكير الفلسفى المتهور الذى لو سيطر على الامة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى وعن النبوة المحمدية ، ولخضعت للفلسفات وأصبحت عرضة للآراء والقياسات ولانتصرت السياسة على الدين انتصـارا مؤبدا وسلبت حرية الراى والعقيدة . وهكذا كانت وقفة أحمد بن حنبل أول ضربة معول فى هذا الاحتواء الخطير الذى استشرى حين طمع المعتزلة فى السلطان وغالوا فى نشر مذهبهم وتعصبوا ضد كل من لا يوافق نحلتهم . حتى لقد بلغ بهم انه لما حدثت مفاداة بين الأسرى المسلمين والاسرى الروم فى زمن الواثق ٢٣١ ارسل احمد بن ابى داؤود رسولا من قبله يمتحن الأسرى فى ميولهم الدينية حتى لا يفتدى منهم من لا يقول بخلق القرآن .

وقد انكر المسلمون بعامة هذه البدعة ووقف مسلمو الاندلس فى وجهها معارضين . وكانت وقفة ابن حنبل ازاء هذا التيار الجارف المتمكن

بقوة السلطة امانا للنفس الاسلامية مما حفظ لها مفهوم الاسلام الاصيل دون تحريف يخرجه عن جوهره وبساطته ومنابعه الأولى ، ولم يبال فى سبيل ذلك التعذيب والضرب فأخذ وسحب ثم خلع ، وشدت يداه فخلعتا ولم يزل بوجع منهما حتى مات ، وكان الجلادون يتناوبونه بالضرب ، وكانوا يناقشونه كل ليلة وهو لا يتزحزح عن موقفه . فاذا انصرف أضيف اليه قيد جديد يوضع فى قدمه . قال : لقد ذهب عقلى مرارا فكان اذا رفع عنى الضرب رجعت الى نفسى ، وكان يقول : يارب ان كنت على حق فلا تبد عورتى .

وقال له تلميذه المروزى : ولا تقتلوا انفسكم ، قال يامروزى : اخرج وانظر ، فخرجت الى رحبة دار الخليفة فرايت خلقا لا يحصيهم الا الله تعالى والصحف فى ايديهم والاقلام والمحابر . فقال لهم المروزى اى شىء تعملون : قالوا : سننتظر ما يقول احمد فنكتبه . فدخل الى أحمد فأخبره فقال : يا مروزى اضل هؤلاء كلهم ، اذا سكت العالم تقية ، والجاهل يجهل فمن يظهر الحق .

قال ابراهيم بن مصعب الشرطى : ما رايت احدا اثبت من أحمد بن حنبل قلبا يوم المحنة .

فلما انكشفت المحنة ، عفا عن كل من اساء اليه ، وارسلت اليه عطايا المتوكل فردها وكان عيشه من تملك عقاره الذى ورثه عن ابيه وكان يقول :

« ما على رجل الا يعذب الله بسببه أحدا » .

(٩)

اول من تكلم بخلق القرآن الجعد بن ادهم من دمشق معلم مروان بن محمد وعندما طلب هرب ، ونزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان وقيل ان الجعد اخذ ذلك عن ابان بن سمعان وأخذه ابان عن طالوت بن اعصم اليهودى ، وتأثر الجهم بن صفوان بالجعد وكان ينفى الصفات عن الله تعالى واستتبع ذلك نفى الكلام والقول بخلق القرآن .

وكان لبيد بن أعصم اليهودى فى زمن الرسول فى المدينة يقول بخلق التوراة ويرى بعض الباحثين أن جماعة من اليهود الذين اظهروا الاسلام اندسوا بين المسلمين بالبصرة ، وقد تعرف اليهم واصل بن عطاء وجعل يتردد عليهم ومن قولهم ان الخير من الله والشر من افعال الانسان وان القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وان الله تعالى غير مرئى يوم القيامة وان المؤمن اذا ارتكب الذنب فشرب الخمر وغيره يكون فى منزلة بين بين لا مؤمنا ولا كافرا ، وان اعجاز القرآن فى الصرفة لا انه فى نفسه معجز اى ان الله لو لم يصرف العرب عن معارضته لاتوا بما يعارضه . فلما تحدث واصل فى هذا فى مجلس الحسن البصرى نهاه الحسن ، فاعتزل واقام حلقة اخرى فى المسجد وارسل أصحابه الذين علمهم الى المغرب واليمن وخراسان والجزيرة والكوفة وارمينية وقد تجمعت طائفة من هؤلاء لدى

المأمون الذى كان متأثرا بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم من ناحية والذى كانت نزعته الفارسية التى ورثها عن امه وبيئته التى تربى بها ذات اثر كبير فى اتجاهه ذاك .

فقد أباح المناقشة أمامه فى مسائل شائكة منها علاقة الانسان بخالقه وطبيعته الألوهية كما اباح للمسيحيين حرية المناقشة فى أى الدينين افضل .

وأدنى منه رجلين من اسوا اهل عصره : بشر المريسى واحمد ابن ابى داود . اما بشر المريسى فكان ابوه يهوديا صباغا بالكوفة فى سوق المراضع كما ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد قال : حدثنى صالح العجلى حدثنى ابى قال رأيت بشر المريسى مرة واحدة شيخا قصيرا دميم المنظر وسخ الثياب وافر الشعر اشبه شىء باليهود .

وكان المريسى يدخل على المأمون . وكان الشافعى ، والطوسى يذكرانه فى مجلسه بما يكشف عن فساد رايه : ثم كان احمد ابن ابى داود ممن قربهم المأمون ، وبذلك استطاعت المعتزلة ان تصبح ذات نفوذ ضخم بعد ان تقبل المأمون رأيهم فى خلق القرآن .

وكان بشر المريسى يقول بخلق القرآن ابان حكم الرشيد الذى توعده وقال بلغنى أن بشرا يقول : القرآن مخلوق والله ان اظفرنى الله به لأقتلنه . واختفى بشر حتى ظهر فى ايام المأمون واستطاع ان يكون من اهل الطول ، قال الخطيب البغدادى أنه ظل يدعو الى ذلك نحوا من اربعين سنة ويؤلف فيه الكتب .

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافا اليه تفضيل على على ابى بكر وعمر فاشمأزت النفوس منه ، وقد تحدث المؤرخون عن البدع المأمونية الاربع :

لبس الخضرة ، وتقريب العلوية ، والقول بخلق القرآن ، واخذ الجند بالتكبير بعد الصلوات الخمس ، واباحة زواج المتعة الذى رجع عنه بعد .

وقد حمل الناس على القول بخلق القرآن فكانت من اسوا المواقف فى حياته واسود الصفحات .

(١٠)

بعد سبعين عاما من وفاة احمد بن حنبل ظهر ابو الحسن الاشعرى مدافعا عن (الأصالة الاسلامية) متخذا نهج احمد بن حنبل بعد أن أمضى اربعين عاما فى صف الاعتزال ، ولم يكن ابو الحسن راضيا كل الرضا عن طريقة الاعتزال لغلوها فى التأويل وترجيح المعقول على المنقول . ولذلك راى الاشعرى أن الاصالة الاسلامية تقضى أن يسلك طريقا اكثر ملاءمة لمفهوم الاسلام الجامع ، يوفق بين الدليل العقلى وبين الوحى والسنة ، وقد هدى الى اسلوبه الذى اعتمد على النظر العقلى فى اطار القرآن والسنة ، مقدما

السمع على العقل بعد أن كان المعتزلة يقدمون العقل على السمع ، وقد كشف ابو الحسن عن انحراف المعتزلة عن منهج القرآن الجامع وطريق الاسلام المتكامل ، فقال انهم وجهوا القرآن وجهة تتفق مع تخيلاتهم وأولوه على حسب مذهبهم ، وخلبت التفاسير عقول المسلمين لما حوت من قوة الجدل وطلاوة العبارة وبراعة القدرة على الباس الباطل ثوب الحق ، ولذلك فقد استطاع الاشعرى ان يرد عليهم بنفس ادلتهم الكلامية التى تعلمها منهم فاستطاع أن يدحضها ويرد على الحجة بحجة أقوى ، ومن ذلك قوله :

« ان أهل الزيغ تأولوا القرآن على آرائهم وفسروه على اهوائهم تفسيرا لم ينزل الله به من سلطان ولا رووه عن رسول الله ولا عن السلف المتقدمين وانما أخذوا تفسيرهم عن أبى الهذيل وابراهيم النظام والفوطى والاسكافى والجبائى والبلخى وغيرهم من قادة الضلال » ويقول أن اهم ما ازعجه ان الجبائى (استاذه) « ألف فى تفسير القرآن كتابا أوله على خلاف ما أنزل الله وما روى فى كتابه حرفا واحدا عن احد من المفسرين وانما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه ولولا انه استغوى بكتابه كثيرا من العوام لم يكن لتشاغلى به وجه » .

وبذلك نرى أن الاسلام يصحح طريقه ويحرر منهجه كلما انحرفت به جماعة او دعوة تحاول ان تخرجه عن اصالته وتكامله الجامع ، وقد كشف الاشعرى اخطاء المعتزلة فى خلق القرآن ونفى صفات الله والقضاء والقدر ، وكلها مسائل جاءتهم من الفلسفة اليونانية ومنطق ارسطو الذى فرق المسلمين وفتح باب التأويل ، فقد اخذ المعتزلة بطرفهم فى التأويل العقلى حتى بلغوا مع نفى الصفات الالهية الى التعطيل وقالت الكرامية بالتشبيه والتجسيم وقالت الجهمية بالجبر وكلها فروع من مفاهيم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودى والمسيحى .

يقول السيد ابو الحسن الندوى : ظل الاشعرى يتزعم المعتزلة اربعين سنة ثم ثار عقله الكبير ونفسه القلقة على مذهب الاعتزال ، ونشأ فى نفسه رد فعل ضد تأويلات المعتزلة وامعانهم فى القياس وتحكيم العقل وصار يشعر بأنهم اخضعوا الدين للمنطق الصناعى وللمقدمات والاصول التى ظنوا وصور لهم ذكاؤهم انها قطعية وتأولوا القرآن على آرائهم واقتنع بأن الحق الصراح هو الذى كان عليه الصحابة رضى الله عنهم وسلف الأمة .

وقد عكف فى بيته خمسة عشر يوما يفكر ويتأمل ويدرس ويستخير الله حتى اطمأنت نفسه واستقر رأيه ورأى انه لا يسعه الا اعلان البراءة من الاعتزال والرجوع الى مذهب السلف فخرج الى الناس بالمسجد الجامع بالبصرة ورقى كرسيا ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا اعرفه بنفسى انا فلان بن فلان كنت اقول بخلق القرآن وان الله لا تراه الأبصار وأن افعال الشر انا افعلها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم .

كان اخطر محاذير الاعتزال هو الاتجاه الى تقديس العقل وتحكيمه فى

المسائل التى لاتقوم إلا على تعليمات النبوة والايمان بالغيب ، وكان مصدر ذلك هو الفلسفة اليونانية التى وجدت منطلقها فى موجة عارمة كادت تكتسح الايمان بالغيب والاعتماد على تعليم الأنبياء . وازدهر الفكر الفلسفى على حساب القلب والعاطفة وعلى حساب العمل .

وقد رد عليهم أبو الحسن الأشعرى وتتبعهم فى مجالسهم ومراكزهم يحاول اقناعهم بما اقتنع به اخيرا .

اولا : لم ينكر الاشعرى العقل ولكنه وضعه مكانه الحق . ليس العقل مقدسيا وليس سلطة لا تحد وليس له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبيعة.

ثانيا : اعلن ان مصدر العقيدة هو الوحى والنبوة المحمدية والطريق الى معرفته هو الكتاب والسنة وما يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم وأن الكتاب والسنة هو مصدر المسائل التى تتصل بالالهيات وما وراء الطبيعة وليس العقل المجرد والميتافيزيقا اليونانية .

ثالثا : اثبت القدر لله تبارك وتعالى خيره وشره ، وأثبت صفات الجلال لله من قدرته وعلمه وارادته وحياته وسمعه وبصره وكلامه ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق .وان الله تعالى موجود يرى بالابصار يوم القيامة واقر السمعيات كلها وعذاب القبر ومنكرا ونكيرا والصراط والميزان والحوض . وان اسماء الله لا يقال انها غير الله .

رابعا : دعا الاشعرى الى التفويض لله فيما ليس ميسورا تعليله من الغيبيات ونهى عن الجدل والمراء فى الدين والخصومة فى القدر ويرى ان على المؤمنين الصبر على حكم الله والأخذ بما امر الله والانتهاء عما نهى عنه واخلاص العمل والنصيحة للمسلمين .

واعلن ان المعتزلة تأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ولا اوضح به برهانا ولا نقلوه عن رسول الله ولا عقيدة السلف وانهم اتبعوا أهواءهم فى فهم الدين ولم ينظروا فى الكتاب والسنة مجردا ولم يتخيروهما اماما ومصدرا لعقائدهم وآرائهم بل كلها تعارض القرآن مع ما انتحلوه من آراء وعقائد تأولوا بها القرآن

هذا وقد تطور مفهوم الاصالة الاسلامية كما رسم الاشعرى على يد الباقلانى والجوينى والغزالى وبذلك سقط مفهوم المعتزلة الذى انكشف انحرافه وزيفه .

ولم يعد فى الامكان انبعاثه مرة اخرى فى صورته الأولى المحرفة ، التى اعتمدت على فلسفات الاديان وعلى مفهوم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودى والمسيحي والتى توحي بأن وراءها هدفا من اهداف احتواء الإسلام ، وما كان فى الامكان فصل هذا المفهوم الذى قاومه احمد بن حنبل ثم كشف عن

زيفه الاشعرى وتابعه رجال امثال الجوينى والغزالى ، ما كان فى الامكان فصله عن سياقه للدعوة اليه مرة اخرى فى العصر الحديث باعتباره مفهوما فلسفيا أو نظرية مجردة بينما لم يكن هو كذلك ، وفى ضوء ذلك الواقع الأليم الذى فرض فيه المعتزلة مفاهيمهم المضطربة بقوة السلطان والتى لم تستطع مواجهة ضوء الحق ولا نور العلم والتى تخلى عنها الذين حملوها ، ما عدا اصحاب المطامع والاهواء ، ثم كيف جاءت الابحاث الصحيحة ناسفة لكل دعاواهم الباطلة .

ان مطالبة بعض الكتاب والمفكرين بالعودة الى فهم المعتزلة ، يوحى بما وراء هذا المذهب فىاوله من اهواء اليهودية وخطط الباطنية والمجوسية لهدم الاسلام ، واعادة اصطناع هذا الاسلوب مجددا فى العصر الحديث وما فلان وفلان الا خلفاء المريسى ، وابن ابى دؤاد ، وجهم بن صفوان .

* * *

(٢)

الإســـلام والعقـــلانيـــة

قال الامام الشافعى : « ما جهل الناس ولا اختلفوا الا بتركهم لسان العرب وميلهم الى لسان ارسطو طاليس » وقد كانت الترجمة هى مصدر استعلاء التيار العقلى الذى كان واحدا من عدة تيارات أخرى ، كالايمان والوجدان فلما استعلى التيار العقلى بالذات ، كان ذلك ولا ريب راجعا الى أثر الفلسفة اليونانية التى استطاعت احتواء الفكر اليهودى والفكر المسيحى من قبل ووضعت ما سمى باللاهوت المسيحى بحيث اصبح العقل اساسا للايمان ، اما الاسلام فقد كان له مفهومه الواضح عن العقل كأداة بجوار عدة ادوات اخرى للايمان منها الوجدان والاحساس القلبى .

لقد حاولت المعتزلة الخروج عن فهم الاسلام الجامع بتقديس العقل واعتباره السبيل الواحد فى البحث ، ولقد واجهت هذه النظرية معارضة كاملة من الاصالة الاسلامية على مدى العصور ، وكلما تجـدد القول فى العقلانية وخاصة فى العقل الحديث . وكانت حجة الباحثين أن العقل والقلب فى القرآن مترادفان ، وان العقل سراج زينته الوحى ، لذلك فان سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة انما تعنى فى حد ذاتها انتقاص شأن الوحى . ولا ريب ان تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على احداث الحياة واتجاهاتها من شأنه أن ينقص من تكامل العقل والوحى ، وتلاقى العقل والروح . ولا ريب فى تقدير الباحثين أن العقل غير كاف ، ولابد من الاحتياج الى نبى ووحى ، هذا النبى يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقا فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد ، ويكون الوحى مرشدا للعقـل وهاديا فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعـاد ، ويكشف عن وجوه الأشياء التى لا يدرك العقل حسنها وقبيحها .

كذلك فان الاسلام لا يقيم فاصلا بين العالمين الروحى والدنيوى ، فليس فى الاســـلام شيء من قبيـــل أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فكل شيء فى الاسلام هو لله ، وليس فى الاسلام فاصل بين العالمين الروحى والدنيوى .

ولا ريب أن هــذا الجو الذى دعا الى الفصل بين العقــل والنقل فى المسيحية ليس موجودا فى الاسلام فما يزال النص القرآنى موثقا حيا نابضا

بالحياة لم يعتوره أى تغيير من شأنه أن يجعله موضع الشك كما يحدث فى النقل من الفكر الغربى سواء فى المسيحية أو اليهودية .

ولقد كان العقل دائما فى الاسلام جاريا فى اطار الوحى ، وقد اشار الامام الغزالى الى هذا المعنى حين قال : وظيفة العقل أن يشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز ، فالعقل لا يرشد الى النافع والضار من الاعمال والاقوال والاخلاق والعقائد ، ولكن اذا عرف فهم وصدق فالعقل خادم الدين المطيع وقد اجمعت الاصول العامة كلها على ان الوحى هاد للعقل ، وان الدين يقود العقل الى الصواب .

ويتساءل أحد الباحثين فيقول : لماذا لا ينجح العقل الانسانى فى أن يكون بديل الحكمة الالهيـــة فى تقرير النظريات الأساسية والاصول التنظيمية فى المجتمعات الانسانية ؟ ويجيب على ذلك بقوله : ان الانسانية تتطلب ممن يقرر أسس نظرياتها وأصول انظمتها أن يكون فوقها ، لا أن يكون بينها ليهيمن على احتياجاتها من افق اعلى فاذا كان بينها انحصر افقه فى ثنية بعينها فيمنعه ذلك من استشراف الحقائق العليا ، الانسانية فى حاجة الى من يطل عليها من فوق فيصل بصره الى كل شىء ويخترق فواصل الزمان والمكان فيستوعب تقدير العالم كله والعمر كله : عمر العالم ، لا عمر جيل من اجياله . والانسانية كلها على اختلاف شعوبها وقبائلها . فهل هذا ممكن للانسان ؟ .

هل يمكن أن يكون العقل وحده فى الميدان بعيدا عن رعاية الله ؟ ان العقل فى شرعنا مناط التكليف ومناط الفهم فى تقبل العقيدة .

والانسان عقل ونفس . فهب أن عقله قد آمن بالخطأ فهل ترى نفسه قد برئت من الهوى : الحكمة الالهيـــة وحدها هى التى تستوعب كل زمان ومكان ، وسع ربى كل شىء علما . الحكمة الالهية هى التى تتنزه عن التحامل أو التحيز لأن صاحبها غنى عن العالمين . العقل المخلوق الذى لم يشهد كيف خلق وكيف خلق الكون ، ونحن بهذا لا نهدر العقل الانسانى بل نحترمه اذ العقل مصباح ينير اذا وصل بمولد الكهرباء ؛ ذلك أن العقل يوصل اطاقة اذا وصل بربه وخالقه ، ولكن غيرنا يريد المصباح أن ينير بغير أسلاك .

والمؤمن هو الذى يقوم ايمانه على العقل والوجدان معا ، اى بين الفكر والشعور ، فالعقل يلتقى مع القلب ، العقـــل وظيفته النظر فى الغايات والاسباب والمسببات والقلب وظيفته الشعور الباطنى ، ولذلك فان حصر الدين فى منطقة الوجدان او فى منطقة العقل زعم غير اسلامى ، والمعرفة موجهة الى الباطن وهى معرفة حدسية شعورية ومعرفة علمية موضوعية والمعرفتان مرتبطتان يكمل بعضهما البعض وتتمم احداهما الأخرى . والعلم الصحيح يقوم الوجدان ، والوجدان السليم من اشد اعوان العلم ، والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب ، وبرهان واذعان وفكر ووجدان ، فاذا اقتصر الدين على احد هذين الامرين فقد سقطت احدى قائمتيه وهيهات ان يقوم على الاخرى ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد انسجاما .

وهكذا يقيم الاسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الانسان وليس بين العقل والقلب وحدهما ، بل بين الروح والجسد أيضا ، فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة بل يوفق بينهما فى تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما تتكاملان فى الانسان نفسه من حيث هو جسم وروح . وهو كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو فى المجتمع وبذلك يتفادى الاسلام انحرافات الشطط والتطرف وبذلك يقضى الاسلام على ما سمى بالصراع أو التناقض ويحفظ للانسان وجوده بعيدا عن الانهيار والتدمير الذى يفرضه الانطلاق ، او الجمود والتحجر الذى يفرضه الكبت .

كذلك فقد رفضت الابحاث المتجددة ما اورده بعض المتأثرين بالمعتزلة من أحاديث موضوعة كحديث اقبال العقل وادباره وانه أول خلق الله . وهو حديث قال بوضعه ابن القيم والسيوطى وضعف روايته كثيرون من الحفاظ فى طليعتهم الحافظ الذهبى .

وقال : انما تكمن خطورته فى الصبغة الرواقية التى تشيع فيه مصورة العقل بصورة مادية ثم فى ايحائه بنظرية العقول العشرة التى لفقها الفارابى وشاعت فى كتابات الفلاسفة المسلمين ، وقد واجه علماء الاسلام هذه الاحاديث الموضوعة : واجهها الحارث المحاسبى وقد رسم منهجا كاملا قال فيه ان العقل غريزة او نور ووافقه فى ذلك الامام احمد ، ووافق ذلك الاشاعرة وهو ما يقره العلم الحديث ، وقد فرق ابن تيمية فى رسالة (الفرقان) بين النظريتين الاسلامية واليونانية فى العقل فقال انه يراد بالعقل عند المفكرين المسلمين : الغريزة التى جعلها الله تعالى فى الانسان يعقل بها .

وكذلك اجمعت الابحاث المتجددة على :

اولا : عجز العقل عن ادراك الأسرار الالهية التى جاء بها الوحى الالهى عن طريق الأنبياء . وعلى العقل أن يتخذ من الوحى هاديا ومرشدا والا فانه يعجز كل العجز عن الوصول الى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة .

ثانيا : حاجة العقل الى المعونة الخارجية لارشاده الى الأمور الالهية التى لا يمكنه الاطلاع عليها الا بطريق الوحى أو الالهام .

ثالثا : قدرة العقل على تفهم المسائل كلها بعد الاطلاع عليها من الشرع ولذلك فان العقل محتاج الى الاهتداء بالشرع .

رابعا : ثبت عجز العقل بذاته عن معرفة الله والتمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر .

خامسا : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شىء حتى يحصره فى اثنين : الزمان والمكان ، فيقول متى وأين فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان .

ولذلك فان العقل لا يستطيع أن يحكم على الألوهية ولا على القضاء والقـدر ، وكل عمله ينحصر فى فهم نصوص الوحى الذى جاء من خارج العقـل .

والعقل محدود ولا يستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير المتناهى ، والعقـل لا يتصور الخلود (والله عز وجل غير محدود فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه) فاذا حاول العقل الحكم على غير المحدود اختل ميزانه ووقع فى التناقض ، والعقل لا يصح حكمه الا فى الأمور المادية ، أما (وراء المادة) أى عالم الغيب (الميتافيزيقا) فلا حكم للعقل عليه .

سابعا : لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا وقد أعطانا الله تبارك وتعالى قوة نصل بها الى حيث لا تصل الحواس ، هى قوة الخيال وهذا الذى قاله علماء الاسلام ردده الفيلسوف الألمانى كانت فى كتابه (نقد العقل) بعد ثمانمائة سنة من تاريخ ما أورده الغزالى فى مؤلفاته وقال برجسون : ان الذهن البشرى وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

ثامنا : محاولة الفلسفة لاستخدام العقل وحده فى فهم الكون والطبيعة هى مهمة يقصر دونها العقل ويرجع ذلك الى محدودية العقل وعدم احاطته بعلم الله ، مما يجعله قاصرا فى الحكم على ماهية المصلحة الحقيقية للبشرية فما يراه عقل أحدهم صالحا يراه عقل آخر غير صالح .

ولذلك نرى تخبط البشرية فى فلسفات متناقضة ، نتيجة اختلاف العقول ومقاييساتها فى تحديد وتعيين السلوك الفردى والاجتماعى .

تاسـعا : أطلق الاسـلام العقـل الانسانى وجعله حرا ولم يحـده وانما أوضح له العقيدة الصحيحة واطار الحركة معها حتى لا يخطىء .

عاشرا : كان الفكر الغربى وجدانيا كليا ، ثم تحول الى عقلى كلى ، هذا مصـدر الاضطراب ، ومصدر القلق الغربى نتج الآن من التفـاوت بين علوم المادة والعلوم الانسانية ، وهو خلاف فى أصله بين القلب والعقل ، استعلى فيه العقل الحديث استعلاء حجب به كل شأن من شئون الروح والمعنويات فآمن بالمحسوس وحـده ، ووقف عنـد المادة كمصدر للقوة والسعادة ، وغفل عن أن العقل محدود والمادة ليست كل شىء .

حادى عشر : استقلال العقل الانسانى بتوجيه الانسان أمر غير مأمون أما الاسـلام فيضـع العقـل فى اطار هـداية الله من الوحى والشرع التى هى صمام الأمن للعقل من الانحراف أو الخطأ أو الميـل الى الهوى الانسانى وتبريره ، أو الاستكانة الى الشهوات والخضوع لها .

هذا الفهم لا يحول دون المتاع المادى بل يحول دون اقتصار الانسان عليه باعتبار أن هناك متاعا آخر غـير مادى يشوق النفس الانسانية فهى تتراوح بينهما ولا تقف عند واحد منهما .

ثاني عشر : أكبر أخطاء العقلانية المجردة هي اعتبار محيط الذات الانسانية القيمة النهائية والغاية التى يتوقف عليها نشاط الانسان وسعيه فى الحياة ، وانكار غيرها وما عداها من قيم أخرى تتجاوز حدود الذات الفردية الى الذوات الأخرى والى المجتمع والى الله تبارك وتعالى والى متاع الحياة الأخرى وهو ما يطلق عليه اسم القيم العليا .

فالأسلام يحقق القيم الذاتية ويؤكد الفردية ثم يدفع الانسان الى آفاق أوسع نحو الجماعة ونحو الآخرة . وهو يحقق المتعة المادية ولكنه يدفع الانسان الى استكمال حقيقة وجوده بتحقيق المتعة المعنوية الروحية . فالنزعة العقلانية هى فى ذاتها نزعة مادية لأنها توقف السعى عند الفردية والمادية وحدهما وتحول بين الانسان وبين تحقيق الشطر الثانى من تكوينه وكيانه وهو الجانب الروحى والمعنوى ، والاسلام يدعو الى تكاملهما والموازنة بينهما ولا يعلى واحدا منهما على الآخر .

ثالث عشر : سيطرة النزعة العقلية تحبس النفس الانسانية فى جمود المـادة وظلامهـا فتحول بينـه وبين روح الايمـان والتفـاؤل والتطلع الى الأمل . والمسـلم لا ييأس من روح الله ولا يعيش أموره على الواقع أو على الحاضر وحده وانما يرى أن هناك عنصرا آخر ربانيا يغيب عن التقدير المادى والعقلى له قدرته فى تغيير الواقع .

« فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا »

فان من اهم الحريات التى يصادرها العقل : حرية الأمل وعدم اليأس . فالعقلانية فى حقيقتها سجن كبير ودائرة موصدة ، وطابع اليأس والتشاؤم الذى يتمثل فى الفكر الغربى والأدب الغربى مرده فى الحقيقة الى مقاييسات العقلانية الصرفة التى تجردت من المعنويات ومن رحمة الله .

رابع عشر : من شأن النظرة العقلانية : حصر البشرية فى « خانة » الأنانية والعزلة بما يحول دون انفساح آفاق الرحمة والعطاء والبذل ، والانقطاع عن الانسانية العامة . وهذا تصور ازاء أفق عظيم يقدمه الاسلام والدين بعامة ، وهو بعد وحدة البشرية وتعاطفها وبعـد الأمن والرحمة والسـلام .

خامس عشر : ان النظرة الاسلامية هى نظرة انسانية ونظرة متكاملة وليست نظرة محصورة فى الفردية أو المادية وحدهما ولكنها تجمع بين المادية والروحية والفردية والجماعية دون أن تفقد احداها عطاءها الصحيح .

سادس عشر : يرمى الاسـلام الى تحرير العقـل من كل سلطان الا سلطان الله ، ولما كان العقل من خلق الله فهو يخضـع له فلا يشترك مع خالقه فى النفوذ أو التأثير . وقد أودعه الله فى الانسـان لا ليعبـده من دون الله ، بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منـه ، ويهتـدى به

فى الظلمات التى ليس للعقل قدرة فى كشفها الا فى ضوء الدين ، والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعــدى ميدانها ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله .

والعقل ليس له قدرة التفرد بالنظر ، وانما هو نور مصباح يكشف الظلمات ولكنه ينكسف أمام نور الله . والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام العقل أضأل من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفا له فى ميدان العلم والفلسفة فيسير نور العقل وراءه .

سابع عشر : لقد استطاع المفهوم الاسلامى الأصيل أن يقلب مفهوم الاعتزال والعقلانية وأن يبين فساد نظريتهــا لقصورها وجزئيتها وكيف أن العقــل لا يتمكن من اقامة البرهان الا من طريق الســمع أى النقل من الوحى ، وان العقل له حد يقف عنده ، وأن فى أمور الدين ما لا سبيل الى معرفته الا عن طريق السمع وذلك هو الايمان بالغيب (بما فيه الايمان بالله واليوم الآخر والجنــة والنــار والصراط والميزان والبعث والجزاء) وبما فيه الايمان بالملائكة والرسل والكتب .

فالعقــل لم يمنح هــذا كما انه لم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته .

ولقد كان فى انحراف المعتزلة القدامى والجــدد اساءة الى الاسلام السمح اليسير واساءة الى منهجه القــرآنى السائغ ولا ريب أن الهــدف هو فى النهاية انكار الخالق ، والوحى والنبوة .

ومكمن الخطر أن يكون العقل مهيمنا على الشريعة قاضيا فيها بأهواء العصر مبررا لأوضاع المجتمعات المنحرفة .

والاسلام لا يواجه الواقع أيا كان ليقره ، أو يبرره ، وانما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغى ما يلغى وينشىء واقعا غيره فى ضوء الحقائق الأساسية .



الباب الثانى

إحياء الفكر الصوفى الفلسفى

« أسدل الزمان ستار النسيان على كتب التصوف القديمة فظلت في رمسها حتى جاء المستشرقون ينقبون عن مادة جديدة للفتنه يؤججون بها نيران الخلاف بين المسلمين من جديد فوجـدوا ضالتهم في آثار الصوفية فأقبلوا عليها وقرءوا في ضوء العقلية المسيحية وطقوس الرهبنة أخبار المتصوفين وكتاباتهم واستهوتهم أفكاره فجمعوا من أقوال الصوفية في فنهم كل شـاردة وواردة وعنوا بتنظيم موضـوعاته وترتيبها حتى يمكن القول أن بحوث التصوف الحديثـة وكتاباته كلها ترجع الى عمـل المستشرقين الذين اهتموا فوق ذلك بالتعليق على موضوعاته وتوجيه مسائله الوجهة التي يرضونها بما عرف عنهم من مهارة وصبر واهداف الى غاية . وهدفهم تشكيك المسلمين في معتقداتهم ومناهضة تعاليم الاسلام الصحيحة ، بالطعن فيها وترويج الزائف من المفتريات التي قامت حوله ، فعلوا ذلك لحساب المسيحية ودولهم الطامعة في تراث البـلاد وتذرعوا من اجـل ذلك بتعليم اللغات الشرقية » .

الإسلام والتصوف الفلسفي

(١)

استهدفت المؤامرة على الاسلام فى العصر الحديث انبعاث الفكر الصوفى الفلسفى ممثلا فى نظريات وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفناء والتناسخ والاشراق وهى فى مجموعها مفاهيم دخيلة على الفكر الاسلامى الأصيل ومستمدة من الفكر الفلسفى اليهودى والمسيحى واليونانى والمجوسى والهندى يستهدف انبعاثها زلزلة مفهوم التوحيد الأصيل وخلق جو من الشكوك والريب فى قلوب المؤمنين لزحزحتهم عن أصول عقيدتهم السمحة القرآنية الربانية القائمة على الفطرة البعيدة عن التعقيدات والتهويمات .

ولا ريب أن الدعوة الملحة الى اعادة بعث هذه الجوانب من الفكر الصوفى الفلسفى التى اثيرت فى زمن معين وتحطمت واندثرت ، لا ريب ان اعادة الاستشراق لها وتجديدها انما له غرض مبيت وماكر وخبث ، وهو الانحراف عن مفهوم الاسلام القائم على الفطرة والتوحيد والجامع بين العقل والقلب ، والقائم على التوحيد الخالص الى شبه الرهبانية والخروج عن التكليف والاستسلام للجبرية ، وبذلك تعزل المسلم عن مجال الحياة العامة وتقصره على الجانب الروحى الهوم المغرق فى التهويم ، وهذا ما يتطلع اليه مخطط المؤامرة على الاسلام من اخراج المسلم من مفهوم الاسلام الجامع الى مفهوم العبادة والصفاء الروحى ، فالصوفية الفلسفية بمفهوم الاتحاد والحلول ووحدة الوجود والفناء والاشراق هى بمثابة ضروب من تحريف الاسلام وتدميره واخراجه من حقيقته الأصيلة وجوهره الخالص الى مفهوم الوثنيات والنحل التى جاء الاسلام لهدمها وكشف زيفها وابراز فسادها .

وقد تخصص عدد من المستشرقين لهذا النوع من الفكر الاسلامى اهمهم : ماسنيون وجولدزيهر وجب وبرون وماكدونالد ومارجليوث ونيكلسون وفون كريمر ، وقد جرت المحاولات لخلق تيارين مختلفين احدهما يقول بأن التصوف الفلسفى مصدره الاسلام ، ويقول الآخر انه ليس اسلاما . وقد اهتم المستشرقون بدراسة الفرق المنحرفة فدرس ماسنيون التصوف الفلسفى والباطنية والقرامطة والنصيرية واهتم بأهل الباطن والتأويل ، واهتم أكثر من غيره بدراسة الاتحاد والحلول والاشراق ووحدة الوجود .

وهم يصدرون عن مفهوم الاعجاب بهذه الانحرافات عن مفهوم الاسلام الأصيل ويرون أن الفقه الإسلامى جاف ، وأن هذا المفهوم من التصوف

هو الذى أعطى الاسلام روحا لطيفة ، وهم يحللون قضايا التصوف فى ضوء الرهبانية المسيحية وبمقياس رياضيات الهنود ، وبعضهم يجعل المسيحية أصل الصوفية عند المسلمين ويحاولون فى كل هذا الغض من قدر مفهوم الاسلام الأصيل والادعاء بأنه ليس الا واحدا من عدة مفاهيم ، وهم فى هذا يطرحون شبهات خطيرة يهدفون منها الى تزييف الاسلام .

وجرى الكتاب التابعون لحركة التغريب وراء خطط الاستشراق وتوسعوا فيها واهتموا بانبعاث هذه النحل المنحرفة والاذاعة بها . وكتب فى ذلك لطفى جمعة فى البلاغ عديداً من المقالات كما كتب توفيق دياب عن تناسخ الأرواح وروجت الجمعية الثيوصوفية لهذه المفاهيم .

وحاول محمد توفيق دياب أن يقول بأن النعيم والعذاب فى الآخرة معنوى بحت ، وتصدى له أحد العلماء فدحض فكرته واستعرض الأدلة القرآنية على أن النعيم فى الآخرة حسى ومعنوى معا .

وما تزال قضايا التصوف الفلسفى تتجدد فى الفكر الاسلامى جيلا بعد جيل وتجد لها فى الجامعات مجالا لدراستها واثارة صدور الشباب بشكوكها وزيفها تحت اسم العلوم الفلسفية .

ولا ريب أن هناك غاية عميقة وراء تشجيع الغرب والغزو الثقافى والتغريب للتصوف الهدام والفلسفى فى بلاد المسلمين بتأليف الكتب عنه ونشر المؤلفات المليئة بمفاهيمه المسمومة وخاصة مؤلفات الحلاج وابن الفارض وابن عربى .

فانه ولا ريب يفسد مفهوم الاسلام الأصيل ويصرف عن طابعه الحقيقى ويهدم مقوماته وخاصة مفهوم الجهاد والتضحية والبذل والارادة الحرة القوية المناضلة عن الحريات والحق .

ذلك أن هذه المذاهب الصوفية الفلسفية انما تحاول أن تهدم فى النفس المسلمة أبرز مفاهيم التوحيد الخالص بالدعوة الى الزهد المبالغ فيه المستمد من آثار المسيحية ، أو بالاتكاء على الجوانب الروحية الخالصة ، وهو الجامع بين المادة والروح ، والاسلام لا يقر مذهب القول بحلول الله فى جسد انسان أو فناء الذات الانسانية فى الذات الالهية ، ولم يدع الاسلام الى الرهبنة أو الاعتكاف عن الحياة بل هو صريح فى انكار الانفصال عن الحياة والمجتمع ، بل يوجه دعوته الى العمل والعبادة ومراقبة الله فى العمل والعبادة .

وليس فى الاسلام أهل باطن وأهل ظاهر ، فالاسلام جامع بين الظاهر والباطن معا ، وجامع بين الفقه والأخلاق معا ، فليس هناك فقه جاف وتصوف لطيف ، وتلك كلها مفاهيم غربية ومسيحية استمدها المستشرقون من دياناتهم وثقافاتهم وألقوها كسموم زاعقة فى أفق الفكر الاسلامى ليخدعوا بها البسطاء السذج والذين لم يكتمل فهمهم للاسلام الصحيح . والقرآن لم يذكر كلمة الزهد على أنها من الدين ، كذلك فان الاسلام ينكر

الرموز والشطحات والتهويمات الغامضة كلها ، كما ينكر التأويلات التى قدمها رجال التصوف الفلسفى للنصوص القرآنية لأنها خارجة عن مفهوم الاسلام الأصـــيل .

وما ورد فى الطواسين للحـــلاج وفصوص الحـــكم أو غيره من كتب ابن عربى أو الســـهروردى أو شـــعر ابن الفارض ليس أصيلا بالنسبة الى الاســـلام .

ولا ريب أن ضـــخامة هـــذا العـــدد من المستشرقين الذين ركزوا على التصوف واشتغال البعض منهم بشخصية واحدة ، زهاء اربعين سنة كما فعل ماسنيون بالحلاج ليكشف عن الغرض المسموم المبيت ، ولا ريب أن ما يقرره نيكلسون وماسنيون من أن المتصوفة المسلمين أخذوا بعض نظرياتهم وتعاليمهم من النصرانية مثل نظرية الحب الالهى أو من الثقـــافة اليونانية (الأفلوطينية) كنظريات الاشراق والمعرفة والحبور ، أو ما يراه برون وجولد زيهر وغيرهما من أن الصوفية المسلمين تأثروا بالبوذية والهندية تأثرا كبيرا فى نظرية الفناء ، كل هذا صحيح ، ذلك أن الاسلام فى مفهومه الصحيح ودعوته القائمـــة على التوحيـــد والفطرة لا يمكن أن يقر مثـــل هذه الشبهات المعقدة .

مصادر التصـــوف الفلسفى هى : الفلسفة الاغريقيـــة ، والديانات الهندية ، والفلسفة الفارسية والبوذية واللاهوت المسيحى :

أولا : تسرب الى التصوف مفهوم الفلسفة اليونانية الذى يقول بوحدة الوجود والتى لا تفرق بين الله تبـــارك وتعالى وبين خلقـــه ، وانما ترى ان الوجود كله هو الله .

ثانيـــا : تسرب الى التصوف مفهـــوم الفلسفة الهندية والهندوكية فى التناسخ ، القائل بمجىء النفس الواحـــدة الى الحياة مرات متعددة ، والغاية فى نظرهم من التناسخ أن تتاح فرص متعددة للنفس حتى تتهذب ، كما تسرب اليها من الفلسفة الهندية مفهوم الفناء وهى النرفانا التى هى عندهم حال من فقدان الشـــعور تتخلص النفس فى أثنائه من الاحســـاس بالألم الذى يسببه لها اتصالها بالأجسام . والنرفانا ليست وجودا ايجابيا ولكنها تخلص من الوجود المؤلم يقوم بها مقام السعادة والتنعم .

ثالثا : تسرب الى التصوف الفلسفى من المسيحية : تعذيب النفس وترك السعى فى الدنيا ، وكذلك فان الحلول مأخوذ من المسيحية .

رابعا : دخل التأويل الفلسفى على التصوف من الفلسفة اليونانية ، ودخل الحلول والاتحاد والتناسخ من التصوف الهندى ودخلت فكرة قهر الجسد بالتقشف والانقطاع عن التناسل من المسيحية .

***

لا شك أن التصوف الفلسفي يتعارض تعارضا تاما مع مفهوم الاسلام الأصيل والذين قالوا به (الحلاج وابن عربى والسهروردى وابن الفارض وابن سبعين) تأثروا بالأفلاطونية المحدثة وبالعناصر التى أدخلها اخوان الصفا من اغريقية ومسيحية وفارسية الأصل ، ومنها المذهب المانوى والزرداشتى وفلسفة فيلون اليهودى وفلسفة الرواقيين .

وقد دعا الحلاج الى الحلول والاتحاد وجاء بعده ابن عربى الذى دعا الى وحدة الوجود .

ودعا السهروردى الى الاشراق . ولا ريب أن فكرة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والاشراق كلها غريبة على الاسلام .

وأبرز ما تحمله هذه الفلسفات مصطلحات : التجلى والصدور والاشراق ووحدة الوجود والاتحاد والحلول والفناء ، وكلها مصطلحات دخلت على الفكر الاسلامى من الفلسفات اليهودية والمسيحية والاغريقية والفارسية والهندية .

ومرد هذه المصطلحات والفلسفات الى الفكر الوافد .

دعا ابن عربى الى وحدة الوجود ووحدة الأديان مستمدا أصوله من الحلاج ، ودعا ابن الفارض الى الاتحاد . وكان ابن عربى وابن الفارض على مفهوم وحدة الوجود الذى يرفضه الاسلام وهو أن الله والعالم شىء واحد . ودعا السهروردى الى الاشراق .

وقد نقد ابن تيمية ابن الفارض وابن عربى وابن سبعين والحلاج وكشف عن زيفهم ورأى أنهم أتوا فى الدين بشىء جديد ليس من جنس كلام الله ولا رسوله ولا الصحابة .

وقد انصهرت أفكار الباطنية فى الشيعة والتصوف ، كما انصهر فيها اللاهوت المسيحى والفلسفة والمنطق الاغريقى والفلسفة الاشراقية المنبثقة من العقائد الآسيوية وفلسفة الحلول المنشقة من الفلسفة الهلنسية .

ولا ريب أن اعادة صياغة هذه القضايا من جديد فى العصر الحديث تستهدف اضعاف مفهوم الاسلام الأصيل واثارة الشبهات وتمزيق وحدة المفهوم السنى الأصيل .

أولا : وحـــدة الوجــــــود

اخطر هـــذه المذاهب التى أحياها الاستشراق فى التصوف الفلسفى « مذهب وحدة الوجود » وهو مذهب هندي برهمى ، أصوله ماثلة ومستمدة من كتب الهنود الدينية وأفكارهم الفلسفية . وهو معارض تمام المعارضة لمفهوم الاسلام القائم على الفصل بين الخالق ومخلوقاته ، ويعنى مفهوم وحدة الوجود تأليه المخلوقات وأعتبار الكون هو الله ، وهذا هو سر اهتمام المستشرقين بابن عربى والحلاج .

والاسلام يفرق تماما بين الله (جل شأنه) وبين العالم ، وهو ما تقول به الفطرة الصافية والعقل السليم ، فكلاهما يأبى أن يجعل الله هو العالم كله بما فيه ، وهو قول لا يتفق مع اقامة الأخلاق على أساس وثيق ويحول دون المسئولية والجزاء .

ونظرية وحدة الوجود ليست أصيلة المصـــدر ، وليست مما عرف العرب أو أصـــحاب الأديان الســماوية المنزلة ، انما هى فكرة ترددت فى الفلسفات البشرية وهى من أهواء الانسان التى تحاول أن تحرر الانسان من تبعة أعماله ومن مسئوليته الأخلاقيـــة ليندفع لشـــهواته الى غير غاية فهى لا تفرق بين الخير والشر ولا بين التقوى والفساد ولا بين الزهد والجشع ولا بين الفضيلة والرذيلة ، وهى فى صميمها دعوة الى انكار الله .

ومفهوم الاسلام هو مفهوم الأصالة : ان الله جل شأنه واجب الوجود منزه عن الاتحاد بمخلوقاته أو الحلول فيها ، والكون شيء غير صاحبه ، والعالم شيء غير الله ، ولقد خلق الله الخلق وكلفهم ورتب على التكاليف مثوبات وعقوبات وأنزل بذلك كتبا وبعث رسلا ، فالقول بوحدة الوجود نفى للالوهية واثبات للكائنات وحدها . يقول الأســـتاذ محمد الغزالى : ان (وحدة الوجود) عنوان آخر للالحاد فى وجود الله وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ، وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه .

ولو كانت الأرض لؤلؤا ومرجانا ما صـــح أن تكون ذات الله . ان الصاروخ شيء غير الانسان الذى أطلقه ، وكذلك فالعالم شيء غير الرب الذى ابدعه وسيره ، الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خـــلاف : لقد غزا مذهب وحـــدة الوجود عقول بعض الفلاســــفة والصوفية الذين آفتهم ان طلبوا أن يدركوا الله

وما وراء الطبيعة بالحواس التى يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشرى المخلوق لادراك النسب بين الكائنات الطبيعية وحدها أولا ، فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وادراكه كما هو المنتظر ذهبوا الى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر وانه يحل فيه وليس له وجود منفصل عنه وهكذا تجد الوثنية التى حاربتها الأديان والفلسفات سندا عظيما من هذه الفلسفة .

وقد أرشدنا النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال فقال : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا .

وخطأ وحدة الوجود هو القول بأن الكل هو الله أو أن الله هو الكل والحقيقة ان الكل لله . فالله سبحانه وتعالى هو الحقيقة الوحيدة وراء هذا العالم ، حقيقة لا نهائية سرمدية ، فالله سبحانه لا يندمج فى العالم ولا يندمج العالم فيه ولا يندمج فى المادة ، ولذلك فان قول أصحاب مذهب وحدة الوجود بأن الله والمادة وحدة لا تتجزأ هو خروج عن مفهوم الاسلام الحق الذى يقول بأن كل مسبب لا بد له من سبب وكل معلول لا بد له من علة والمسبب لا يقوم بنفسه وانما يقوم بالسبب وكذلك المعلول فانه لا يوجد بذاته وانما يوجد بوجود العلة فاذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول .

والله تبارك وتعالى قديم وهو أول وهو آخر ، والحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات ، والمادة معلولة وحادثة ولها خالق ، فاذا قيل بقدم المادة شاركت المادة الله فى قدمه .

والمسلمون يؤمنون بثنائية الوجود : وهو أن الكون موجود ومنفصل من الله . وأن الله تبارك وتعالى ذاتية قائمة مستقلة بذاتها عن الكون المادى . والكون كله ملكه وقبضته وهو المتصرف فيه وهو الذى يمسكه لحظة بعد أخرى ولو تخلى عنه سبحانه لانتهى ، وبالجملة فان الاسلام لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله (تعالى عما يقولون علوا كبيرا) هو مجموع هذه الموجودات .

وقد قال بمذهب وحدة الوجود ابن عربى وتأثر فى ذلك بنظرية افلوطين ونظرية الحلاج فى اللاهوت والناسوت . ولا ريب أن كل ما يؤدى الى وحدة الوجود أو الحلول لا صلة له بمفهوم الاسلام الأصيل ، ولم يكن معروفا على عهد السلف الصالح ولم يتكلم عنه أهل السنة وقد يؤدى بصاحبه الى الخروج عن عقيدة الاسلام .

ولقد كان النظر فى التصوف بهذا المعنى كما يقول الدكتور محمد البهى : سببا لبلاء كثير من المسلمين وتكأة لكل اباحى يلتمس السبيل الى نيل شهواته تحت ستار من العقائد أو ملحد يريد أن يهدم الاسلام بتصيد الشبهات أو معطل يحاول التخلص من تكاليف الكتاب والسنة

(شخصية ابن عربى = وحدة الوجود) .

ابن عربى هو من أجرأ من عرف فى التعبير ، وكانت مراوغته ابرز معالم أسلوبه المجازى الذى خدع به الكثيرين وسر ذلك هو خوفه من القتل . وحرصه على افساد العقيدة ، وقد فتن به كثيرون ويعد كتابه الفتوحات المكية وفصوص الحكم من أخطر كتاباته ، وقد استمد نظريته فى وحدة الوجود من (الغنوصية + الأفلاطونية المحدثة + المسيحية) .

وقد أثارت فكرة وحدة الوجود موجة من الصراع الفكرى العنيف واعتبرها أصحاب الأصالة الاسلامية من المحدثين والفقهاء والمفسرين والصوفية عقيدة متناقضة مع عقيدة الاسلام تناقضا مطلقا بحيث لا يمكن التوفيق بينهما بأى وجه من الوجوه ، وقد سمى اسين بلاسيوس كتابه عن ابن عربى : مفكر الاسلام المتنصر . ولا ريب أن ابن عربى اتخذ من أسلوب التصوير العاطفى والرمز والاشارة والاعتماد على مغريات الخيال فى التعبير طريقا محفوفا بالشوك بعيد الخطر فى نفث السموم وهو يراوح بين آرائه المسمومة وبين آراء أهل السنة فيخدع بعض الناس ، ويحاول بذلك أن يجد له ملمسا اذا ما حوكم أو كشف زيفه وهذا أسلوب اكثر خداعا من أسلوب الحلاج .

يقول الدكتور محمد يوسف موسى : محى الدين بن عربى ليس على الاطلاق فى تصوفه الفلسفى صوفيا مسلما انما يشبه فى التصوف ابن سينا فى الفلسفة ، فابن سينا لا يمثل الاسلام فى شىء انما هو امتداد للفلسفة اليونانية ، كذلك محى الدين بن عربى ليس صوفيا مسلما وانما هو فيلسوف لا يمثل الاسلام فى شىء . أن تصوفه ينتهى بسرعة خطيرة الى مذهب فلسفى يخالف الاسلام ويخالف كل دين ، انه ليس رجل دين ولا رجل زهد ، ولا تصوف ، بل فيلسوف غنوصى صناعى مجمع موفق منسق ، فهو كأفلوطين وفيلون وقد بعدت فلسفته النظرية والأخلاقية عن الدين :

أولا : انه بما ذهب اليه من القول (بوحدة الوجود) وما يستلزمه هذا القول من اعتبار العالم كله صورا ومجالى ومظاهر لله الذى هو وحده الموجود قد أتى الأخلاق من قواعدها ، اذ لا معنى للمسئولية الاخلاقية التى هى مناط الثواب والعقاب لأن للآثم اخلاقيا أن يقول : ما دام الذى اتخذنى مظهرا له هو الذى فعل حقيقة ما يظن انه فعل بى فكيف يستقيم أن أكون أنا المسئول .

ثانيا : يظهر أن محيى الدين بن عربى لا يتهيب أن يصل مذهبه الى هذا الحد فيما يتصل بالأخلاق ، انه يرى أن الذى يصل الى درجة المحبة الحق يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله بعد أن لازم زمنا طويلا حفظها . ولا ريب أن محى الدين بن عربى قد جاوز أصالة الاسلام بهذين الأمرين اللذين عدا بهما شريعة الله . وتلك أخطر جوانب دعوته أن يجعل ظاهر الشرع من نصيب العامة . وان لأهل التصوف باطنا خاصا لهم وجدهم ، وهو فى هذا يصطنع أسلوب التأويل الذى اصطنعه الباطنية .

ثانيا : الحـــلول والاتحـــاد

فكرة الحلول والاتحاد استمدها الصوفية من المسيحية التى استمدتها من الهندوكية ، ذلك ان جانبا كبيرا من تعاليم المسيحية — على حد قول البيروني — هندى المنشأ ، ويقول ماكس مولر : ان بين الديانة المسيحية والديانة البوذية مشابهـــة فى بعض الوجوه ، وخاصة الحلول والتجسد ، وقد استمدت الثيوصوفيا الحديثة نظرية الحلول من المسيحية ، وهناك قرابة وثيقة بين التصوف الهنـــدى والمسيحية المثلثة . وقد تطرق هـــذا الرأى الى التصوف الفلسفى من الاسماعيليين القائلين بالحلول والهية الائمة ، ولذلك أخذ الصوفية عنهم القول بالامام وهو المعروف عندهم بالقطب .

وقد قال الحلاج بالحلول المسيحى واستخدم مصطلحاته وبذلك أدخل الى الاسلام المفاهيم المعارضة والمناقضة للتوحيد الخالص .

وعنه اخـــذ محيى الدين بن عربى نظرية الحـــلول التى اخـــذها عن المسيحية المتأثرة بالبوذية كما أخذ ابن عربى بفكرة التثليث وذكر عبارات الكلمة والحقيقة المحمدية وكلها مفاهيم مستقاة من الفلسفة المسيحية .

وقد اشار آسين بلاسيوس فى كتابه عن محى الدين بن عربى الى تأثير النصرانية فى مفاهيمه ، وقال ان ذلك الأصل المسيحى كانت تشوبه احيانا بعض افكار اجنبيه اثرت فيه بطريق المجاورة والعدوى ، فتناولها ابن عربى بدون تمحيص ولا انتباه لأصلهـــا ، وهكذا اتصفت صوفيته فوق اتصالها بروحانية النصارى ببعض مظاهر يستند فيهـــا الى الأفلاطونية المحدثة الاسكندرية والى نظريات الغنوص وما فيها من مزيج مضطرب والى المزدكية الفارسية بل الى البوذية الهندية .

ولا شك أن هـــذا المفهوم يخرج ابن عربى من دائرة مفهوم الاسلام الأصيل خروجا تاما .

وقد ركز المستشرقون حـــول فكرة الحلول والفنـــاء والحب الالهى لهذا الغرض ، لانهم يرون أن هذه المفاهيم من شأنها أن تخرج المسلمين عن حقيقة دينهم وعن التوحيد الخالص وعن الجهاد فى سبيل الله . ذلك أن الاعتقاد بالحلولية يسقط التكاليف كلها ، ومن بينها الجهاد . ومفهوم الحب الالهى ، وهو حب الفناء يصرف دعاته عن الاحتفاظ بما يسمى وحدة الجماعة الاسلامية التى يدعو الاسلام الى صيانتها ودفع الاعتداء عليها . ولا ريب أن فـــكرة الحب الالهى تناقض فكرة الجهـــاد فى ســـبيل الله تماما كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة .

وقد تنبه المستشرقون الى مدى خطر اذاعة هذه الآراء وترديدها ، ذلك لأن فكرة الاتحاد انما هى فى جوهرها تعطيل لاحكام الشرع ، وانها تنقض رسالة الاسلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وصفاته ، وهى لكونها تستتبع التناسخ تجعل من الله — علا وجل — موجودا متنقلا وذلك يتنافى مع صفاته جل شأنه وهى البقاء والقيام بالنفس ، كذلك فقد استهدف الاستشراق بالدعوة الى الحلول والاتحاد الترويج لفكرة المسيحية نحو تأليه عيسى النبى والدعوة الى شىء لا يقره الاسلام وهو التقاء الالوهية والبشرية أو الالتقاء بين الالوهية والنبوة فى انسان وهذا ما ينشده رواد المؤامرة على الاسلام وغاية من أكبر غاياتهم .

ان مذهب الحلول يرى خلاف ما يرى الاسلام والدين الحق المنزل من رب العالمين أيا كان ، ذلك أن مذهب الحلول يرى أن الله والعالم امتزجا وأن الله والقوى الداخلية الفاعلة فى العالم مترادفان ، وهذا ما يسمى بمذهب الاتحاد بين الله والعالم ، أما الدين الحق المنزل فيرى أن الله والعالم ، والخالق والمخلوق ، والروح والمادة : عنصران اثنان لا عنصر واحد . ولا يقر الاسلام الواحدية التى تقول بأن الله والعالم والمادة والروح والخالق والمخلوق شىء واحد .

وقد رد المسلمون قول ابن عربى الذى قال ان ذاته وذات الله قد أصبحتا ذاتا واحدة ، أو ان مظاهر العالم المختلفة هى مظاهر لله تعالى ، أى ليس لله وجود الا الوجود القائم بالمخلوقات . والمسلمون يؤمنون بأن الله هو صاحب كل شىء وخالق كل شىء ومالك كل شىء ، ولكنه جل شأنه ليس حالا أو متحدا بهذه الأشياء كلها ولا بالانسان . ولا يقر الاسلام مذهبا بحلول الله فى جسد الانسان أو الأشياء .

وما قاله ابن عربى من أن الخالق يحل فيهم ، هذا المفهوم أجنبى عن الاسلام والعقيدة الاسلامية ، والعقيدة الاسلامية تغايره كل المغايرة .

يقول الامام ابن تيمية : ان الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق اذا اتحدا فاما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله ، وهذا تعدد وليس باتحاد ، واما أن يستحيلا الى شىء ثالث كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد فيلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله اذ الاستحالة تقتضى عدم ما كان موجودا والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له والتى هى كمال ، والتى اذا عدمت كان ذلك نقصا يتنزه الله تعالى عنه .

وقد أشار الامام الغزالى فى كتابه (فضائح الباطنية) الى فساد فكرة الحلول ووصفها بأنها ضرب من الحماقة ، ذلك ان الحلول لا يمكن تصوره بين جسمين فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد ، ومهما بلغت روح الصوفى من الصفاء فكيف يمكن أن يدعى أن تكون هى هو ، ولئن سلم أحد بامكان ذلك بالنسبة الى نفس واحدة فكيف لا يسلم به لجميع النفوس ، وعند ذلك يصبح العالم كله آلهة ، فمن المحال ان يحل الله فى النفس وان ينطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن فان ذلك من صفات الأجسام .

وعن فكرة الاتحـــاد يقول الدكتور محمود قاســـم مستشهدا بالامام الغزالى : ان العقل الذى يبرهن لنا على بطلان فكرة الحلول هو الذى يبرهن لنا على أن فكرة الحلول اظهر بطلانا لأن قول القائل ان العبد صار هو هو الرب كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات .

وطريقة البرهنة على فســـاد ذلك عند الغزالى هى أن يورد ثلاثة احتمالات لمثل هذا الاتحاد المزعوم وهى :

١ ــ اما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

٢ ــ واما أن تفنى احداهما وتبقى الأخرى .

٣ ــ واما أن تفنيا معـــا .

وفى الحالة الأولى لا يكون هناك اتحاد ، وفى الثانية كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحادا بين موجود ومعدوم ، وفى الثالثة لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعـــدام . والتناقض واضح فى جميع هذه الاحتمالات .

والعقل هو الذى يقرر وجود هذا التناقض والعقل نفسه هو الذى لا يستسيغ قبول هذا التناقض بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الاتحاد عند النصارى ، فأصل الاتحاد باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون الا بطريق التوسع والتجوز .

* * *

شخصية الحــلاج ـ الحلول

وتكشف شخصية الحلاج حقيقة أمره ودعوته .

قال صاحب الفهرست أن الحلاج كان رجلا محتالا مشعبذا يتعاطى مذاهب الصوفية وينتحل ألفاظهم ويدعى عن أصحابه الألوهيــة والقول بالحلول : وكان يقول « أنا الحق » وقد استغوى الحلاج العامة بمخاريق كان يعتمدها من قبل لنشاطه المستور بهذه الأعمال . يقول صاحب الفهرست : كان الحلاج جسورا على السلاطين يروم انقلاب الدول . وقال امام الحرمين الجويني : أن الحلاج كان يريد قلب الدولة والتعرض لافساد المملكة . وقال ابن خلكان انه كان على اتصال وثيق بالقرامطة ، كما اكثر التطواف فى بلاد الخلافة الاسلامية وهو يحمل الدعوة الشيعية والدعوة القرمطية وقد عدته الدولة خطرا عليها وارادت التخلص منه .

والحلاج يقول بالحلول : اى حلول الله فى الانسان ، اى أنه هو والله شىء واحد كما تقول النصارى فى امتزاج الطبيعة الالهية بالطبيعة الناسوتية : ولفظ الحلول يقابل عقيدة « التجسد » والتجسد يقوم على أساس ثنائية الطبيعة الالهيــة أو كما يعبر عنه باللاهوت والناسوت الذى وصفت به شخصية المسيح فى المفهــوم النصرانى . ومن شـبهات الحلاج قوله : ان الأولياء أفضل من الانبيــاء ، وأن من بلغ الغاية القصوى فى الولاية سقطت عنه الشرائع كلها وحلت له المحرمات ، ولا ريب أن هذا يخرج مفهوم الحلاج عن دائرة الأسلام تماما ، وقد قال الغزالى عن نظرية الحلاج : ان اتحاد العبد مع الرب هذه قصة مفضوحة عقلا غير مقبولة نقلا .

وقد وصف الحلاج بأنه رجل مجوسى الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العــلم بالأسرار ثم تناهى الى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسي لينفذ بهم الى تحقيق غايته فأدى ذلك الى قتله . وذكر امام الحرمين فى كتابه الشــامل : أنه كان بين الحــلاج وبين الجنــابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هــذا هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج .

وقد اتهم بمعارضة القرآن .

واعترف نيكلسون بأن الشك حام حول الحلاج وأنه كان يدعو للقرامطة ويبشر بمذهبه المؤمنين والكفرة على حد سواء ، ومن هذا كان الحكم عليه بالموت عادلا . والمعروف أن الحلاج حوكم أمام الخليفة المقتدر وكانت قائمة اتهاماته هى :

أولا : مراسلاته السرية مع القرامطة أعداء الخلافة والدين .

ثانيا : قوله أن الحج ليس بفرض دينى عام .

ولقد ترك المسلمون الحـلاج سنوات طويلة ينادى فى سوق بغداد انا الله ، انا الحق ، سبحانى ما اعظم شانى ، ما فى الجبة الا الله . لقد تركوه فى شطحه يتكلم بهذا فى حالات صحوه .

يقول الدكتور النشار : ولم يقتل الحـلاج لانه اعلن الاتحاد بالله . ولكن الوزير حامد بن عبد العزيز قتله او طلب من الفقهاء الفتوى بقتله ، بسبب سياسى ، أو بمعنى ادق بسبب علمى ، انه فى الفترة الأخيرة من حياته نادى بايقاف ركن من أركان الاسـلام العملية وهو الحج ، نادى الحلاج بالحج بالهمة . والحج بالهمة نوع من المعراج الصوفى تنتقل فيه النفس من مكان الى مكان مخترقة الحجب واصلة الى سدرتها الأخيرة ، وحين نادى بهـذا لم يقتله المسلمون ، ولكن حين ابتنى كعبة فى بيتـه ودعا المسلمين أن يحجوا اليها تقدم سيف الشرع اليه فقتله ، وقد اشـار الى قتله بسبب هذا معظم مؤرخى التصوف ، بل اننا نجد محيى الدين بن عربى يذكر هذا . وافتى الفقهاء بقتله لانه أبطـل الحج وكان قد طلب أن ترفع اليه الزكاة والصدقة وحاول ابطال قواعد العبادات .

وقد اشار السيد رشيد رضا (المنار ج ٩ ص ٥٤) الى ما ادعى الحلاج من مواطآت كان الغرض ان يلقى فى روع العامة واشباه العامة أنه ممن آثرهم الله بعلم الغيب والقـدرة على المعجـز من الأمور ، وقال أن اكثر مخاريق الحـلاج من باب المواطئـات والمواطئـات جمع مواطأة وهى الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر ، والمخاريق جمع مخراق . ومواطآت الحلاج انه كان يتفق مع اناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى الكرامات ، وقد اكتشف ذلك فى عصره كما بينه التنوخى فى جامع التواريخ (نشوار المحاضرة) ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وانما هو مخبر فقال له الحلاج : اشته على ما شئت ، فقال أريد سمكا طريا ، وكانوا فى بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتا خاليا من داره واغلق عليه بابه وعلا بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا الى ركبتيه وبيده سمكة تضطرب زعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب الى البطائح قال فمضيت الى البطائح ، فمضيت الى الأهواز وهذا الطين حتى أخذت هذه .

فقـال الرجل : تدعنى أدخل البيت فان لم تنكشف لى حيلـة فيه آمنت بك . فقال : شأنك . فدخل وبعد عناء وتنقيب اهتدى الى دار كبيرة فيها بستان عظيم وفيهـا صنوف الفاكهة والثمار والنوار وفيهـا ما ليس فى وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزائن مفتحة فيها أنواع الأطعمة الناضجة والحوائج لما يهيأ بسرعة ورأى فى الدار بركة ماء مملوءة سمكا فأخذ واحدة منها وخرج فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة فى وجهه وصدره وهرب واقسم الحـلاج ليقتلنه ان حـدث أحدا بذلك ولو فى تخوم الأرض ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لطمعه انه لو امر احد المفتوئين به ان يقتله فانه يفعـل .

***

ثالثا : الإشــــراقــــــ

٢ — مذهب الاشراق مذهب يونانى مستفاد من نظرية الأفلاطونية المحدثة قال به الســهروردى ، وهو جماع شطائر من الفلسفة اليونانية الوثنية والفلسفة المجوسية ، وجماع آراء وتيارات راجت عند السريان وانتقلت الى الفكر الاسلامى فى عصر الترجمة ، وتنسب الحكمة الاشراقية الى أفلاطون ثم الى دعاة الأفلاطونية الجديدة فى مدرسة الاسكندرية ، ومذهب الاشراق خارج تماما عن مفهوم الاســلام ويعبر عن الله بالنور ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من الله ، وهو ما لم يقــل به القرآن أو رسول الله أو الصحابة . .

ولقد اهتمت طائفة من المستشرقين بالسهروردى ونظريته ، ونبشوا الكتب القديمة التى كشف المسلمون عن زيف مفاهيمها وتجاوزوها ابان عصر الترجمة وأعادوها جذعة باحياء هــذه المفاهيم مرة أخرى وطرحها فى أفق الفكر الاسلامى لاثارة الشبهات والشكوك فى نفوس بعض المسلمين الذين لم يكتمل مفهومهم الأصيل ، وكان بروكلمن و أ. ريتر وفادى برج من أوائل هؤلاء فترجموا (هياكل النور) للسهروردى وقام ماسنيون صديق الحــلاج بالاهتمام برسائل السهروردى التى جمعها تحت اسم الحكمة المشرقية وأولى ذلك اهتماما كبيرا باول كراوس وهنرى كوربان وقال هؤلاء أن شخصية السهروردى وكتبه تمثلان لحظات جوهرية فى تاريخ الفــكر الاســلامى .

وتابعهم فى ترجمة ذلك والاهتمام به عبد الرحمن بدوى وابراهيم مدكور واحمــد امين وقد وصف رجال الأصالة الاسلامية مفهــوم السهروردى بأنه زائف ومضلل ووافد وليس من مفهوم الاسلام ونسبوه الى التعطيل واتهموه بانحلال العقيدة وخاصة فى قوله بأن الله قادر على أن يرسل نبيا بعد محمد وأنه كان يعنى نفسه .

« ويعتبر المذهب الاشراقى فى جملته مذهبا افلاطونيا حمل فى جوانبه ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية الاسلامية السابقة عليه وخاصة كتابات ابن سينا ، ويدور المذهب حول فكرة الاشراق ، وهو يصف الله جل شأنه بنور الأنوار ، ويستعمل نظرية العقول العشرة : الوثنية اليونانية ، تحت اسم الأنوار . وقد ابتدع عالما أوسط بين العالم الحسى والعالم العقلى أسماه البرزخ ، وأخذ هذا من افلاطون .

والمذهب خليط من الفلسفة اليونانية والفلسفة الفارسية وكلها وثنية

لا تؤمن بالله الواحـــد ، وتتعارض مع مفهوم التوحيد الاسلامى ، وهناك اتصال واضح بين ابن عربى والحلاج والسهروردى فى الاعتماد على الفكر القديم الهلينى والغنوصى معا .

وشخصية السهروردى تعطى المفهوم الحقيقى لمذهبه ، وقد وصفه أحد المدافعين عنه والتاثرين لفكره : سامى الكيالى ، بما يكفى فى تصوير حقيقته قال : لم يكن مظهره مما يلقى الهيبة أو الاحترام فى نفوس مستقبليه ، أهمـــل نفسه أو كاد ، وبلغ به الاهمال حتى كان على حـــد قول بعض من أرخ له : « زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يدا ولا يقص ظفرا أو شعرا » وزادوا على ذلك فقالوا : « ان القمل كان يتناثر على وجهـــه ويسعى على ثيابه وان كل من يراه يهرب منه » .

هذه الصورة تدل على العقلية ، وتدل على الفكر ، ولم يكن دعاة الاسلام يوما الا مثالا للنظافة والكمال والخلق ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف قبل قدومه بريح المسك . وقد وصفه تلميذه الشهرزورى صاحب كتاب نزهة الأرواح بأنه كان فى مستوى العامة يضرب شعره ولحيته الى الشقرة ، وانه كان يميل الى السماع وكان يبدى احتقـــارا شديدا لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية ، وقد أشارت كل المصادر التى كتبت عنه الى « قذارته » ومنها آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ ٤ . وكانت آراؤه خارجة على المفهوم الأصيل للاسلام ، وقد كشفت مناظراته مع العلماء عن جهـــل وشك وشعوذة وتضارب حتى اتهموه بالزيغ وانحلال العقيدة .

وقد خلط فى عقله تلك الفلسفات الاغريقية والهندية والفارسية ، وأراد أن يبدع من هذا المزيج ما أسماه الفلسفة الاشراقية .

ولم يكن هذا كله ليضع السهروردى فى الموضع الذى وضع فيه لولا موقفه من خصوم الاسلام وتعاونه معهم ومراسلته اياهم .

يقول الدكتور عمر فروخ : ان التهمة الظاهرة هى الالحاد ولكن يبدو ان السبب الحقيقى هو انه أثار شكوك الدولة القائمة بكثرة تطوافه ونشاطه السياسى ، ويروى سيف الدين الآمدى قال اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لى : لا بد أن أملك الارض فقلت : لعلك تعنى بالعلم . قال لا . وكان لا يرجع عما وقع فى نفسه من أن يملك الأرض فعـــلا وكان مصدر محاكمته وقتله عام ٦٣٢ هـ .

ولا ريب ان مذهب الاشراق بعيد عن جوهر الاسلام فقد قام مفهوم الاسلام الأصيل على أصول ثابتة من القـــرآن والسنة الصحيحة واتخـــذ من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله نموذجا تطبيقيا لا يتعداه المسلمون الى هوى أو بدعة ، ولا يطمحون فى زيادة عنه ، مؤمنين بأن رسول

الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم عن أمته شيئا من دين الله ، وانه جاء ليتمم مكارم الأخلاق وانه هو الذى حذر المسلمين من دخول جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم : يعنى هذه الوثنيات من الفكر البشرى الزائف الذى قدم من الاغريق وفارس والهند .

٣ — نظرية الفناء : فكرة هندوسية ومستمدة من البوذية ، وهى تقول بفناء النهائى فى اللانهائى ، وخطؤها أنها تجعل الخالق والمخلوق شيئا واحـــدا .

ويقول الباحثون أن كلام الصوفية فى الفنـــاء أدى بهم الى القول بالاتحاد ودخل الى الفلسفة الصوفية من كتب البوذية التى اثرت فى ابن سبعين السشترى الذى يقول أن المحب يفنى فى محبوبه حتى لا يكون فرق بين محب ومحبوب .

ولا يقر الاسلام مذهبا بفناء الذات الانسانية فى الذات الالهية .

٤ — فكرة الانسان الكامل تأثر فيها المتصوفة بشعر الفرس وتبنوا ما فيه من نزعات حلوليـــة التقت عندهم بفكرة وحـــدة الوجود اليونانية وتبلورت فى شعر ابن الفارض وابن عربى ، وبلغت نهايتها فى نظرية الانسان الكامل لابن عربى . وليست فكرة الانســـان الكامل اسلامية المصـــدر فهى مما ورد فى كلام أرسطو وأفلاطون ثم رددها الفارابى وجماعة اخوان الصفا واستعملها محيى الدين بن عربى فى مؤلفاته ، وهى محور تعاليم البرهمية . ومصدرها المانوية الايرانية القديمة . كما ترد نفس هذه الفكرة فى فلسفة فيلون وفى الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله .

وتستهدف فكرة الانسان الكامل ايجاد قطب أو وسيط للوصول الى الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فان هذه الفكرة يسقطها الاسلام ويرميها بالزيف والفســـاد اذ لا يقر الاســـلام وجود وسيط بين الخالق تبـــارك وتعالى وبين الانسان .

ويتصل بهذه النظرية الكلام عن الحقيقة المحمدية وتصوير النبى صلى الله عليه وسلم بصورة غريبة حقا بعيدة عن الصفة التى يصفه بها القرآن والتى يصفه بها الصحابه وكبار التابعين .

ابن الفـــارض :

فهم ابن تيمية مذهب ابن الفـــارض على أنه وحـــدة وجودية مبنية على الحلول والاتحاد وعنده : ان مثل القائلين بوحدة الوجود كمثل النصارى .

وأن فى قول هؤلاء من الكفر والضلال ما هو أعظم مما فى قول اليهود والنصارى . وقال ابن تيمية أن موقف ابن الفارض لم يكن موافقا لتعاليم

الاسلام ولا ما عرف عن النبى والصحابة والتابعين ومن الى أولئك جميعا من السلف الصالح وأن القول بوحدة الوجود والحلول هو من سوء الاعتقاد ما ينافى الاسلام الصحيح .

وهذا الذى يراه ابن تيمية فى ابن الفارض هو رأيه فى ابن سبعين والحلاج والكرماني وعفيف الدين التلمساني من القائلين بوحدة الوجود التى يصدر أصحابها عن أصلين باطلين يخالفان دين الاسلام لمخالفتهما للمعقول والمنقول ، وأحد هذين الأصلين هو أن الحلول والاتحاد وما يقاربهما من القول بوحدة الوجود هو مذهب القائلين بأن الوجود واحد لا فرق فى ذلك بين الوجود الواجب للخالق والوجود الممكن للمخلوق .

اما ثانى الأصلين فهو الاحتجاج بالقدر على فعل المحظور . والقدر فى رأى ابن تيمية يجب الايمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده .

وقد ناقش هذا الاتجاه وادانه كثيرون ، منهم ابن حجر العسقلانى وبرهان الدين ابراهيم البقاعى الذى الف كتابين تناول فيهما ابن عربى وابن الفارض وأبان عن ضلال مذهبهما وفساد عقيدتهما وانحلال خلقهما

ـــ تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى .

ـــ تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد .

وقال عضد الدين الأيجى صاحب المواقف عن ابن عربى أنه كان كذابا حشاشا كأوغاد الأوباش ، وأن قولهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى يعنى انه لا نبى ولا رسول ولا مرسل اليه .

وقال ان ابن عربى له خداع كثير غر به خلقا فأثنى عليه لذلك قوم من المؤرخين خفى عليهم امره وأن العلماء اتفقوا على تكفيره بحيث أصبح ذلك امرا اجماعيا ، وقال أنه لم يوجد لابن الفارض فى كل أعصره من ذكره بحالة ثناء عليه بعدالة أو ولاية ولا ظهر منه علم من العلوم الدينية ولا مدح النبى بقصيدة واحدة مع كثرة سفره فدل بذلك على سوء طويته ، وأن القدح قد نقل فيه نقلا قطعيا عن محبيه ومبغضيه .

وان شراح تائيته وكلهم من التابعين لطريقتــه ، والمنتقدين عليــه من أهل السنة ، وأهل زمانه وكلهم من أهل الشريعــة ، رموه بالفسق والاباحية . وقد عدد البقاعى نحوا من اربعين عالما كلهم من دعائم الدين من عصر ابن الفــارض الى عصر البقاعى وكلهم يرمى الرجل بما ينظمه فى سلك الكفر أو الزنادقة أو الملحدين أو الاباحيين ويخرج مذهبه فيسلكه فى عــداد المذاهب الضالة والعقائد الفاســدة . ومن هؤلاء عز الدين ابن عبد السلام وابن دقيق العيد وتقى الدين السبكى وبدر الدين بن جماعة وزين الدين الحنفى . ويتهم البقاعى ابن الفارض وابن عربى فى خلقهما :

ويؤيد اتهامه بما أشار اليه صاحب المواقف من أنهما كانا يصطنعان الحشيش ، ومن أن ما انتهيا اليه من تقرير الوحدة ونفى الأثنينية انما هو ضرب من الوهم والخيال الذى يحصل فى العقل من فعل الحشيش .

وأن ابن الفارض من المعتنقين لوحدة الوجود والقائلين بالاتحاد والحلول ، وهذا يجعله خارجا على تعاليم الكتاب والسنة . وأن ابن الفارض يضع ما يسميه الحقيقة المحمدية فى مقابل الحقيقة الالهية .

وقال ان نظرية اللاهوت والناسوت التى قال بها الحلاج ، قال بها ابن عربى وابن الفارض وهى تمثل العنصر المسيحى الذى أختلط بالفكر الفلسفى الصوفى ، وأنه ترديد لقول اليعاقبة الذين كانوا يرون أن المسيح هو الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح ، وأن اللاهوت والناسوت لم يردا فى كلام العرب ولا فى الشرع ، وهى من موضوعات النصارى :

قال تعالى : « **لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم** » .

ثم استعملها الحلاج ، استعمل هذا اللفظ وأكثر من استعماله فكان الحلاج بحق ممثلا لهذا الأثر المسيحى فى النصوص الفلسفية ، وصلة ذلك بالأفلاطونية المحدثة .

(ابن الفارض والحب الالهى : دكتور مصطفى حلمى)

وقد أولى المستشرقون ابن الفارض اهتماما واسعا ، وترجم اميل درمنجم ما أسماه « خمرية سلطان العاشقين » وقدم لها مقدمة عن التصوف وقال انها ستلقى ما لا يقل عما لقيته رباعيات الخيام من الحظوة .

وقد ترجم شعر ابن الفارض الى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، والى الايطالية والألمانية والانجليزية .

(٣)

يحاول التصوف الفلسفى تزييف مفهوم الاسلام فى عدة مواضع

أولا : لا يقر الاسلام مذهبا يقول بحلول الله فى جسد انسان أو فناء الذات الانسانية فى الذات الالهية كما لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله هو مجموع هذه الموجودات ، والاسلام يقول بأثنينية الوجود ، أى الله والعالم ، فالله خالق والعالم مخلوق ، والله مدبر والعالم مدبر . وليس الله حالا فى العالم وانما هو خالقه ومدبره والله بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم بما يعملون .

ثانيا : لا يقر الاسلام القول باسقاط التكليف ورفع فرضية أداء العبادات عن الفرد — أى فرد — بدعوى أنه من وصل الى الله تسقط عنه

التكاليف . وهــذا القول لم يعرفه المسلمون ايام رســول الله وهم قمة المسلمين فى كل عصر ، فقــد عاش رسول الله وعاش المسلمون حياتهم يؤدون العبادات والفروض دون أن تسقط عنهم .

ثالثا : لا يقر الاسلام عقيدة الجبرية ولا فكرة الزهد ، بمعنى السلبية والانقطاع عن الجهاد والعمل ، فان الاسلام يدعو الى بناء الارادة والكسب وينكر الانصراف عن الدنيا .

رابعا : لا يقر الاسلام دعوة التصوف الفلسفى بالتحول من الخوف من الله الى الرجاء فيه ، وانما يقر بقاء الخوف والرجاء معا فى نفس المسلم يتراوحان ويجيئان .

خامسا : فساد القول بأن التصوف لغة عالمية او أن التصوف ادخل مجموعات كثيرة من الوثنيين فى الاســلام أو أعطى الاسلام مادة الطراوة فى مجتمع بلغ غاية الجفاف .

وهــذه كلها من سموم الاستشراق والغزو الثقــافى ، أما التصوف الذى ادخل الناس فى الاسلام فهو التصوف الأصيل وليس التصوف الفلسفى الزائف ، أما مسألة الطراوة والجفاف ، فالاســلام لا يعرفهــا لأنه يجمع بين العقل والقلب .

أما التصوف الذى يقره الاسلام فهو الذى لا ينكر أصلا من أصوله ولا فرعا من فروعه .

فالاسلام لا يقر الدعوة للانفصال عن الدنيا أو تحقيرها أو اعتزال الناس أو تعذيب البدن بتحريم الطيبات كما يحرم فى نفس الوقت الترف والاسراف ، كمــا لا يقر رفــع التكليف او الغــاء الشريعــة فى اى طور من اطوار المسلم .

وقد ظلت الفطرة الاسلامية دائما بمنــأى عن تعقيــدات التصوف الفلسفى . وان هذه القضايا قد هزمت منذ اثيرت وتحقق فسادها ، وتخلص الفكر الاسلامى منها ومضى فى طريقــه ، حتى جاء الغزو الثقافى لابتعاثها من جــديد .

(٤)

لا ريب أن هنــاك شبهات تكمن وراء تاريخ التصوف الفلسفى ، فقد ارتبط هذا التصوف بمواقف سياسية تؤكد أنه كان اسلوبا من العمل لهدم الدولة الاسلامية ، وكان ستارا لحركات هادمة من حركات الباطنية او القرامطة او الزنج او غيرهم ، وانهــا استهدفت صرف العامة اليهم ، وقد حاول الاستعمار فى العصر الحديث الاستعانة بالتصوف لمثل هذه الغاية ولصرف المسلمين عن حقيقة دينهم واغراقهم فى جو من الغموض والتكهنات

بما يرخى عزيمتهم عن الكفاح لتحرير أوطانهم وعن الجهاد وعن الوضوح الاسلامى فى فهم الأمور وعن القوة . وقد كان مستشرقو التصوف الفلسفى جزءا من المخطط السياسى الاستعمارى .

واذا كان الحلاج والسهروردى قد قتلا فهما لم يقتلا لرأيهما ولئما قتلا لتآمرهما .

(٥)

يقوم المفهوم الاسلامى الأصيل على :

أولا : ان الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء واحـــد لا شريك له . خلق كل شىء سواء أكان ذلك الشىء طاقة من الطاقات المحضة كالمغناطيس والأرواح والملائكة أو مادة من المواد كالجمادات والنباتات والحيوانات .

ثانيا : ان الخالق الأعظم ليس هو جزء من مخلوقاته ولا هى جزء منه ولا تماثله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وهى مخلوقة بعلمه وارادته وقدرته .

ثالثا : ان دلائل وجود الخالق العظيم تبدو فى مخلوقاته لأنها من آثار قدرته . ومخلوقاته مهما أوتيت من علم فانها لا تحيط به علما .

رابعا : دعا الاسلام الى الأخذ بألوان من العبادات والمجاهدات لتعميق مفهوم التقوى والورع ، وهذا لا يعنى بأى حال الزهادة بمعنى الانصراف عن الدنيـــا أو الانقطاع الى العبـــادة وترك العمـــل والكسب ولم يحرم الاسلام سوى الانغماس فى الشهوات التى تشغل القلب عن ذكر الله .

خامسا : لا يقر الاســـلام اسقاط الشرائع والفرائض لأى سبب من الأسباب وما دعا اليه الحلاج من اسقاط الشرائع يخرجه هو عن الاسلام ، وليست رســـوم الشريعـــة فى الحقيقة مظاهر تختلف عن أعمال القلوب ولكن العبادات لها مظاهرها التى هى جزء لا يتجزأ من مداخلها .

(٦)

ان فكرة التقـــاء الأديان أو أن التصوف لغـــة عالمية هى من أخطر الدعوات واشدها فسادا ، وابعدها عن مفهوم الاسلام ، وهى ما يقول به أصحاب وحدة الوجود والتى يروج لها الاستشراق الذى دعا الى انبعاث الفكر الفلسفى الصوفى فى العصر الحديث ، فليس صحيحا أن الاختلاف فى الأديان اختـــلاف فى المظاهر ، وليس صحيحا أنها جميعا تسلك طريقا الى الله ، فان مفهوم التوحيد الخالص الذى يبرىء الله من التعدد والشريك لا يوجد الا فى مفهوم الاسلام .

وكل اشعار جلال الرومى وكتابات ابن عربى فى هـــذا الصدد زائفة ومضللة وليس صحيحا أن الايمان والكفر لا يختلفان أو أن أصحاب الأديان

وعبدة الأصنام متفقون فى هدف واحـــد ، أو أن التوراة والقرآن واحدة . ونحن نعرف أن التوراة كتبها أحبـــار اليهود وليست هى كتاب الله المنزل على سيدنا موسى .

كذلك فان من أسوأ ما يدعو اليه دعاة التغريب التهويل فى الخلاف بين الصوفية والفقهاء ، وهو خلاف زمنى انتهى وصفى ، لم يعد الآن موجودا كذلك فان القول بتقسيم المسلمين الى طوائف وجعـــل أصحاب مفهـــوم الأصالة الاسلامية طائفة ، هذا لا ريب يمثل مغالطة شديدة فان أهل السنة يمثلون تسعين فى المائة من تعداد المسلمين وهم ليسوا طائفة بمعنى الفرقة ، ولكنهم هم الأغلبية الساحقة التى تمثل جماعة الاصالة الذين يستمدون مفهومهم من القرآن والسنة الصحيحة .

كذلك لا يقر الاسلام المبالغة فى الحديث عن كرامات الأولياء وانبائهم بالخوارق ، ويرى أن هـــذه أمور خاصة تتعلق بالأفراد وليس لها أثرها أو تأثيرها فى المجتمع ، وانها لا تحول مطلقا دون أداء الفروض العبادية والالتزام بالشريعة ، وان المسلم مهما بلغ من درجات الايمان أو الولاية لا يسقط ذلك عنه فرضا أو التزاما .

(٧)

يقف الاسلام من التصوف الفلسفى موقفه من الاعتزال تماما ، فكلاهما لا يمثل الاســـلام ولا يعبر عنه ، فالصوفية يتخذون القلب أداة للمعرفة وقد أنكروا على العقل مقدرته على فهم الألوهية وأسرارها وهم يتحصنون بالقلب فى مواجهة المعتزلة الذين يتحصنون بالعقل .

والواقع ان مفهوم المعرفة الاسلامى الأصيل : يجمع بين العقل والقلب ، فالقلب يدرك الغيب والوحى ، والعقل يدرك الشهادة ويصادق الوحى .

ولا ريب أن الاستشراق ودعوة التغريب والمؤامرة على الاســـلام من شأنها أن تفصل بين المفهومين وتجعلهما فى موقف التضارب والصراع فيقف جماعة من المستشرقين الى جانب المعتزلة يعلون من شأن العقـــل ، ويقف جماعة منهم الى جانب الصوفية يمجدون الحدس والوجدان .

والاسلام فى مفهومه الأصيل يجمع بين القلب والعقـــل والشريعـــة والحقيقة وترابط الظاهر والباطن ، ويؤكد أنه ليس هناك معرفة عن طريق القلب مستقلة أو معرفة عن طريق العقل مستقلة أبدا ، وانما هناك مفهوم جامع هو الاســـلام .

ويؤكد الاسلام فكرة الاستواء فى السر والعلن حتى يكون باطن المرء متحققا فى ظاهره وحتى لا يكون هناك فاصل بين ما يسمى بالباطن والظاهر سواء فيما بين الانسان وبين الله أو بين الانسان والناس ويقرر أن أعمال الباطن مبدأ لأعمال الظاهر وأعمال الظاهر آثار لها دلالتها ، فان كان

الرجل صالحا كانت الآثار صالحة . يقول ابن خلدون : للشريعة حكم على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم ، وحكم عليهم من حيث باطن أعمالهم ، لا ما يموه به بعض الباطنية ويزخرفونه من أقوال سفسافة ناقضة لمعاقل الشريعة ، فالشارع لم يظهر حكما ويبطن آخر « **تعالى الله عما يقولون علوا عظيما** » .

و لاريب أن طريق الحق واحد ، أما الباطل فسبله كثيرة ، لهذا اختلفت مذاهب ونظريات الانحراف والمنحرفين وبدا طريق الله واضحا « **وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » .

كما يؤكد الاسلام بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ، تلك البشرية التى هى توكيد للحقيقة الالهية : حقيقة التوحيد « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد** » وقد فرق الاسلام بين الألوهية وبين النبوة ، وفرق بين عصمة الأنبياء وبين قدرات غير الانبياء مهما كانوا من صالحين واقطاب وأولياء فهى لا تتسم بالعصمة مطلقا .

وكذلك ربط الاسلام بين الحقيقة والشريعة فى مفهومه الجامع : يقول الامام الطرطوشى : زادوا فى الدين أمرا هو هدم للدين ، هو زعمهم أن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر ، فاذا اقترف أحدهم ذنبا فأنكر عليه منكر قالوا فى المجرم انه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه ، وفى المنكر انه من أهل الشريعة فلا التفات اليه ، وكأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين وأنه يحاسبهم بوجهين ويعاملهم معاملتين .

ولا ريب أن السنة ترشد فى صراحة لا لبس فيها الى أن الشريعة والحقيقة كلتيهما تنبعثان مباشرة من تعاليم الرسول وانهما متكاملتان .

ويصدق هنا القول : بأنه لو كانت هناك تعاليم سرية فى الاسلام تخفى وتطوى لعرف العلماء والفقهاء هذه التعاليم ولتحدث عنها القرآن المجيد .

(٨)

هذه المفاهيم ادخلها الى الاسلام أتباع المجوسية لتحريف الاسلام فى ظروف الضعف والانهيار ، وذلك فى حملة الحقد على قوة الاسلام وبرغبة هدمه ، وواصل المستشرقون هذه الحملة واتباعهم من دعاة التغريب لنفس الهدف .

وقد قطع الشيخ عبد القادر الجيلانى فى هذا الأمر بقوله :

كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة : الشرع هو ظاهرها والشرع هو باطنها ، واذا رأيت الرجل يطير فى الهواء فلا نعتبره حتى تزن اقواله بميزان الشرع » .

ولا ريب ان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « **لا رهبانية فى الاسلام** » كان شجبا للانحراف نحو الزهد المسيحى . وقال عليه الصلاة والسلام : « **جئتكم بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك** » وقد عمل الفكر الاسلامى على توالى العصور على تحرير نفسه من هذه المداخلات الوثنية المسيحية واليهودية والفارسية والهندية .

* * *

الباب الثالث

إحياء الفكر الفلسفى

وقف الاســلام من تراث الفلسفة المترجم من اليونانية والفارسية والهندية موقفا واضحا صريحا هو أن هذه المدرسة التى اشتغلت بالفلسفة وعلى راسها (الكندى وابن سينا والفارابى) هى امتداد للمدرسة اليونانية الاغريقية وانها ليست نتاجا اسلاميا خالصا ، وأن للاسلام منطلقه الى الفكر الفلسفى الاسلامى عن الطريق الذى بداه الامام الشافعى بكتابه (علم أصول الفقه) ، وقد تحدد موقف المسلمين من الفلسفة المشائية اليونانية وغيرها منذ اليوم الأول لترجمتها ، ووقف منها أهل الاصالة الاسلامية موقف المعارضة الصريحة والشجب الكامل .

وحكم الاسلام على هذا الركام الضخم المتخلف عن « ما قبل الاسلام » سواء من الفكر الغنوصي الشرقى أو الوثنى الهلينى هو انه لا يمثل المفهوم الاصيل ولا يعتبر من الفكر الاسلامى ، وانما جاء الاسلام لرده والكشف عن زيفه وابطال دعواه القائمة على الأهواء البشرية الطامعة الى الخروج عن حدود الله والفطرة الانسانية ، وأن البحث الذى قام بــه علماء المسلمين و (الشافعى ، الغزالى ، ابن تيمية) فى مقدمتهم قد انتهى الى اثبات شخصية اسلامية متميزة فى مجال المعرفة والمنطق تختلف اختلافا واضحا عن المفهوم اليونانى الهلينى ، كما كشفت أن المحاولة التى قام بها ابن سينا والفارابى فى تقريب أو تطويع أو ربط الفلسفة اليونانية بالتوحيد الاسلامى هى محاولة فشلت وعجزت عن أن تحقق شيئا ، لأنها حاولت أن تصهر الوثنية اليونانية وعلم الأصنام فى اطار التوحيد ، وانهــا اعتمدت على مصادر ثبت فساد نسبتها الى أصحابها وقــد دخلها تحريف كثير ، ولقد صفى المنهج الاسلامى الأصيل هذا الركام الذى ترجم من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية جميعا وحكم عليه فى ابانه وتجاوزه وتحرر من سلطانه ، فلما جاء العصر الحديث حرصت قوى الاستشراق والتغريب والغزو الثقافى على احيائه من جديد واثارة قضاياه وتصوير الفكر الاسلامى بأنه فكر قــد تشكل متأثرا بالفكر اليونانى وأن أرسطو كان له عند المسلمين مكان كبير . ومنذ جاء المستشرقون يدرسون مادة الفلسفة فى الجامعة يفرضون مفهوما زائفــا هو أن الفلسفة الاسلامية هى فلسفة يونانيــة مكتوبة باللغــة العربية ، ثم يجىء من يترجم مؤلفات أرسطو بدعوى أن هذا الفيلسوف كان له أثر فى الفــكر الاسلامى والحضارة الاسلامية فى ابان النهضة وأن من شأنه أن يجدد النهضة التى يعيشها العالم الاسلامى المعاصر .

ولم يكن هذا القول صحيحا ، لا فى جملته ولا فى تفصيله ، ذلك أن الفكر الاسلامى الأصيل قد رد أرسطو والفكر اليونانى كله وحكم بأنه فكر مجتمع عبودى يختلف اختلافا واضحا عن المجتمع الاســلامى ، ولكن تيار التغريب غذى هذا الاتجاه ونماه على نحو أغرى به الكثيرين ، وظن بعض المثقفين ان للفــكر اليونانى مكانة وأثرا فى الفكر الاسلامى من قبل جديرة بأن تجعل لوليده الفكر الغربى أثرا فى الفكر الاسلامى الحديث .

وتلك هى أخطر الدعاوى التى حملها الدكتور طه حسين وهى قمة المؤامرة على الاسلام ، ولقد كان فى تقدير حركة التغريب والغزو الثقافى أن يحدث هذا العمل فى العصر الحديث ما أحدثت الترجمة فى العصر الاسلامى الأول : وكيف أغرق الفكر الفلسفى اليونانى اذ ذاك فكر الاسلام فى دوامة عريضة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر ، ولذلك عمدوا الى تجديد بعث الفلسفة اليونانية التى تسمى علم الأصنام عند اليونان وفلسفات المجوسية والمزدكية والبابكية وغيرها من الفكر الشرقى الغنوصى ، وعنوا بفلسفة التصوف القائمة على وحدة الوجود والحلول والاشراق ، وجددوا الأبحاث القديمة المدفونة التى رفضها المسلمون ودحضوها وكشفوا زيفها وفسادها وأعادوا النظر فيها من جديد حتى ترى اليوم هذه الكتابات المسمومة التى تحاول أن تصف الفكر الاسلامى المعاصر بالقصور لأنه متخلف فى مجال الفلسفة ، وترى هذه المحاولات الجارية لانشاء ما يسمى فلسفة عربية ، حتى يكون لها طريق مستقل عن الفلسفة الاسلامية ، وكل هذا يستهدف « احتواء » الفكر الاسلامى بالفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة على السواء ، ويرون أن شبلى شميل هو الذى بدأ طريق الفلسفة العربية حين دعا الى مذهب دارون بتفسير بخنر ، هذا المفهوم المادى الشديد الحملة على الدين والأخلاق والعقائد . الذى يستهدف أن يسقط الفكر الاسلامى الحديث فيما تحاماه الفكر الاسلامى فى الماضى حين تحرر من اسار الفلسفات الوثنية والمادية وأعاد تركيب نفسه وفق مفهوم الأصالة الاسلامية تحت اسم « مذهب السنة والجماعة » ، ومازالت هذه المحاولات كلها التى تتجدد والتى يقودها جميل صليبا وعبد الرحمن بدوى وجورج حنا ولويس عوض وزكى نجيب محمود ودعاة الماركسية والتفسير المادى للتاريخ ودعاة الوجودية تستهدف هذا الغرض معتبرين أن (الفكر العربى الحديث) هو فكر مستقل لا صلة له بالاسلام وانما هو ابن الحملة الفرنسية والارساليات التبشيرية المسيحية اللبنانية ، ولذلك فهو حر فى أن ينطلق بعيدا عن الاسلام وأن يخوض تجربة الاحتواء الغربى الماركسى الليبرالى الوجودى الخ .

ومن هنا كانت الحملة على الشافعى وابن حنبل والأشعرى والغزالى وابن تيمية لأنهم هم القذى فى عيون كل محاولات احتواء وتغريب الفكر الاسلامى ، ولأنهم هم الذين فتحوا الطريق الى أصالة الفكر الاسلامى . وسوف يخوض المفكرون المسلمون التجربة مرة أخرى على نفس مبادىء الاسلام على النحو الذى مهد له الشيخ مصطفى عبد الرازق وسار فيه بخطوات واسعة الدكتور سامى النشار ومحمد على زيان ، وهذه المدرسة ومن تابعها على طريق الاسلام الصحيح .

ومن هنا كانت مؤامرة الصمت ازاء كل من عارض الفلسفة اليونانية من اعلام الفكر الاسلامى مع ابراز واعلاء كل الأسماء التى حملت لواء الفلسفة قديما مما يسمونهم الشراح فكتبت عشرات الأبحاث فيهم وجلهم لا يسلم فى مقياس الاصالة الاسلامية للحكم عليهم ، وأخطر من تصوب اليهم اسهم الاتهام : الفارابى وابن سينا .

ومما لم يكشف عنه مجددو الفلسفة الاسلامية القديمة : أن هؤلاء الشراح قد أطلق عليهم اسم (المشاءون المسلمون) واعتبروا امتدادا للفلسفة اليونانية والعقل اليوناني ، ولقد لفظهم المجتمع الاسلامي لفظا تاما ، كما لفظ شعراء الاباحة والغلمة أمثال أبو نواس وبشار ، واعتبرهم خارجين عن المجتمع الاسلامي الأصيل ، ولم يدافع عن هؤلاء وأولئك الا المستشرقون لهوى في نفوسهم ، هو أن يبعثوا في المجتمع الاسلامي المعاصر والفكر الاسلامي الحديث تلك الفتن والاحن والشبهات والسموم التي اثارتها الفلسفة اليونانية التي ترجمها السريان وارادوا بها ادخال مفاهيم المسيحية بالاضافة الى مفاهيم الوثنية لضرب قاعدة التوحيد التي هي عماد الاسلام :

(أولا) هناك اجماع على أن دخول الفلسفة الى الفكر الاسلامي هو الذى أسقط صرح الحضارة « فقد كانت طابع شؤم ونذير سوء وايذانا للعرب بزوال سلطانهم » انتهى الى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع الفلسفة وعمل على ترويجها وتمكن من جلب أشهر كتب الفلسفة من اليونان والصين والهند ، وعهد بترجمتها الى محترفي الترجمة من السريانية والكلدانية والسنسكريتية والفارسية .

وجرى العمل على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة واباحة الجهر بمختلف الآراء فشاع في زمنه الشك وراج الباطل وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الاباحية تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحل المتعارفة . وظهرت الفرق التي كانت تؤلف بآرائها وعقائدها أديانا جديدة فلم تلبث الدولة الا قليلا حتى حطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول فقوضت دعائمها وكان الكثير من أتباع هذه الفرق أعوانا للمغير على تحقيق هذه الغاية .

وخسر العرب عقيدة الايمان الفطرى وقوة الاعتقاد النقي ، وتركوا الدين الى أيدى المتكلمين والمتفيهقين والمخدوعين ليلبسوه أثوابا خلقة ملونة من الآراء الافتراضية التي أيقظت الشك واثارت الفتنة وبلبلت الألسنة .

(ثانيا) اتهام الامام الغزالي بأنه جمد الانطلاق الفكرى والثقافي عند العرب : حين وقف من **الفلسفة الالهية موقفه المشرف** في دحضها والكشف عن زيفها .

والواقع أن هناك حملة منسقة تدعو العرب الى الفلسفة الغربية وتحرضهم عليها وتدفعهم الى الجرى وراء مطامعها وصراعاتها ، وهي تصور العرب بصورة التخلف لأنهم فقراء في مجال الفلسفة منذ وقف الغزالي موقفه ، وتلك ولا ريب خدعة مضللة ، ذلك لأنه ليس من الضرورى أن يصطرع المسلمون والعرب في أتون الفلسفات وهم ليسوا في حاجة اليها حاجة الأوربيين الذين عجزت عقائدهم أن تمدهم بالمفهوم الميتافيزيقي الكامل والصحيح والأصيل سواء في علاقتهم بالله تبارك وتعالى أو بالكون أو بفهم الانسان من حيث هو انسان ، ومن شأن هذا النقص في الفكر

الغربى اللاهوتى ومع اضطرابه لأنه ليس فى حقيقته الا تفسيرات بشرية ، اضطر الفكر الغربى الى انشاء هذه المذاهب والأيديولوجيات لسد النقص، هذه المذاهب والأيديولوجيات المضطربة الذاهبة وراء كل الرياح التى تهب من أهواء النفس سواء فى الليبرالية الفردية أو الفرويدية أو الوجودية أو الماركسية والتفسير المادى والتفسير الاقتصادى والتفسير الجنسى والتفسير الجغرافى للحياة والتاريخ والحضارة — أما المسلمون فلديهم منهج متكامل للميتافيزيقيا الرحبة دون أن ينقصها شىء فى تكامل وتوازن بعيداً عن سرف الترف أو فساد الرهبانية .

فهذه الحيرة التى نراها فى الثقافة العربية ، انما تصدر عن تلك الصيحات التى يطلقها التابعون للفكر الغربى المسيحى ، أما فى مجال الفكر الاسلامى فان المسلمين يعرفون انهم ليسوا فى حاجة مطلقا الى هذه الصيحات العالية فى الدعوة الى أسلوب الفلسفة . والمسلمون لا يرون الاسلوب الفلسفى أسلوبا كاملا ولا صحيحا ، وانما هو أسلوب مرحلى ، قد يأخذ به المسلمون فى فترة ما كما اخذوا به فى أول عهد الاعتزال فى مواجهة الكلام المسيحى واليهودى ، وكما أخذ به جمال الدين ومحمد عبده واقبال وغيرهم فى مطالع عصر اليقظة الاسلامية وفى مواجهة تحدى التغريب والغزو الفكرى .

اما الأسلوب الصحيح والاصيل الذى يراه المسلمون سبيلهم فهو الاسلوب القرآنى والمنهج القرآنى .

ولقد كشف الامام الغزالى فساد الفلسفة الالهية ، ولم يتعرض للفلسفة الرياضية والطبيعية والمنطق .

وكان هذا هو الذنب الذى لم يغفره له حتى الآن ، كتاب الغرب ولادعاة التغريب ، كيف يقف الغزالى فى وجه فكر الوثنية وعلم الاصنام ويعارضه ويكشف زيفه ولايدع المسلمين ليغرقوا فيه فيحتويهم كما احتوى اليهودية والمسيحية . فهذا جرم كبير اقترفه الغزالى ما زال رجال التغريب يبكتونه بـه يوما بعد يوم دون توقف .

والواقع أن الغزالى لم يهاجم الا الفلسفة الالهية التى هى علم الأصنام عند اليونان قال : أن العقل يعجز عن الخوض فى مسائل ما بعد الطبيعة ، وانهم (اى الفلاسفة) ما قدروا فى الالهيات على الوفاء بالبراهين التى اشترطوها فى المنطق وانهم يحكمون بظن وتخمين غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الالهية بظهور علومهم الحسابية والمنطقية ويستدرجون ضعفاء العقول ، ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها ، وأن ما شرطوه فى صحة مادة القياس من قسم البرهان فى المنطق لم يتمكنوا من الوفاء بشىء منه فى علومهم الالهية . وقال : ان أحكام العقل فى الرياضيات والطبيعيات صادقة ، أما فى علم ما بعد الطبيعة فان العقل المحض عاجز عن الوصول الى اليقين .

وقال أن مسألة الصفات الالهية وازلية العالم وابديته واستحالة الفناء على النفوس البشرية لاتوزن بميزان العقل البشرى بل يحتاج العقل فى ادراكها الى عامل آخر هو الكشف الباطنى والايمان القلبى والوحى الدينى .

وأهم ما اختلف فيه الغزالى مع الفلاسفة انما هو ما يتصل بالمباحث الالهية التى تقدم أصلا من أصول الدين .

وقد عارض الغزالى الفلاسفة فى ثلاث مسائل اساسية : يختلف فيها رأى الفلسفة اليونانية عن مفهوم الاسلام الأصيل : (وان كان قد احصى عليهم الخطأ فى عشرين مسألة) :

اولا : قدم العالم .

ثانيا : أن الله (تعالى عما يقولون علوا كبيرا) لا يحيط علما بالجزئيات .

ثالثا : انكار البعث .

والاسلام يقول بأن العالم محدث وأنه ليس ثمة قديم غير الله سبحانه وتعالى وأن الله تبارك وتعالى يحيط بالجزئيات (وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا رطب ولايابس الا فى كتاب مبين) وأن البعث حق لامرية فيه .

وقد عارض الغزالى ما يصطدم بالشرع : وهاجم الفلاسفة الدهريين : الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجودا وقالوا بقدم الأنواع الحيوانية (وهم الدهرية والزنادقة) ، كما هاجم الفلاسفة الطبيعيين الذين قالوا : أن النفس تموت ولا تعود ، وانكروا الآخرة والثواب والعقاب وهاجم الفلاسفة الالهيين أمثال سقراط وافلاطون وارسطو) لأنهم قالوا بقدم العالم وانكار البعث وزعموا عدم احاطة الله بالجزئيات .

وهكذا نرى أن الحملة التى حملها دعاة التغريب والمستشرقين فى العصر الحديث باطلة : وقد وصفوا رأى الغزالى هذا بأنه حملة شعواء والواقع أنه رأى غاية الانصاف والاعتدال ، وبالرغم من هذا فان الغزالى لم يسلم من أهل الأصالة الاسلامية فقال أبو بكر بن العربى ، وكان من اخص أصحاب الغزالى : « شيخنا أبو حامد دخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منها فما قدر » .

ولقد كان هدف الغزالى ابطال مذهب الفلاسفة فى الالهيات وتوجيه الناس الى منابع الأصالة الحقيقية فى فهم الميتافيزيقيا وما وراء الطبيعة وهو ما أورده القرآن الكريم ، ولذلك فقد أشار الى أن الفلاسفة قليلو البضاعة فى معرفة مسائل الربوبية ، وأن الدين الحق هو وحده القادر على

عطاء النفس الانسانية فى هـذا المجال على النحـو الذى يحقق الطمأنينة والسكينة واليقين .

(ثالثا) فلسفة أرسطو : رد عليها المسلمون وكشفوا اختلاف وجهة نظرها مع مفهوم الاسلام وتعارضها مع المنهج التجريبى .

وعندما حاول الاستشراق والتغريب فى العصر الحديث احياء أرسطو وتكوين هالة ضخمة حوله (طه حسين ـ لطفى السيد ـ ابراهيم بيومى مدكور) دحض الفكر الاسلامى هذا المفهوم وكشف عما هـو أبعد من ذلك ، كشف بطـلان وزيف وكذب ما ادعاه التغريبيون من أن النهضـة الغربية قامت على مفهوم أرسطو ومنهجه ، فهى فى الحق لم تقم الا بعد أن هدمت مفهوم أرسطو ، وتبنت مفهوم التجريب الاسلامى ، وقد هدم المفكرون الغربيون فى العصر الحديث فكر أرسطو بنفس ما هدمه بـه المسلمون قبل ذلك بألف سنة ، وكان هذا الهدم هو منطق النهضة الأوربية التى اعتمدت على منهج التجريب الاسلامى ، ثم جاء الغربيون مرة أخرى يخدعون المسلمين ويزيفون علمهم ويدعونهم الى منهج أرسطو ، لا الى منهجهم الذى بنى حضارة الغرب ، لقد كان أرسطو خدعة كبرى فى عصر الترجمة وفى العصر الحديث أيضا واستغله المستشرقون وأتباعهم من دعاة التغريب الى أبعد مدى .

ولقد تبين من الدراسة العلمية الخالصة فساد دعوى الموجة التغريبية الدافعة للقضاء على الأصالة الاسلامية :

ذلك أن حقيقة الامر هى أن المنطق الارسطى الذى نقل الى العالم الاسلامى انما أثر (فقط) فى المدرسة المشائية الاسلامية : مدرسة الشراح (الكندى والفارابى وابن سينا) وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة عن الاصالة الاسلامية بعيدة كل البعد عن تجاربه ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف عن منطق ارسطو فى روحه وفى جزئياته ، (راجع على سامى النشار) .

ان سيادة منطق ارسطو انما بدأت حينما تداعى الفكر الاسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلوم يونان ، ومع ذلك لم توافق دوائر الفقهـاء المتأخرين ومتكلمى الأشعار من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى على استخدام هـذا المنطق فحاربوه اشد حرب . ومن ثم ابتعد فلاسفة الاسلام المشاءون عن نطاق الفكر الاسـلامى روحا ونصا وعن المجتمع الاسلامى عقيدة وفكرا وحياة ، وماتت الفلسفة المشائية فى العالم الاسلامى منذ عهد بعيد .

وما كان لهـا أن تبعث لولا محاولات الاستشراق والتغريب الهادفة الى تدمير الاسلام من الداخل باثارة الفرق والمذاهب الفلسفية القديمة وبعثها وفرضها كمنهج علمى مضلل فى الجامعات والمدارس .

وفى ضـوء هذا الاتجاه الذى تقدم اليه المستشرقون أولا ثم تابعهم

دعاة التغريب أمثال طه حسين كان الهدف هو ما اشار اليه طه حسين صراحة :

« انه ما دام أسلافنا قد اخـذوا بفلسفة اليونان ـــ وفلسفة أوربا وحضارتها انما هي امتداد لهذه الفلسفة ، فعلينا اذن أن نأخذ من هـذه المدرسة الأوربية كل شيء » .

وهذا زعم باطل فى اساسه تنقضه كل الأدلة والاسانيد فان المسلمين لم يأخذوا فكر يونان قاعدة لفكرهم بل رفضوه وكشفوا زيفه ، ومن ثم فانهم يقفون اليـوم نفس الموقف من الفكر الغربى وليد الفكر اليونانى .

والمعروف أن المنطق الجديد فى الفكر الغربى القائم على هدم منطق أرسطو بدأ فى القرن الثالث عشر الميلادى حين نقل المسلمون الروح العلمية والرياضية الى أوربا عن طريق « روجر بيكون » الذى دعا الى التخلص من مذهب أرسطو لعدم كفايته وقال أننا نستطيع أن نبرهن بالرياضة على كل ماهو ضرورى لعلم الطبيعة ، وقد أعاد توماس الأكوينى فلسفة أرسطو من جـديد .

(رابعا) نبين أن الفكر اليونانى الذى اعتمد عليه الفلاسفة المسلمون (الكندى ـــ ابن سينا ـــ الفارابى) لم يكن سليم المصادر . فقد أكد الباحثون من المقارنات التى أجريت أخيرا أن النصوص الفلسفية التى ترجمت الى اللغـة العربية لم تكن الفلسفة اليونانية الأصيلة ، وانما كانت مزيجا من هـذه الفلسفة ومن المفاهيم السريانية المسيحية ، ومن ثم فقد ترتب على ذلك أخطـاء كثيرة وتلفيقات صعبة ، وقد أشار الى هـذا عدد كبير من الباحثين : أكد ذلك اسماعيل مظهر الذى يقرر أن الثقافة التى نقلت الى العرب لم تكن ثقافة اغريقية صحيحة ، بل كانت صورة من النصرانية تلونت بلون اغريقى عن طريق اليعاقبة والنساطرة الذين بشروا بمعتقداتهم النصرانية فى الشرق متخذين من الفلسفة اليونانية سـبيلا الى التبشير بعقائدهم .

وقال الدكتور عبد الرحمن مرحبا : ان الترجمة من لغة يونان الى العبرانية ومن العبرانية الى السريانية ومن السريانية الى العربية قـد أخلت بخواص المعـانى فى ابدان الحقائق اخلالا لا يخفى على أحـد ، فقد كانت الترجمات تكسبا للمال لا حبا للعلم ، بالاضافة الى استغلال الترجمة فى الدعوة الى نحلتهم ونصرة مذاهبهم ، ويقول الدكتور عمر فروخ أن معظم الناقلين كانوا نصارى يعاقبة ونساطرة ، وكانت حميتهم الدينية فوق أمانتهم العلمية ، من أجل ذلك كان هؤلاء يحرفون » .

ومن أشـد أخطائهم اضطرابا وأثرا ان كتـاب الربوبية قـد عزى لأرسطو ، فلما اطلع الفارابى على هذا الكتاب واعتقد أنه لارسطو قام بتحرير نظريته المشهورة فى التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو معتمدا فى ذلك على هذا الكتاب ، ووقع الفارابى فى الخطأ وانهارت نظريته فى التوفيق

بمجرد أن عرف أن هذا الكتاب ليس لارسطو وانما هو فصول أخذت أو لخصت من تساعيات أفلاطون وهو بعيد عن روح أرسطو . وقد بدا أن الفلسفة التي حاول انشاءها الفارابي وابن سينا مزيج من الفلسفة الارسطية والأفلاطونية المحدثة وقد بدت المحاولة مشوهة وناقصة . وتسمى الفلسفة الاسلامية .

ومن هنا نعرف كيف اندس الكثير من المقررات الفارسية والوثنية والمسيحية واليهودية الى الفكر الاسلامى ، وحاولت الاندماج به مع الزمن .

(خامسا) وقف الفكر اليونانى من التجريب موقف الاحتقار . بينما أمضى الفكر الاسلامى مفهوم التجريب وبذلك نقل البشرية الى عصر جديد عجز عنه اليونان .

(أ) فالمسلمون بكل أدلة التأكيد والجزم والثقة هم الذين وضعوا المنهج التجريبى واقتحموا تلك العقبة التى وقف عندها الفكر اليونانى حين وقف عند المنطق الصورى . وبذلك جمع المسلمون بين أسلوبين للنظر والفكر هما الدليل العقلى والدليل التجريبى ، وقد سجل روجر بيكون فضل هذا المنحى الخطير فى تاريخ البشرية كلها ونسبه الى المسلمين .

وأهم خصائص المنهج التجريبى الاسلامى انه منهج ادراكى أو تأملى ، فقد أدرك مفكرو الاسلام تمام الادراك انه لا بد من وضع منهج فى البحث يخالف المنهج اليونانى حيث أن منهج اليونان انما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف .

وفارق بين منهج احتقر التجربة والتجريب وجاء منطق أرسطو اكبر معبر عنه ، وبين منهج دعا الى التجريب مستمدا ذلك من روح القرآن نفسه الذى دعا الى نزعة علمية عملية تنأى عن البحث فى ذات الله وتدعو الى البحث فى خلق الله . ولذلك فان موقف المسلمين من منطق أرسطو أو من الفكر اليونانى لم يكن ناشئا من معارضة ذاتية ، وانما كان تأكيدا لذاتية الفكر الاسلامى وروحه وأصالته وطابعه الخاص . ولذلك فان المسلمين لم يشتغلوا بالجوهر أو الماهية او التصورات التى شغلت بها الفلسفة اليونانية وانما اشتغلوا بالخواص ، وادرجوا هذه الخواص فى نسق متكامل ، وهذا هو جوهر الخلاف الذى أوحى بمفهوم الكراهية أو المعارضة لمنطق أرسطو وهى مخالفة ذات جذور أصيلة للاساس الأصيل للاسلام وهو التوحيد ، ولم تكن ناتجة عن ضيق أفق أو تزمت مذهبى .

ومن هنا فان الدعوة التى تثار عن طريق حركة التغريب فى البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل دعوة معارضة تماما لمفهوم التوحيد الاسلامى . واذا كان الاسلام قد حال دون الابحاث الميتافيزيقية على طريقة الفكر اليونانى فانه قد قدم للمسلمين منهجا كاملا لما وراء عالم الشهادة منذ بدأ الخلق الى نهاية الحياة الدنيا وما بعدها من حياة الجزاء الأخروى ،

كما قدم صورة لعـالم ما وراء الكون الظـاهر من سماوات وافلاك . وبذلك أرضى رغبة الانسان فى فهم هـذه العوالم وجعلها أساسا لفهمه لرسالته ومسئوليته ومعاده وأعطى عقله الانطلاقة الحقة لاداء رسالته فى نطـاق قدرته الحقيقيه . وقـد كشف الاسلام فى هـذا عن أن العقل الانسانى بطبيعته قاصر عن التوصل الى الكنه أو الماهية بقدرته الذاتية التى تعجز عن ذلك ، ولذلك حـدد القرآن مسائل ما وراء الطبيعة تحديدا كاملا وطلب عدم الجرى فيما خلفها وأن تبحث فى محيط الاقتدار العقلى وحده وهو (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا) .

والقدرة العقلية هى القدرة على التفكير فى آثار الله الدالة على عظمته ، ومجالها الحس : اما الذات والكنه والماهية فهذا فوق استطاعة العقل ولذلك جاء بـه الوحى مبينا ناصعا :

(البحث فى الخصائص وعدم البحث اطلاقا فى الماهية) :

وكان هذا التوجيه الاسلامى القرآنى منطلق العمـل الذى حققه المسلمون ولم تستطع تحقيقه الأجيال السابقة كلها : وهو ايجاد المنهج التجريبى .

ومن هنا فان الدعوة التى تثار عن طريق حركة التغريب فى البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل هى دعوة معارضة تماما لمفهوم التوحيد الذى هو دعامة الاسلام الحقة .

(سادسا) لقـد ادعى المستشرقون ودعـاة التغريب أن المنطق الارسطاليسى عندما ترجم وجـد قبـولا وترك أثرا فى كل دراسـات الاسلام (هكذا ردد المستشرقون وردده طه حسين ولطفى السيد وابراهيم مدكور) .

والواقع أن هذا مخالف للواقع الذى حدث فعلا . فان الذين قبلوا الفكر اليونانى والمنطق الأرسطاليسى هم الشراح ، المتابعون على طريق المشائين اليوم ، والذين أطلق عليهم (المشاءون المسلمون) وأبرزهم الكندى والفارابى وابن سينا .

اما العلماء المسلمون فى مجال الأصالة فانهم ردوها تماما . وكشفوا عن أن المنطق الارسطاليسى « (1) هو منهج البحث فى علوم اليونان الفكرية والفلسفية فيها على الخصوص ، ثم ان هذا المنطق هو أدق تعبير عن الروح اليونانية فى نظرتها الى الكون وفى محاولة اقامة مذاهبها فى الوجود ، وقد لفظ الاسلام علوم اليونان الفكرية لفظا قاسيا وحاربها أشـد محاربة ، ذلك أن الروح الاسلامية تستمد مقوماتها من بيئة مخالفة وجنس مخالف ونصور حضارى جديد ، وهى تنأى أشد النأى عن النظر فى العوالم اليونانية

---

(1) عن بحث الدكتور على سامى النشار : مقدمة مناهج البحث عن مفكرى الاسلام .

الفكرية من ميتافيزيقا وفيزياء وغيرهما ، وكان من المحتم أن يكون لها منهج فى البحث مختلف أشد المخالفة عن منهج اليونان يستمد مقوماته من حضارتها العلمية بحيث يكون طابع تلك الحضارة الأساسى وجوهرها الوحيد .

وكشف علماء المسلمين أن فلاسفة الاسلام المشائين انماهم بمثابة دائرة منفصلة منعزلة عن تيار الفكر الاسلامى العام ، وأن ممثلى الاسلام الحقيقيين هم الفقهاء والأصوليون والمتكلمون وغيرهم من مفكرى المسلمين وهؤلاء هم الذين يرفضون المنهج اليونانى والمنطق الأرسططاليسى كلية ، وقد توصل الدكتور النشار الى وثائق ثابتة لهؤلاء العلماء من خلال أبحاثهم القديمة تكشف زيف ادعاء المستشرقين ومن تابعهم من المتآمرين على العموم موقف العداوة التامة ، واصطنع بعضهم حجج الشكاك اليونانيين وأن المسلمين استطاعوا أن يقدموا أعظم كشف عرفه العالم الاوربى من بعد ، وهو المنهج التجريبي الاسلامى فى أكمل صورة .

وقال : ان المتكلمين والاصوليين الاولين لم ينقلوا المنطق الارسططاليسى على الاطلاق ، وحاولوا اقامة منطق جديد بالكلية فى جوهره ، ووقف فقهاء أهل السنة والجماعة من المنطق الارسططاليسى بل من المنطق اليونانى على العموم موقف العداوة التامة ، واصطنع بعضهم حجج الشكك اليونانيين واضاف اليها حججا ابدعوها ، واشار الى أن الشراح الاسلاميين كانوا امتدادا للعقل الهلينى فى العالم الاسلامى بحيث كانت الوشائج التى تربطهم بالتفكير المنطقى الاسلامى واهية تماما ، ولهذا لفظهم المجتمع الاسلامى لفظا تاما .

وقال الدكتور النشار بفساد الفكرة التى تقول ان المتكلمين كانوا رجال دين استخدموا منطق ارسطو فى جدلهم اللاهوتى وأن المنطق الارسطى قوبل من المدرسة الكلامية حتى القرن الخامس أسوأ مقابلة ، وهاجمته جميع الفرق الكلامية : معتزلة واشعرية وشيعية ، وقال ابن تيمية : مازال نظار المسلمين بعد أن عرب هذا المذهب وعرفوه يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون اليه ولا الى اهله فى موازينهم العقلية والشرعية ، وهذا ما ردده ابن القيم . وقال ابن خلدون : ان المسلمين لم يأخذوا بالأقيسة اليونانية لمباينتها للعقيدة .

والفت كتب كثيرة فى نقد المنطق الأرسططاليسى ، منها :

* الدقائق لابى بكر بن الطيب .
* الآراء والديانات لابن النوبختى .
* كتب أبى على الجبائى وأبى هاشم والقاضى عبد الجبار فى نقد المنطق الأرسطى .

(ذكر ذلك أبو حيان فى المقابسات ص ٥٥٥)

* أبو العباس الناشيء المعتزلى :

(قال السيرافى لابن بشر متى بن يونس : وهذا الناشيء ابو العباس قد نقد عليكم وتتبع طريقكم وبين خطأكم وابرز ضعفكم ، ولم تقدروا الى اليـوم أن تردوا كلمة واحدة لما قال وما زدتم على قولكم : لم يعرف اغراضنا ولا وقف على مرادنا) .

(صاعد طبقات الأمم ص ١١٨) .

* ابن حزم :

نقد منطق ارسطو والف كتابا اسماه التقريب لحدود المنطق (ذكره صاعد فى طبقات الأمم) وبسط فيه فن القول على تبيين المعارف واستعمل فيه أمثلة وجوامع شرعية وخالف أرسطو واضع هذا العلم فى بعض اصوله مخالفة صريحة .

* الغزالى هاجم منطق ارسطو .

* امام الحرمين هاجم منطق ارسطو .

وفى هذا تكذيب مريع لما أورده لطفى السيد أستاذ جيـل التغريب حين قال :

« ولقد توبلت فلسفة أرسطو عند السلف بصدر رحب واشتغل بها الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين وأصبحوا خلفاء ارسطو وممثلى مذهب المشائين . تبين فساد هذا الفهم ، فان علماء المسلمين رفضوا منطق أرسطو والفلسفة اليونانية جميعا لأنها تتعارض مع مفهوم التوحيد عماد الاســلام .

(سابعا) يعد موقف الامام ابن تيمية هو قمة المواقف فى مواجهة الفلسفة المشائية .

فقد اعلن أن الفكر الاسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة المحمدية ، فاستخرج منهما المنطق الجديد الذى سماه المنطق الاسلامى ، هذا المنطق الذى كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الأشـياء وفى الاسـتبصار والتأمل الفلسفى ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما .

وقد استخلص المنطق الاسلامى من القرآن الكريم بحيث أغنى المسلمين فى قضايا الفكر والحكم الصحيح عن المنطق اليونانى وعن اقيسته واساليبه ومسمياته وتطبيقاته ، وقال ان ما عند أئمة النظار من من الدلائل العقلية الالهيـة ، فقـد جاء القرآن به وما هو أكمل وابلغ منها على أحسن وجه ميزه عن الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ولقد كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق ارسطو من أرجانون فرنسيس باكون الى المنطقية الوضعية ، وقد عنى ابن تيمية بنقد فلاسفة الاسلام (الفارابى وابن سينا وابن رشد) وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو ، وعرض للمنهج الاسلامى الاستقرائى فتتبع تاريخ هذا المنطق منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ثم أضاف الى عناصر هذا المنهج الاسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستندا على روح القرآن والسنة وتمة ذلك كتابه (الرد على المنطقيين) وقال ان الفكر الاسلامى قد رفض المنطق الارسطى الذى يقوم على القياس والاستدلال النظرى ، واقام منطقا جديدا أكثر تعبيرا عن خصائصه هو المنهج الحسى التجريبى .

وكشف عن الخلاف بين ارسطو وافلاطون ومحاولة المشائين المسلمين شراح الفلسفة اليونانية فى التوفيق بينهما . وكشف عن الخلاف بين هذه المحاولة وبين العقيدة الاسلامية ، وابان عبث هذه المحاولة (محاولة الفارابى وابن سينا) وعقم تجربة التلفيق عندهما بين الاسلام والافلاطونية المحدثة. ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل ، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة وكشف عن ضعف ادلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع ، وأجرى محاولة للتوفيق بين العقل والدين . ولكن ليس على أساس أن العقل مرادف للفلسفة اليونانية . وملخص رايه أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفا لصحيح المنقول ، ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل اذا تعارضا اذ من يدعى خلاف ذلك فقد قدح فى الرسول . وقد ترك منطق ابن تيمية بصمات واضحة فى كثير من الاتجاهات المنطقية الجديدة المباينة لمنطق أرسطو وخاصة المنطق المادى لدى بيكون وهيجل ، والمنطق الرياضى لدى رسل والمنطق السيكولوجى .

وقال مصطفى عبد الرازق : ان الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه فى النقد بل الشرح والعمق لكنا بلغنا من الرقى مبلغا عظيما .

ويعتبر ابن تيمية فى رده على مناطقة اليونان ومن تابعهم من متفلسفة الاسلام اكبر ممثل لروح الاسلام تجاه الفتنة اليونانية .

(٢) نقد ابن تيمية المنطق الارسطى وهدمه هدما قويا ، فذهب الى انه من الخير للاسلام أن يستعمل مصطلحات الفلسفة والمنطق . وينكر ابن تيمية استطاعة الحد فى المنطق الارسطى من الوصول الى كنه الشىء أو ماهيته ، ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ، أما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به .

ونقد ابن تيمية القضايا الارسطية ، وذهب الى أن التجربة والاستقراء وقياس التمثيل باطل . وقرر أن القرآن هو الذى يمدنا بصور الاستدلال وأنه هو الذى يقدم لنا الميزان ويقدم لنا الأقيسة البرهانية .

(ثامنا) ابرز وجوه التعارض بين الفكر الاسلامى والفكر اليونانى وقال : ان أكبر الخطأ هو القول بأن هناك لقـاء ولو جزئيا بين الفلسفة اليونانية الوثنية وبين الفكر الاسلامى القائم على التوحيد . وذلك يرجع الى أسباب جذرية بعيدة المدى والى خلاف فى الاصول العامة .

أولا : فالاسلام يقرر قصور العقل الانسانى عن التوصل الى الماهية والكنه والشيء فى ذاته ، وقـد حدد القرآن موقفنا من مسائل ما بعد الطبيعة وطلب الينا عدم الخوض فيما وراءها ، ودعانا الى أن نترك بحث (الجوهر) الذى لا نستطيع أن نصل الى حقيقته عن طريق العقل وحده ، وأن نبحث (الخصائص) وان لا نبحث مطلقا فى المـاهية . وهـذا ما رسمه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا) .

ثانيا : الميتافيزيقيا اليونانية هى نتاج ذاتى قائم على الفردية والتصور الخاص المخالف لروح الاسلام القائم على مفهومه الجامع لكل معتنقيه . وقد كانت الفلسفة اليونانية عملا ذاتيا لا يتفق والاجتماع .

ثالثا : الفارق العميق والواضح بين مفهوم القرآن لوحدة الله وفاعليته وبين مفهوم الفلسفة اليونانية ، فالله فى الاسلام خالق كل شيء ، وانه خلق كل شيء من لاشيء ، وأوجـد العـالم من العدم ، وأعلن بدء الزمان واعلن نهايته ، وبذلك هدم مفهوم الفلسفة اليونانية فى القول بقدم المـادة وعدم فنائها .

فضـلا عن هـذا فان القرآن لم يترك مفاهيمه مطلقة بل وضـع اصولها كاملة ، ولقد كان ما قرره القرآن أكثر قبولا فى العقل وأقرب الى الفطرة .

فالله هو خالق الارض والماء والجبال وجعل ذلك كله مسرحا للانسان خليفة الله الذى خلقه من تراب ونفخ فيه الروح وعلمه الاسماء ودفعه الى اكتشاف الكون ووضعه فى موضـع المسئولية الفردية والالتزام الاخلاقى والحساب والجزاء الاخروى .

(تاسعا) قدم القرآن الدليل على وجود الله تبارك وتعالى ممثلا فى عديد من اساليب البحث ومناهجه :

أولا : الدليل الكونى المبنى على النظر فى هذا العالم .

ثانيا : الدليـل العقلى التحليلى (أم خلقوا من غـير شيء أم هم الخالقون) .

ثالثا : دليل استنبطه العلماء من الآيات التى تتكلم عن سيدنا ابراهيم وملخصه أن تغير أحوال الاشياء التى نشاهدها يدل على حدوثها وضرورة وجود محدث لهـا لا يشبهها .

(عاشرا) عقيدة الاتحاد وعقيدة وحدة الوجود :

عقيدة الاتحاد لا توافق الاسلام اية موافقة من حلول الخالق فى المخلوق أو استغراق المخلوق فى الخالق ، وهو غير طبيعة كل منهما ، لهذا أنكر الاسلام على المسيحية فكرة الحلول وأنكر نفس الفكرة على الصوفية . ولا يتفق الاسلام مع عقيدة الوحدة لان فيهما انفصالا من عقيدته الاصلية (لا اله الا الله) ولا عقيدة التصوف الفلسفي (لاموجود فى الحقيقة الا الله) وسياق كل منهما ينتهى الى نتائج مخالفة أشد المخالفة لنتائج الاخرى .

تأثر التصوف الفلسفي بالبحوث الميتافيزيقية : الفيدا الهندية ، والاشراقية الفارسية ، والفيض الافلوطينى .

أما التصوف السنى فقد سار فى طريقه ينكر على التصوف الفلسفي فكرته ، فقد أخذ من القرآن والسنة وانتهى اليهما ، وقد وصل الفكر الاسلامى بالتصوف السنى الى يقظة الحارس الديدبان « الضمير » وهى فكرة لم تصل اليها أوربا الا حديثا على يد بتلر الاخلاقى الانجليزى .

(حادى عشر) لابد من الاشارة الى الدور الذى قام به رجال الاصالة الاسلامية فى العصر الحديث فى مواجهة خطر تجدد اعصار الفلسفة اليونانية والغربية على التوحيد الاسلامى ، وقد بدأ هذا الاتجاه منذ أعلن الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الفلسفة الاسلامية تبدأ من الفقه الاسلامى والكلام وأن كتاب (علم أصول الفقه للشافعى) هو منطق هذا الاتجاه ، وأن الشافعى فى الفكر الاسلامى مواز لأرسطو فى الفكر اليونانى . واعتبر أن الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم لا يمثلون الأصالة الاسلامية بل يمثلون امتدادا دخيلا للمشائين اليونان ، فهم لا يزيدون عن أن يكونوا شراحا للفلسفة اليونانية ، وأن كتابات علم أصول الفقه والمتكلمين هى فلسفة الاسلام ، واثبت ان المنطق الأرسططاليسى : منهج الحضارة والفكر اليونانى لم يقبل فى المدارس العقلية الحديثة . وأن المنهج التجريبى الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة هو منهج الاسلام وهو مباين لروح الحضارة اليونانية .

(ثانى عشر) أن الفكر الاسلامى بطبيعة مصادره وتشكيله وذاتيته الخاصة القائمة على التوحيد والنبوة والربط بين العقل والقلب كان متفتحا أمام الفكر البشرى ، ولكنه كان قادرا على التماسك دون الانصهار فى أى بوتقة ، ومن هنا كان موقفه من الفلسفة اليونانية ، فاذا كان الفكر الاسلامى قد تشكل على أساس التوحيد والاخلاق وأقامة منهجه الفكرى على أساس العقل والوحى فقد كان من العسير أن ينصهر فى الفلسفة اليونانية القائمة على الوثنية والمجتمع العبودى واعلاء العقل وعبادة الجسد ، هذا فضلا عن أن الفلسفة التى ترجمت لم تكن هى الفلسفة اليونانية ، وانه قد أصابتها محاذير كثيرة من فساد الترجمة وانتحال الكتب وتحريف النصوص ، خدمة لهدف التبشير بالمسيحية ، ومن هنا فقد قامت المعارضة لها منذ اليوم الاول ،

وان كانت طائفة الفلاسفة المسلمين قـد حاولت ادخال الفلسفة اليونانية فى اطار الاسـلام فقـد فشلت المحاولة تمـاما ، حدث هـذا فى نفس الوقت الذى نما فيه تيار معارضة الفلسفة اليونانية واتسع نطاقه حتى أصبح يمثل ضمير الفكر الاسـلامى كله وانعزل دعاة الترجمة والتفسير .

كانت هـذه المعارضة مقدمة الشـجب الكامل للمفاهيم الفلسفية اليونانية التى تتعارض مع الاسلام فى التوحيد والاخلاق وفى بناء المجتمع نفسه.

كل هذا يؤكد : انه ليس صحيحا ما ذهب اليه طه حسين ولطفى السيد وابراهيم بيومى مدكور من أن منطق أرسطو سيطر على بعض دوائر الفكر الاسلامى . وفى العصر الحديث كشف الدكتور النشار هذه الحقيقة فى كتابه مناهج البحث عند مفكرى الاسلام واثبت اثباتا قاطعا عدم قبول مفكرى الاسلام للمنطق الارسطاليسى ومحاربتهم له ونقدهم لجميع عناصره ، وتبين عدم صدق الفكرة القائلة بأن المسلمين اخـذوا المنطق اليونانى واعتبروه منهجا لأبحاثهم .

وقد زيف هذا الفهم المدعوم بالدليل أحلام الاستشراق وحركة التغريب .



البـاب الرابـع

إحياء الفكر الشعوبي والباطني

الفصل الأول

المؤامرة الباطنية

الفكر الشعوبي والباطني : هو فكر بشرى تسرب الى افق الاسلام بعد عصر الترجمة : فقد ترجمت الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية فاختلطت وتضاربت وحاولت احتواء الفكر الاسلامي والسيطرة على القيم الاساسية الاسلامية ، ولقد كان هذا الفكر البشرى الوثنى المادى قد تشكل منذ وقت طويل واستطاع التأثير على المفاهيم التى قدمها دين موسى ودين عيسى ، وعمل على توجيهها نحو التأويل والتبرير والخروج من الضوابط التى جاء بها الدين الحق ، وقد اتجهت هذه المحاولة الى الفكر الاسلامى ، واستطاعت أن تجد لها سندا من الدعاة العتاة فى مختلف مجالات العقائد والادب والسياسة ، وتحولت من بعد الى مؤامرات خطيرة ، ودعوات هدامة هددت كيان الدولة الاسلامية ، وقد ووجهت هذه الحركة بالمقاومة منذ اليوم الأول ، وشمر مفكرو المسلمين لمعارضتها وضربها وكشف زيفها ، واستمرت هذه المواجهة قرنين كاملين حتى صفيت تماما ، وعادت الأصالة الاسلامية الى مكانتها استمدادا من القرآن والسنة الصحيحة ولم تعد هذه القصة الا صفحة من صفحات التاريخ ، غير أن مؤامرات التغريب والغزو الثقافى منذ بدأت فى العصر الحديث عملت على احياء هذا الفكر وتجديده مع ما جددت وأثارت من شبهات فى مجال الفكر المعتزلى والصوفى والفلسفى ، فبدأت كتابات من المستشرقين ودعاة التغريب تدافع عن الباطنية والقرامطة والزنج ، وتعتبر هذه الحركات الضالة دعوات اصلاحية ، وتصورها على أنها ثورات قامت باسم الاسلام ، بل ان الاستشراق والتغريب قد ذهبا فى ذلك الى ابعد مدى : الى اتهام رأى السنة والجماعة والغض من قدر اولئك المجاهدين الابرار الذين وقفوا أمام هذه المؤامرة الخطيرة ، وظهر من الكتب ما يجدد هذا الفكر الباطنى الشعوبى فى اعادة عرضه والدفاع عنه وتزيينه لاغراء الشباب المثقف بــه وتصويره على أنه فكر مستقل منقطع الصلة بأوضاعه وظروفه والردود التى واجهته ، وأن فى الامكان اعادة طرحه فى العصر الحديث كفكر عصرى تقدمى ، وذلك أقسى ما يمكن أن تقوم به دعوات التغريب والغزو الثقافى من التمويه والزيف واشاعة سموم خصوم الاسلام التى سقطت بعد أن واجهت معارضة ضخمة مع الفطرة والعلم والدين والحق .

ولقد توزع التغريبيون على مجالات الأدب والتاريخ فوجدنا أولئك

الذين اعادوا الكتابة عن أبى نواس وبشار بن برد وحماد عجرد ومطيع ابن اياس ، وأولئك الذين جددوا عرض حركات القرامطة والزنج والراوندية، والمقنع الخراسانى وبابك الخرمى ، على نحو جديد بادعاء ان هؤلاء كانوا دعاة اصلاح .

وهنـــاك من جـــدد تاريخ الحلاج والسهروردى وبعث كتبهم وكتب ابن عربى المليئة بالسموم ، كذلك جدد فكر اخوان الصفا وبعث رسائلهم وقدم ابن سينا والفارابى والرازى وغيرهم على أنهم قمم من أعلام الفلسفة والفـــكر .

ولا ريب أن احيـــاء هذا الفكر انما استهدف افساد الفكر الاسلامى بغمسه مرة اخرى فى هذه الوثنيات والماديات والاباحيات ، حتى لايستطيع الاسلام أن يعطى عطاءه الحق بتحرر عقيدته الاصلية ، وفى بعث هذا الفكر دعوة للشيوعية ودعوة للصهيونية واليهودية العالمية حاملة لواء الاسرائيليات القديمة والجديدة .

ولا ريب أن هذه المذاهب تحمل للاهواء المضلة وللنفوس التى لم تتعمق فهم الايمان والدين أهواء شديدة الخطر ، فانها تحمل الغاء التكاليف واسقاط الالتزام الاخلاقى ، واسقاط فرائض الاسلام واباحة ارتكاب المحـــرمات والاغراق فى الذات ، وهى نظريات فى ابرز مفاهيمها لا تفرق بين الخـــير والشر والتقوى والاباحة والفضيلة والرذيلة ، كذلك فانها تقحم على الاسلام عقيدتان لا يقرهما الاسلام وهما عقيدة الجبرية وفكرة الزهد ، وهى تصل الى ذلك عن طريق تأويل القـــرآن تأويلا لا يحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا ، ومن هنـــا كانت أهميـــة التعرض لهذا الخطر وكشف هذا الزيف .

***

أخذت المفاهيم الباطنية والشعوبية تتسرب الى الاسلام بتلك الكلمات التى أذاعها عبد الله بن سبأ اليهودى ، الذى دخل الاسلام وأذاع مفاهيم الرجعية والوصية ، فقال ان لكل نبى وصيا ، كما أشاع نظرية الحق الالهى ، وهى نظرية فارسية لا يقرها الاسلام ، وكان هذا أول ما فتح باب التأويل ، ثم كانت مؤامرة مقتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد بعض أعداء الاسلام من الفرس واليهود ، نفذها (أبو لؤلؤة) وهو فارسى أسير فى نهاوند أصبح ملكا للمغيرة بن شعبة . وكان الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس من المتآمرين ، كان مقتل عمر مقدمة لمقتل عثمان الذى كان لمفاهيم عبد الله بن سبأ أثرها الخطير فى التمهيد لها ، بل وكان لهذه الأفكار التى بثها عبد الله بن سبأ والسبئية من بعده فى أفق الاسلام تلك الآثار البعيدة فى ظهور حركتى الشعوبية والباطنية ، فقد أخذت أفكار المانوية والثنوية تحت أسماء متعددة مختلفة تطرح من جديد فى أفق الاسلام ، وبذلك تشكل ذلك الجناح المتآمر من خصوم الاسلام الذى عجز عن هدم الدولة الاسلامية سياسيا ، وعمل على هدمها عن طريق ضربها فكريا وافساد عقيدتها . واستشرت تلك العقائد فى الفلسفات والأديان السابقة واستطاعت أن تجدد مفاهيم المجوسية والمانوية والزرداشتية . وكان أن حملت أفكار هذه الدعوات الى أفق الاسلام فأثارت كثيرا من الشبهات والشكوك ، وكانت فى مجموعها دعوة الى تدمير جوهر الاسلام القائم على التوحيد الخالص وعلى الشريعة الاسلامية ذات الحدود والضوابط والأخلاقيات والايمان بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروى .

وقد أطلق على هذه الحركة اسم (الزنادقة ، الباطنية ، الشعوبية) استمدادا لاسمها من أبرز مفاهيمها ، ولكنها فى الحقيقة كانت تمثل مؤامرة ضخمة فى مواجهة الاسلام لها أطرافها المختلفة .

ولقد قدمت هذه الحركة الى الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى شبهات وسموما وفكرا هداما كان بعيد المدى فى اثارة الشكوك وزلزلة النفوس :

أولا : قدمت أحاديث مكذوبة على الرسول يحلون بها الحرام ويحرمون بها الحلال ، حتى يقول بذلك أحد رءوسهم عبد الكريم ابن أبى العوجاء الذى اعترف بذلك قبل موته قال : لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت بها الحرام وحرمت الحلال .

ثانيا : قدمت مفهوما للعقيدة مغايرا لمفهوم التوحيد الاسلامى ، سواء أكان مفهوم الثنائية المجوسى أو المانوى القائم على اله النور واله الظلمة .

ثالثا : قدمت نظرية الشيوعية المطلقة بين النساء والأموال والاباحية بين النـــاس .

رابعا : قدمت مبدأ تقديس الحاكم الذى ينبثق عن نظرية الحق الالهى والتى يرى معتنقوها أن الحاكم يستمد حكمه من الله لأنه ظل الله فى الارض .

خامسا : دعت الى اسقاط الفروض الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، واباحت شرب الخمر واللذات والشهوات ، واباحة زواج البنات والأخوات .

سادسا : ادعوا أن لكل شيء ظاهرا وباطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، والى جانب(١) التأويل كان التحايل على الخروج عن الحدود .

سابعا : اذاعوا باباحية الكلمة فى شــعر بشار وابى نواس وحماد عجرد ودعبل الخزاعى وصالح بن عبد القدوس واقاموا للخمر ديوانا فى الشعر يكاد يطغى على سائر فنونه ، وكذلك أسرفوا فى اذاعة شــعر الغلمان .

ثامنا : انكار الوحي المنزل على الرسول والقول بأن العقل الإنسانى هو حلقة الاتصال بين المرء وربه ، وكان ابن الراوندى فى مقدمة الداعين الى تقديس العقل والادعاء كذبا بأن العقل هو الوحى من عند الله ، وانه لا ايمان الا بما يرام الانسان .

واستخدمت الباطنية اساليب والفاظا اجنبية عن اللغة العربية ، مستمدة من مصادر هللينية وأفلاطونية كما أستعارت كثيرا من الطقوس الدينية التى يمارسها الصابئة والافلاطونية المحدثة .

وكانوا يرمزون الى الشيء بضـــده ، ويرون أن الجسم ليس وجودا حقيقيا فهو مجاز ، وادخلوا عن طريق اخوان الصفا نظرية الامام ونظرية الصدور ، والعقل الكلى ونظرية الفيض ، وكلهـــا مما نقلوه من ذلك الركام القـــديم .

وقد اطلق على هذه الأفكار كلمة الزندقة ، ومعناها التعطيل والالحاد اى نفى وجود اله خالق مدبر للكون . ويقول المؤرخون ان الزنادقة طائفة تظهر الاسلام وتبطن عقائد الفرس ودياناتهم ، وتعمل على احياء المعتقدات القديمة ومعارضة الديانات ، والقول بالرجوع الى قوانين الطبيعة .

---

(١) التأويل غـــير التفسير . التفسير شرح أو ترجمـــة المعنى لكل كلمة ، أما التأول فيقصد به باطن المعنى أو رموزه او اشاراته ، وكل الفرق الباطنيـــة تقوم على التأويل ، وهدف التأويل تغليب المفاهيم الباطنية وتجاهل المفاهيم الظاهرة التى تمثل أصول الأحكام .

وأبرز من حمل لواء هذه الافكار بعد ابن سبأ : ابن المقفع وبشار وحماد عجرد ومطيع ، واستهدفوا نشر دعوى الاباحية واسقاط التكليف والسخرية بأصول الدين والخلق والنظم الاجتماعية واثارة الجدل والشك حول الخمر وغيرها من المحرمات ، وحمل بشار لواء نشر الفساد الخلقي واشاعة الفسوق بالنساء ، واشتهر حماد عجرد بالتهتك واللسان البذيء ، وهاجم أهل التقوى والورع ولا سيما النساك واهل الزهد ، نسبهم بأقذع الوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم ، وبالغ ابو نواس في الترويج للخمر وحث الناس على شربها متسترا تحت اسم التظاهر بالظرف ، وبلغت هذه الموجة أوجها في نفوس البسطاء والضعفاء ، ولكنها وجدت مقاومة صارمة ومعارضة صادقة ، كشفت زيفها واعادت للنفس طمأنينتها الى مفهوم الاسلام الحق .

* * *

أشار الباحثون الى أن كلمة الباطنية تشمل فرقا عديدة أهمها : الخرمية والقرامطة والاسماعيلية ، كما أطلقت على المزدكية وهى فرقة مانوية أسسها (مزدك) وظهرت فى عهد الملك الساسانى قباذ بن فيروز ولهذه الفرقة شأن سياسى هام حيث انها أخذت الطريق الدينى والتأويل فى ظاهر الدين سبيلا للدس . وتغلب عليهم الاباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وانكار الشرائع .

وأخطر أصلين من أصول الفلسفة الباطنية هما : (أولا) التفسير الباطنى للكتاب والسنة الذى يهدف الى تحريف ما اشتمل عليه دستور المسلمين من أفكار وصرفها الى معان بعيدة عما قصد بها (ثانيا) فكرة الامام المعصوم وجعل هذا الامام محورا ثابتا يرتبط به الدعاة بالطاعة الخالصة والانقياد الاعمى حتى يسهل على المتآمرين اقرار خططهم وتنفيذ مآربهم .

ويقول السيد أبو الحسن الندوى : ان فتنة الباطنية نشأت من ثمار الفلسفة اليونانية وكان معظم دعاتها افرادا وأمما : شعوبا قد فقدت سيادتها وحكمها فى تيار الفتوحات الاسلامية ، ولا مطمع فى استردادها بالحرب ، أو رجالا يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالاباحة وعبادة النفس ، والاسلام يحد من شهواتهم ، أو رجالا يطمحون الى السيادة المطلقة . وقد اجتمع هؤلاء تحت رابطة الباطنية وقد شعروا بأن الاسلام لا يهزم فى ميدان الحرب وأن المسلمين لا تصح دعوتهم الى الالحاد السافر فان هذا يلهب غيرتهم الدينية لذلك اختاروا للوصول الى هدفهم أسلوبا لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم : وهو « الفرق بين الظاهر والباطن » مركزين على الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها . وعن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين وماضيهم ومنابعهم الصافية فاذا انقطعت هذه الصلة (بين الكلمات والمعانى) وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين . وتسرب الشك والاختلاف اليها باتت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما شاء .

ان أصول الديانة الاسلامية وعقائدها وأحكامها ومسائلها انما عرضت فى اطار ألفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها ، وكان لا بد من ذلك عند كل رسالة جديدة ، وقد تعينت معانى الكلمات ومفاهيمها وتواتر ذلك عمليا ولفظيا فى الامة واستفاض وعرفته الامة الاسلامية ودانت به ، فكل كلمات « النبوة والرسالة والملائكة والمعاد والجنة والنار والشريعة والفرض والواجب والصوم والزكاة والحج » تؤدى معنى خاصا وتفهم منها مفاهيم خاصة لا يشك فيها مسلم ولا يختلف فيها اثنان كما أن الحقائق التى تعبر

عنها هـذه الكلمات ظلت محفوظة فى الأمة وتتوارثها الاجيـال وتنتقل مع الزمان » .

ومن هنا كانت مؤامرتهم فى التفرقة بين الكلمات ومعانيها : يقول ابن الجوزى فى كتابه تلبيس ابليس : قالوا : « ان لظواهر القرآن والاحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر وانها لصورتها توهم الجهال صورا جلية وهى عنـد العقلاء رموز واشارات الى حقائق خفية ، وان من تقاعد عقله عن الغوص فى الخفايا والاسرار والبواطن والاغوار وقنع بظواهرها كان تحت الاغلال التى هى تكليفات الشرع ومن ارتقى الى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه » .

وقد مضت الباطنية فى هذه المحاولة الى غايتها تمييزا بين الظـاهر والباطن وتفضيلا للباطن واستخفافا بالظاهر وجعله مصـدر سخرية ، واعتباره بمنزلة القشـور والباطن بمنزلة اللب . ووصفوا الظاهر بأنه متناقض معوج وانه تقليد محض ولا دليل عليه ولا حياة فيه ويقولون : ان الغاية من الشريعة (التأويل) التى هى من الجسد كالروح وان (التنزيل) ليس الا جسما وقد تأولوا ايات القرآن وسنن النبى ، وقالوا ان من ارتقى الى علم الباطن انحط عنه التكليف ، وأن جميع ما استبعد الله به العباد فى الظاهر من الكتاب والسنن أمثال مضروبة وتحتها معان فى بطونها ولاريب ان هذه الدعوى باطلة تماما وانما هى قائمة على مفاهيم الفلسفة اللاهوتية اليونانية . فالباطنية وهى من اخطر الأساليب واكبرها أثرا فى جماعات الناس رغبة فى ارضاء الشـهوات هى فى جملتهـا محاولة لتدمير لباب الاسلام وجوهره ، تستهدف اذاعة ثلاثة محاذير خطيرة ينكرها الاسلام .

أولا : ايجاد الواسطة بين الله والانسان .

ثانيا : القول بالعصمة للبشر فى أمور العقيدة والشريعة .

ثالثا : القول بسقوط التكليف .

* * *

وقد تبين أن أغلب هذه الفرق كانت ترمى الى غايات سياسية وانها انخذت هذا الثوب البراق للخداع والتضليل من ناحية وحتى تستطيع أن تهدم القيم الاساسية التى تقوم عليها الدولة الاسلامية ، وقد كان وراء هذه الدعوات مؤامرات القرامطة والباطنية وعبد الله بن ميمون القداح والحسن الصباح الذى بث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة .

واذا كانت الحركة الباطنية القديمة تهدف من وراء احتضانها لحركتى الشعوبية والزنادقة الى قلب نظام الحكم الاسلامى ، مجندة مجموعة من المجوس والثنوية والملاحدة والفلاسـفة والحاقدين على الاسلام والعرب تسموا باسم (الرافضة) الشعوبية فاننا اليوم نجـد مثل هذه الجماعات تتجمع من جديد تحت لواء الاستعمار والشيوعية والصهيونية محاولة بعث ذلك الفكر الوثنى تحت أسماء جديدة وفى كتب براقة تعمل لخدمة مخططات بروتوكولات صهيون التى كشفت عن ترابط عميق بين الصهيونية والشيوعية والاستعمار ، وقد أطلق على هذه الجماعات نفس الاسم القديم الروافض والشعوبية ، أعداء كل دين وملة ، الذين يعملون على أحتـواء جماعات الشباب والمثقفين المسلمين فى كل قطر عربى .

واذا كانت « الشعوبية الباطنية » قد نجحت — مرحليا فى اجتذاب الناس الى صفوفها بفضل الخدع والمغالطات المنطقية التى استخدمتها — كما يحدث اليوم — فانه سرعان ما ينكشف هذا الزيف ويدحض الحق باطلهم، وقد تبين اليوم بطـلان خدعة الفردوس الماركسى الموعود وانكشف فساد الأيديولوجية الديمقراطيـة والاشتراكية والقوميـة الغربيـة التى طرحت فى أفق المجتمع الاسلامى .

وكما يتبين فساد الدعوة الباطنية وارتباطها بالمصالح الاجنبية فقد تبين تماما أن هذه الأيديولوجيات التى يحمل لواءها التغريب والاستشراق لا تهدف الا الى احتواء هذه الامة وصهرها فى آتون الاممية والعالمية .

لم تستطع هذه الأفكار أن تحدث الاثر الذى كان يتطلع اليه دعاتها وهو تدمير الفكرة الاسلامية القائمة على التوصية كمقدمة لاسقاط الدولة الاسلامية ، فقد كانت مفاهيم الاسلام أكثر أصالة واقرب الى الفطرة والعلم والعقل نصدت هذه المؤامرة بقوة وتصدى العلماء المسلمون لهذه الموجة العاتية بقوة فكشفوا زيفها وأدالوا منها ، كما انكشف هدف هذه الدعوات وتبين ما وراءها من مؤامرات سياسية ، وتصدى الكثيرون للرد على هذه الشبهات : وتتمثل هذه المواجهة فى عديد من الاعمال :

اولا : المدارس التى انشأها نظام الملك لاقرار مذهب أهل السـنة

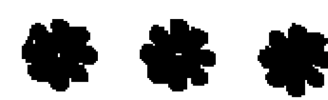
والجماعة ودحض مزاعم الباطنية ، وقد قامت هذه المدارس بدور هام فى هذه المقاومة ، وشارك فى هذه الحملة علماء كثيرون : منهم الغزالى والباقلانى والشهرستانى . وغيرهم ، وربط كثير من المؤرخين بين الباطنية والمجوس وإستدلوا على ذلك من نصوصهم التى تطلق كلمة العقل الاول على الله (تعالى الله عما يقولون علوا كثيرا) .

ثانيا : ظهرت فرق المتطوعة للنكير على الفساق : وظهر خالد الدريوس الذى دعا الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وسهل بن سلامة الانصارى الذى دعا الى العمل بكتاب الله — يقول الطبرى أنه تبعهما خلق كثير وامكن منع الفساق وكشف عاداتهم ثم جاءت بعد ذلك فرقة الحنابلة فكان لهـا دورها التاريخى المعروف .

كذلك ظهرت حركة الزهد كرد فعل على حركة اللهو والانحراف التى قادها الزنادقة .

ثالثا : عقد الخلفاء المناظرات لمناقشة آراء الباطنية والشعوبية ، ونوهضت أفكار بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس ورد على كثير مما اثاره أصحاب العقائد المجوسية ، وقد نكل المهدى بالزنادقة وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين وأمر بالرد على ما نشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون ومما ترجم من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنف فى ذلك ابن ابى العوجاء وحماد عجـرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس فى تأييد المذاهب المانوية والديصانية .

رابعا : ظهر عدد كبير من حملة لواء الدفاع عن جوهر الأسلام منهم الحسن بن عثمان الخياط الذى الف كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى فيما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم ، وابن الجوزى الذى الف فى الرد على الزنادقة والباطنية كتابه تلبيس ابليس حيث عرض بشبهاتهم ودحضها ، ورد ابن حزم على ابن النغريلة اليهودى الذى الف كتابا يناقض كلام الله . والجاحظ وله مؤلفاته فى الرد على الشعوبية والباطنية واهمها الحيوان والبيان والتبيين ، وللغزالى فى هذا المجال القدح المعلى : فقد الف عددا من الكتب : الف المستظهرى ، وحجة الحق ، ومفصل الخلاف ، والدرج المرقوم بالجـداول ، والقسطاس المستقيم ، وفضائح الباطنية . وعرض لنظـرية الإمام المعصوم وكشف عن أن هنـاك معصوما واحـدا وهو محمد رسول الله كما رد عليهم الشهرستانى وابن حزم وابن تيمية وابن القيم كما ظهر جماعة من العلماء العادلين فى مواجهة هذه التحديات ، كانوا نماذج للايمان والورع والتقوى : من أمثال عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وسفيان الثورى والفضيل بن عياض ، وقـد هجر هؤلاء مناصب القضـاء والسياسة واقاموا على دعوتهم الى الله يعيشون من تجارتهم ويرفضون العطاء .



وفى العصر الحديث نرى مفهوم الباطنية يتجدد فى طبع مؤلفات ابن عربى والحـلاج وابن الفارض ، ودراسة افكارهم ومناهجهم وأساليبهم ورسائل اخوان الصفا ، ويحمل رجال الادب المعاصر مسئولية هذا العمل الخطير الذى يجرى تحت اسم الذوق الأدبى أو الفنى ، كذلك فان كتاب العصر الذين يأخذون من هؤلاء دون أن يقدروا الخلفيات الخطـيرة التى تحملها أخطارهم انما يحملون الى مثقفى العصر سموما وشبهات تتعارض مع أصالة الاسلام وقيمه التقدمية البناءة .

ذلك أن المذاهب الباطنية فى أصلها كانت تستهدف العقيدة الاسلامية من أساسها ، وان تجديد هذه المذاهب تحت اسم الفن أو الادب او الفلسفة أو غيرها انما هو « محاولة » جديدة لطرح هذا الفكر الفاسد المسموم مرة أخرى فى أفق الفكر الاسلامى فى واحدة من محاولات بلبلة العقيدة وتلويثها ذلك أن ما كتبه الباطنية انما هو تخطيط شديد الخطر أرادوا به هدم أصالة الاســلام بالشبهات والتأويلات والشكوك القائمة على التأويل والتعطيل والدعوة الى رفع التكليف . والفلسفة الباطنية فى صميمها مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية وعلى الطبيعيات استخدمت مصطلحات الفلسفة اليونانية وعقائدها ، قالوا أن الشريعة قـد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولاسبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة . ولاريب ان الفلسفة تنافى النبوة وتعارضها على خط مستقيم منذ النقطة الاولى فهما لايلتقيان ، واذا ظهرت الفلسفة بدأ احتقار الناس للدين ورغبتهم فى التحرر منه ومن تكاليف عقائده .

وماترجم من كتب الفلسفة اليونانية الهلينية انما هو كتب الالهيات والميتافيزيقا وهو ما يسمى علم الاصنام عنـد اليونان والذى هو وثنيتهم القومية ، وقد بلغ خطر الباطنية أن قال عنه مؤلف (الفرق بين الفرق) : أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصـارى والمجوس عليهم ، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الملحدين .

ولا ريب أن عبد الله بن سبأ هو مؤسس هذا المذهب الباطنى الذى استمده من المجوسية لافساد الاسلام وازالة ملك دعاته من العرب ، ومن هذا المذهب تفرعت كل النحل المارقة الهدامة كالقاديانية والبابية والبهائية وغيرها من هذه النحل التى ما تزال ترهق الاسلام ، وهذا ما يدعو الاستشراق والتغريب الى التشبث به .

ولقد وضع عبد الله بن سبأ تعاليم هذه الفرقة والف تلك الجمعية السرية التى بثها فى مختلف أقطار البلاد الاسلامية والعربية ، وهو أول من طرح هذه المفاهيم فى أفق الفكر الاسلامى فانشأ جماعة السبئية الخطيرة التى تولاها من بعده عبد الله بن المقفع ثم كانت تلك الجماعات الخطـيرة التى حملت لواء تنفيذ مخطط المؤامرة : كاخوان الصـفا والقـرامطة والزنج .

وفى طريق الانتماء اليهودى يشير بعض المؤرخين الى المفاهيم التى أخذ (كعب الاحبار) ينفثها والتى تستهدف تشويه أهداف ركن الجهاد تمهيدا لقتله فى نفس المسلم ، وذلك باثارة الشبهة حول مقاومة أعداء الاسلام أو مقاومة النفس وجهادها ، على النحو الذى تقول به القاديانية اليوم ، ويضيف بعض الباحثين ظاهرة ادعاء بعض اليهود اعتناق الاسلام ومحاولتهم احداث الفتنة بين المسلمين ، ومن آثار ذلك كله ظهور (الاسرائيليات) بوضع الاحاديث أو رواية الاحاديث التى نسبت الى عبد الله بن سلام أو كعب الأحبار ، فقد كان ينظر الى ما يروونه من الاحاديث نظرة ارتياب لما عرف عنهم ، وقد أشار كثير من الدراسات الى أن هناك من دخلوا فى الاسلام ظاهرا وأبطنوا غيره وكان دخولهم ليفسدوا على المسلمين أمور دينهم ويبثوا فيهم الافكار المنحرفة .

وقد أظهرت اليهودية فى أفق الفكر الاسلامى القول بالرجعة ودعت بعض الفرق الى تقديس الامام على . فاليهودية قد أثرت فى الفكر الباطنى كما اثرت فى فكر المعتزلة .

ودعوة الجبرية دعوة يهودية الأصل ، كذلك فان ما وضع من قصص فى كتب التفسير هو من تأثير الاسرائيليات ، وهو قصص أعاد بعث الخرافات والأساطير التى كانت متداولة فى الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف .

ومن آثار اليهودية مسائل التأويل والمتشابه من القرآن وما يتصل باتخاذ الأقيسة المنطقية والتعليلات الفلسفية وسيلة لاثبات العقائد وهدفها هو اقصاء المنهج القرآنى فى العقائد ، ومن ذلك التصوير المادى فى وصف العرش والملائكة وحياة القبر .

ولعل أصدق ما يمثل دور اليهود فى الحركة الباطنية ما قاله الشعبى لمالك ابن معاوية حين قال : أحذرك الأهواء المضلة وشر الرافضة فانهم يهود هذه الامة يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية لم يدخلوا فى الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتا لأهل الاسلام ونعيا عليهم ، وقالت الرافضة لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى ، وقالت اليهود لا يكون جهاد حتى يخرج المهدى .

ومن امتداد الانتماء اليهودى تجىء البهائية والقاديانية والروحية الحديثة . وتجىء جماعة الدونمة التى حملت لواء مؤامرة اسقاط الدولة العثمانية ، ويطلق وصف (الدونمة) على يهود من اتراك ازمير وسالونيك حين كانت تابعة للدولة العثمانية اعتنقوا الاسلام فى الظاهر وهم يهود فى

الباطن ، وقد تبعوا فى اعتناق الاسلام زعيمهم أو نبيهم (شبتاى) الذى ادعى عام ١٦٤٨ أنه المسيح الذى ينتظرة اليهود ليعمل على انقاذهم من تشريدهم وليؤسس لهم ملكا عريضا ، ثم ادعى الاسلام ليفلت من الاعدام ، وكان قد قبض عليه عام ١٦٦٦ فى القسطنطينية وحكم عليه بالاعدام فأعلن اسلامه اذ نطق بالشهادتين فلما علم السلطان محمد الرابع حاكم تركيا اذ ذاك حملته بساطته الى الاعتقاد بأنه أسلم حقا نعفا عن عقوبته ، وقد تبع شبتاى أتباعه فى ادعاء الاسلام وهؤلاء هم من يطلق عليهم وصف الدونمة ، وقد أشارت الموسوعة اليهودية الى أن هذه الطائفة كانت تدعى الاسلام جهرا ولكنها تقوم بأداء الشعائر اليهودية سرا ، ولما فشلت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن الماضى فى حمل الخليفة العثمانى عبد الحميد على السماح بهجرة اليهود الى فلسطين (التابعة لتركيا) اتجه اليهود ولا سيما الدونمة الى تحطيم الخلافة العثمانية فى تركيا .

ولم يكن من المصادفات ان يتم تبليغ السلطان عبد الحميد قرار البرلمان التركى بعزله على يد النائب اليهودى (قرمصو) نائب سلانيك ، فقد كان هذا النائب ذاته هو الذى سبق أن أوفده اليهود الصهيونيون لمقابلة السلطان عبد الحميد واغرائه بقبول هجرة اليهود الى فلسطين فى مقابل دفع خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية لخزانة الدولة وخمسة ملايين لخزانة السلطان الخاصة ، وقد رفض السلطان العرض ، وكان اليهود ولاسيما الدونمة فى سلانيك وغيرها هم مؤسسو محافل الماسونية والداعون الى الدعوة الطورانية فى تركيا ، وذلك للتخلص من الاسلام واللغة العربية وفصم عرى الروابط بين الترك والعرب ، ولقد كان لذلك أثره فى حكم مصطفى كمال اتاتورك(١) .

* * *

(١) مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين .

الفصـــل الثــانى

الدعـــــوة الشـــعوبيــــة

الدعوة الشعوبية هى واحدة من فصائل مخطط المؤامرة على الاسلام وقد انصبت حملاتها على :

(أولا) مهاجمة العرب حملة لواء الاسلام وأصحاب الدولة الاسلامية فى تاريخهم واسلوب حياتهم وطمس ذاتهم وكياناتهم ومهاجمة فكرة الشرف العربى والطعن فى نظرتهم الى المروءة ومهاجمـــة القيم العربية والفضــائل الخلقية التى تتمثل فى مفهوم الشرف والكرامة .

(ثانيا) مهاجمة التاريخ الاسلامى ، واللغة العربية .

(ثالثا) الطعن فى أصول القيم الاسلامية وجذورها .

(رابعا) نفسبخ القيم الخلقية العربية الاسلامية .

وقد عمدت الشعوبية الى مهاجمة الثقافة العربية بصورة عامة لاحياء الثقافة الفارسية القديمة وتقليل شأن الثقافة العربية واظهارها وكأنها غير وافية بحاجة العصر ، وقد ركزت الشعوبية فى هجومها على اللغة العربية بحسبانها وعاء الثقافة العربية بعد أن سيطرت على شعوب عالم الاسلام واللغات القديمة ، وأصبحت لغة الثقافة ولغة السياسة معا ، ولذلك فقد اتجهت حملتهم الى تحريض أصحاب اللغـــات بالعودة الى الانتاج والتأليف بلغتهم .

كذلك عمدت الشـــعوبية الى اذاعة المجون والشراب والمجـــاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسى واعتبرت ذلك نوعا من التحرر والظرف .

ونحن نجد اليوم نفس الأسلوب يتكرر بظهور الشعوبية الحديثة التى تطعن فى العرب ومقوماتهم وعقيدتهم وتحمل لواء الاباحية والالحاد وتستخف بالقيم الاخلاقية فى بناء الاسرة والجماعات ، فنجـد الدعوة الى مظاهر الخلاعة والمجون والانغماس فى الشهوات الجنسية وشرب الخمر تحت اسم الانطلاق والتحرر والعصرية .

وقد تركزت حملة الدعوة الشعوبية فى تزييف التاريخ وظهر ما أطلق عليه كتب المثالب وقد حملت هذه الكتب صورا مشوهة وزائفة للعرب بهدف استنقاص تاريخ العرب وقيمهم وحمل الاجيال الجديدة على التنصل من ماضيهم واحتقار أمتهم .

وكذلك قامت على بعث الأساطير والخرافات القديمة والتراث الوثنى لابعاد المجتمع الاسلامى عن تاريخه الاصيل .

وهذا العمل قد تكرر فى العصر الحديث عن طريق كتابات المستشرقين والمبشرين واتباعهم من دعاة التغريب ، وقد عاش الدكتور طه حسين عمره كله يجمع صور الفحشاء والانتقاص من تاريخ العرب والمسلمين ، ويذيع بهما ، وتابعه على هـــذا الطريق عدد كبير من التغريبيين : أمثال لويس عوض وادونيس ويوسف الخال وحسين فوزى وزكى نجيب محمود وسلامة موسى ومحمود عزمى .

ولقد واجه الثعالبى والجاحظ فى العصر الاول سموم حملات الشعوبية ودافعوا عن اللغة العربية وأظهروا مزاياها وكشفوا عن مظهر حيويتها ، ونشط الكتاب والمفكرون العرب لربط التراث الثقافى العربى قبل الاسلام بالأدب العربى بعد الاسلام ، كما عمد البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان الى الكشف عن الدور الضخم الذى قام به العرب فى سبيل نشر الاسلام وتكوين الدولة الاسلامية .

واليوم نجد عشرات من كتاب حركة اليقظة يواجهون حملات الشعوبية على اللغة العربية والقيم الاسلامية العربية فى الجيل الاول من أمثال مصطفى صادق الرافعى والغمراوى ومحب الدين الخطيب وحسن البنا ، وتواصل الاجيال حمل لواء المقاومة .

قال السيد المرتضى : نشأت جماعة تتستر باظهار الاســلام وتظهر شعاره وتدخل فى جملة أهله وهم زنادقة ملحدون ، وبلية هؤلاء على الاسلام واهله أعظم واغلظ لانهم يوغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط وراى جامع ، والزندقة تعادى الاسلام والعروبة معا : تبدأ بالتهجم على العرب الى مهاجمة العربية وتنتهى بالهجوم على الاسلام . وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة قال : « فانما عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فان التجاوز عن الدين يؤدى الى تجاوز كافة القيم » .

ويوضح ابن قتيبة أن الشعوبية تدفع أصحابها الى الغلو فى القول والاسراف فى الذم ، وهم حين يركزون على الامة العربية انما يتطلعون منها الى هدم الاسلام نفسه ، ولذلك فقد عمدت حركة المواجهة الاسلامية الى تأصيل دور العرب الذين حملوا راية الاسلام الى الشعوب الاخرى وأعطوا الاسلام نطاقه الجغرافى الاول بالفتوحات ، وصحب انتشار الاسلام توسع العربية اذ نزل القرآن بلسان عربى مبين وجاء الحديث بالعربية الفصحى

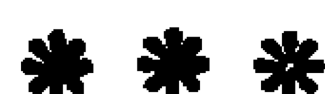
وقام العرب بالدور الاول فى وضع خطوط اللغة وفى رسم المذاهب الفقهية ، فعربوا الدواوين والادارة فى صدر الاسلام ، وهم الذين عملوا بجد وحماسة لتكوين العلوم العربية والاسلامية ورسم اطارها العام الى أن جاء دور الشعوب الاخرى لتشارك فى هذه الثقافة فلما ساهمت تلك الشعوب فعلت ذلك باللغة العربية .

وكذلك ركزت حملات الشعوبية على الجذور والأصول فهى تهاجم العرب قبل الاسلام وتتهمهم فى كل شيء : فى أسلوب حياتهم وفى فصاحتهم وخطبهم وفى أنسابهم وفى علاقاتهم الاجتماعية وفى مقاييسهم الخلقية .

وقد واجهت الاصالة العربية الاسلامية هذه الحملات فكشفت عن زيفها وأظهرت السجايا العربية الحميدة وكشفت عن المروءة العربية ودافعت عن انساب العرب وكيانهم الثقافى .

وكانت من أخطر محاولات الشعوبية فى القديم ، التى تجددت فى العصر الحديث الدعوة الى العودة الى اللغات المحلية ، وقد ساعد على ذلك نفوذ الاستعمار والتبشير الذى حال بين كثير من أجزاء العالم الاسلامى وبين اتخاذ اللغة العربية لغة أساسية بعد أن فرض عليهم احدى اللغتين الفرنسية او الانجليزية وعمد الى لغاتهم الاقليمية فدفعهم الى كتابتها بالحروف اللاتينية .

وقد دافع الجاحظ والثعالبى عن اللغة العربية لانها لغة القرآن ولغة الثقافة العامة وفى العصر الحديث دافع كثير من رجال حركة اليقظة عن اللغة العربية وكشفوا زيف خصومها (اقرأ كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية) .



الفصل الثالث

إخوان الصفا

كانت (اخوان الصفا) هى أولي ثمار الحركة الباطنية فهى الجماعة السرية التى مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية لتخرج للناس مذهبا جديدا . يمزج الهيات اليونان ونظريات أفلاطون وارسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم بالعقيدة الاسلامية فى خليط متضارب فاسد .

وقد أنتج هؤلاء العشرة « رسائل اخوان الصفا » التى اذاعوها بعد أن كتموا أسماءهم واستتروا وراء تلك الرموز الخفية التى وضعوها هنا وهناك من فصول كتاباتهم واستهدفوا منها وضع برنامج للعمل السرى الذى يستهدف القضاء على الاسلام ودولته وتأسيس دولة أخرى على أنقاض الدولة الاسلامية تضم العقائد الوثنية والمجوسية والاباحية التى نسقوها من جماع ركام الفكر البشرى الزائف الممتد من فارس الى الهند الى اليونان والذى اختلطت فيه الهلينية الاغريقية بالغنوصية الشرقية .

وصفهم أبو حيان التوحيدى فى كتابه (الامتاع والمؤانسة) بأنهم « عصابة » تألفت بالعشرة وتصادقت بالصداقة فوضعوا مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله وذلك أنهم قالوا : ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنعوا خمسين رسالة (٥١ رسالة) فى جميع أجزاء الفلسفة علميا وعمليا وافردوا لها فهرسا وسموها (رسائل اخوان الصفا) وكتموا فيها أسماءهم وبثوها فى الوارقين ووهبوها الناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة » .

« وهذه الرسائل تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والالهيات والعقليات يعوزها التعمق والنظام ويظهر فيها الاغراق فى الخيال والاعتماد على الافكار اليونانية من غير فحص ولا انتقاد وبحث فى كل علم عن غير اشباع واقناع ، فهى مشوبة من كل قيد بلا اشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالاجساد ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلافا لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية وينكرون الشياطين على الصورة

التى يفهمها معظم المسلمين ويقولون : هى النفوس الشريرة الهائمة فيها فلك القمر مع اخوانها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ، ويفسرون الكفر والعذاب تفسيرا باطنيا فلسفيا ويشتمل على كثير من الآراء الخيالية بعضها متلفق من اليونان وبعضها وليد الاذهان وبعضها تراث الكهان كأسرار الأعوام والتنجيم والفال والزجر ، والسحر والعزائم والايمان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الافلاك ونغماتها ويشتمل كذلك على عقيدة الوحي والامام المستور والتقية ، وفيها اعداد النفوس والقول لدولة جديدة تقوم على أهل البيت ، واخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها ، وبالاختصار فهى مجموعة غريبة من الحكم والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والالهية ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانهيارها وليست لها أهمية كبيرة ، ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود العالم فى القرن الرابع والخامس واجلال كل ما يظهر من الصنعة الفلسفية لما نالت هذا الاهتمام » .

وهكذا نرى بوضوح أن الرسائل كانت مقدمة لتحويل الدعوة الباطنية الى مؤامرة خطيرة لتدمير الدولة الاسلامية والفكرة الاسلامية معها ، أو كما قال أحد الباحثين : محاولة لوضع نظام جديد خلقى الهى علمى يحل محل الشريعة الاسلامية التى يعتقد اخوان الصفا أنها بشكلها الحاضر قد أصبحت عتيقة لا تؤدى رسالتها وقد أخفقت هذه المحاولة اخفاقا تاما فلم تنتج نظاما علميا ولم تنشيء مجتمعا جديدا يقوم على اساسها واصبحت فى مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ولا محل لها الا فى المتاحف والمكتبات .

ويرى الدكتور عبد اللطيف محمد العبد : ان اخوان الصفا وخلان الوفا كانوا يضعون السم فى العسل لخدمة اهدافهم وأن هذه الرسائل كانت سجلات لمحافلهم السرية ، وأنها تمثل المذهب الباطنى الاسماعيلى فى دور الستر ، لما تقوم عليه من تأويلات باطنية عديدة ، ولقد كان للمذهب الافلاطونى المحدث تأثير بالغ فى هذه الرسائل فلم يختلف اخوان الصفا عن أفلوطين فى القول بأن العالم وحدة حية متكاملة نابضة بروح سارية فى كل أجزائه (وهو ما يسمى مذهب وحدة الوجود الذى ينكره الاسلام انكارا شديدا ويعارضه معارضة تامة) .

كذلك فهم فى أبحاثهم عن الانسان (صديقا وفيلسوفا ونبيا ورسولا) يطبقون تعاليمهم الباطنية وينفثون سمومهم الهدامة .

وهم فى مفهومهم للامام يعارضون مفهوم الاسلام الصحيح حين يرون أن الامام الهى الذات وأنه معصوم بينما لا يقر الاسلام عصمة الا لرجل واحد هو محمد بن عبد الله رسول الله ، وبذلك فقد كانت هذه الرسائل هدما لمفاهيم الاسلام الاساسية وهدما للنبوة وحربا للاسلام وطعنا فى الصحابة .

وقد استغل الباطنية التشيع فى نشر دعوتهم كما استغلوا التصـــوف الفلسفى ونستروا وراء أهل البيت والصوفية .

وكانت دعوتهم الى وحدة الأديان والغاء التعصب لدين ما علامة على انحرافهم وخروجهم على مفهوم الاسلام الاصيل ، كذلك فقد كان اشد آرائهم فسادا هو قولهم أن الخاصة لا حاجة لهم الى الشرائع ، ودعوتهم الى التحلل من الفرائض وقولهم أن الشرائع للعامة وحدهم ولا ريب أن ما سموه علم الباطن انما يعنى أن الرسول كتم شيئا من الوحى عن عامة الناس وحاشا لله أن يكتم صلى الله عليه وسلم شيئا .

* * *

(٢)

أشكل منذ وقت بعيد معرفة مؤلفي رسائل اخوان الصفا فذهبت طائفة من الناس الى أن الذى ألفها أحد متكلمى المعتزلة أو الامام جعفر الصادق (جاء ذلك فى منهاج السنة النبوية لابن تيمية) وذكر ابن حجر فى فتاويه ان الذى ألفها هو المجريطي وايده فى ذلك صاحب كشف الظنون ، وذهب البعض الى أن جماعة لا شخصا واحدا هم الذين الفوا هذه الرسائل فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واشار ابو حيان التوحيدى الى أن وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة أخبره عام ٣٧٣ هـ أن من جماعة اخوان الصفا أبا سلمان محمد بن معشر البستى المعروف بالقدسى وأبا الحسن هارون الزنجانى وأبا أحمد المهرجانى والعوقى وزير ابن رفاعة .

وهناك من نسب الرسائل الى أحد أئمة العلويين ، لكون الرسائل مملوءة بالتعاليم الاسماعيلية ، ويقول الباحث الذى نقلنا عنه هذا (مجلة الكلية م ١٨ سنة ١٩٣١) أن الرسالة الجامعة هى خلاصة الرسائل والتعاليم الباطنية اختص بقراءتها أقطاب الدعوة الاسماعيلية دون غيرهم وقد كان لبول كازنوفا الفضل الاول فى اظهار هذه الرسالة للعالم الغربى ١٨٩٩ .

ولا ريب أن اهتمام الاستشراق والتغريب بهذه الرسائل كان بالغا ولذلك فان جماعة منهم (نيكسن — جولدزيهر — أوليرى) بالاضافة الى كازنوفا قد وضعوا عددا من الابحاث حولها وان كانت كتابات هؤلاء المستشرقين لم تستطع أن تنكر نسبتها الى الحركة الباطنية فقال كازنوفا :

« اننى على أتم الثقة من أن آراء اخوان الصفا هى برمتها آراء الاسماعيلية . ومحور هذه الآراء هو الاعتقاد بعودة الامام وقد انهم القرامطة والحشاشون من قبل أعدائهم بالكفر ولكن ليس لهذه التهمة ظل من الحقيقة » .

ويقول أوليرى : هناك ما يغرى بالظن بأن حركة اخوان الصفا كانت حركة اصلاح من جانب بعض الاسماعيليين الذين أرادوا الرجوع الى تعاليم الاسماعيلية .

ويقول جولدزيهر : اعتقد أن رسائل اخوان الصفا كانت الاساس الذى بنيت عليه معتقدات الاسماعيلية .

ولا عجب أن يدافع المستشرقون عن اخوان الصفا .

ويقول أديب عباسى (الرسالة م ١٩٣٤) معلقا : « أن أول ما يلحظ فى أوجه الشبه بين الاسماعيلية واخوان الصفا : الأسلوب الذى جروا عليه فى نشر دعوتهم والدعاية لمذهبهم ، وهو أسلوب الاسماعيلية المعهود (أسلوب التدرج فى بث الفكرة والتلطف فى عرضها على الناس) ومن أبواب التشابه بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقا كليا فى مذهب الحلول فهو فى رسائل اخوان الصفا كما فى تعاليم الاسماعيلية المحور الذى ندور حوله هذه الرسائل والتعاليم » .

ووجه آخر : هو تفسير القرآن تفسيرا مغايرا لما يدل عليه ظاهر اللفظ وهذا هو الأسلوب الباطن ، ووجه ثالث هو التشيع لآل البيت والدعوة الى الامام المنتظر او المهدى ، ويرى أن المعنى فى كلام اخوان الصفا للفاطميين وقرائن الأحوال تدل على أن لهم بهم صلة .

ويقول ماكدونالد : انه مما يثبت علاقة اخوان الصفا بالاسماعيلية ومن تفرع منهم وجود قسم من رسائلهم فى كتب الحشاشين المقدسة .

وقد ألقى بعض الباحثين أضواء أخرى على موقف اخوان الصفا تشير الى أن المثل الاعلى فى رسائلهم ليس مثلا أعلى اسلاميا (وانما هو عبرانى فى مخبره مسيحى فى منهجه يونانى فى علمه) (مجلة الرسالة الاسلامية ١٩٧٢ م) وأخطر ما يدمغهم هو انهم لم يقفوا عند عقيدة واحدة ، وانما اخذوا من كل دين وعلم وفلسفة ومذهب دون اطار ثابت هو فى حد ذاته دليل على مؤامرتهم ضد الاسلام .

وكونهم لم يعلنوا عن أسمائهم على أنهم دعاة لا علماء .

كل هذا يكشف أن لهم غاية سياسية يخفونها كالوصول الى الحكم او القضاء على الدولة القائمة ، ولذلك فهم يكثرون من ذكر رموز واشارات معينة لها تفسيرها الخاص ، وهذه الظاهرة واضحة فى كتابات ابن سينا الذى يستعمل الرموز والاشارات .

ولا ريب أن تفهمهم للدين مخلوطا بالفلسفة هو فى حد ذاته خروج عن مفهوم الاسلام الصحيح .

وقد ذكر السيد محب الدين الخطيب (مجلة الفتح ١٨ م — ١٢٦٧ هـ) عن اغاخان فى كتابه (نورمبين حبل متين) أن مؤلف اخوان الصفا من ائمة الاسماعيلية وهو احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق .

ويقول الدكتور حسين الهمذانى أحد دعاة الاسماعيلية البهرة : أن الاسماعيلية يرون القرآن كتاب العامة ورسائل اخوان الصفا ، كتاب الائمة .

* * *

كان من ابرز اعمال التغريب والغزو الثقافى ممثلا فى الاستشراق والتبشير اعادة طبع واحياء رسائل اخوان الصفا من جديد بعد أن دفنت وماتت وكشف زيفها أكثر من الف سنة فقامت المطبعة الكاثوليكية فى بيروت باعادة طبع هذه الرسائل . ثم جاء الدكتور طه حسين من أوربا ١٩٢٩ ليعيد طبع رسائل اخوان الصفا ويقدم لهـا ، وليس هذا عيبا فى ذاته اذا ماروعى فيه أصول البحث العلمى ووضعت هـذه الرسائل فى موضعها الحقيقى من حيث أن جماعة اخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع الهجرى فى البصرة على هيئة جماعة سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الاسلام واللغة العربية .

وقد كان هدفهم من هـذه الرسائل وضع مخطط لتقويض المجتمع الاسلامى لو أن الدكتور طه كشف عن هذا الهدف لكان صادقا فى النصح لقومه ولكن الدكتور طه كذب على الناس وادعى أن اخوان الصفا قوم مجددون مصلحون قدموا للمجتمع الاسلامى الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية لانشاء ثقافات جديدة وهى الثقافة التى يجب على الرجل المستنير أن يظفر بها .

وهكذا خدع طه حسين قومه وهو يعلم فى أعماق نفسه انه انما يعمل على هدم القيم الاسلامية باعادة اذاعة هذه الرسائل كجزء من مخطط التغريب والغزو الثقافى .

وينضم اليه زميله زكي مبارك ليقول : من الذى يصدق أن رسائل اخوان الصفا هى أعظم ذخيرة ادبية وفلسفية ؟. هكذا علمهم المستشرقون ، أما المطبعة الكاثوليكية فهى تقول أن من اسباب عظمة هذه الرسائل أن كتب عنها طه حسين وفروخ وجبور والدسوقى وصليب والهمذانى والعوا وماسينيون ولكن هـؤلاء جميعا لم يكونوا فى درجة واحـدة فى الاعجاب برسائل اخوان الصفا ، وفيهم من كشف عن علاقة اخوان الصفا بالمؤامرة الباطنية .

ولقد كان حقا على هؤلاء جميعا أن يكشفوا حقيقة رسـائل اخوان الصفا بالنسبة لمفهوم الاسلام الاصيل : وان هذه الرسائل تعارض هـذا المفهوم فى عدة أصول أساسية :

أولا : انكار البعث بالاجساد .

ثانيا : تفسير الجنة والنار والآخرة تفسيرا مخالفا لما تواتر عند المسلمين .

ثالثا : تفسير الكفر والعذاب تفسيرا باطنا معنويا .

رابعا : فساد نظريتهم القائلة بأن النبوة يمكن أن تكتسب عن طريق الرياضة وصفاء القلب .

خامسا : فساد قولهم بأن من ارتقى الى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

ومن أشد فساد عملهم محاولتهم صهر الاديان والعقائد كلها فى صورة زائفة ، ومن ذلك قولهم : الرجل الكامل يكون فارسى النسب عربى الدين عراقى الآداب عبرانى المخبر مسيحى النهج شامى النسك يونانى العلم هندى البصيرة صوفى السيرة ملكى الاخلاق .

وهذا يعنى وحدة الأديان ، وهى دعوى اليهودية التلمودية التى حاولت على مدى العصور أن تكيد للاسلام ، وهى دعوى تتجدد فى العصر الحديث حيث نرى دعاة التغريب يقولون بالتقاء الأديان والثقافات فى وحدة الثقافة العالمية التى تستمد أصولها من الفكر التلمودى الذى احتوى الفكر الغربى والحضارة العالمية .

ولا يبعد هذا عما كان يقوله اخوان الصفا فى رسائلهم : حين يقولون « ينبغى لاخواننا الا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها ، أما مفهومنا الاسلامى فان الاسلام له ذاتيته الخاصة وأصالته المفردة التى تجعله قائما بذاته مستمدا من طوابعه وقيمه وحدها ، ولا يقبل الانصهار فى الفكر البشرى أو الأممية والعالمية القائمة على الوثنية والمادية .

وقد وصف أبو حيان التوحيدى رسائلهم : بأنها مبثوثة فى كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، وهى خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات ، حملتها الى شيخنا ابى سليمان المنطقى السجستانى محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياما وتحرها طويلا ثم ردها على وقال :

تعبوا وما اغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا مالا يكون ولايمكن ولا يستطاع ، ظنوا انهم يمكنهم ان يدرسوا الفلسفة التى هى علم النجوم والأفلاك والمجسطى والمقادير وآثار الطبيعة . والموسيقى التى هى معرفة النغم والايقاعات والنقرات والأوزان والمنطق الذى هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكميات والكيفيات فى الشريعة ، وأن يضموا الشريعة للفلسفة وهذا مرام دونه حدود ، وقد توفر على هذا — قبل هؤلاء — قوم

كانوا احـــد أنيابا وأعظم اقدارا وارفع اخطارا واوسع قوى وأوثق عرى فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ولطخات ناضجة . وألقاب موحشة وعواقب مخزية . وأوزار مثقلة .

ويقول أبو سليمان المنطقي بعد ذلك : « وكما لم نجد فى هذه الأمة من يفزع الى أصحاب الفلسفة فى شىء من دينها فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهي النصارى وكذلك المجوس ، ومما يزيدك وضوحا ويريك عجبا ، أن الأمة اختلفت فى آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافا فيهـــا ومزقا كالمرجئة والمعتزلة والخوارج فما فزعت طائفة من هذه الطوائف الى الفلسفة ولاحققت مقالتها بشواهدهم وشهاداتهم ولا اشتغلت بطريقتهم ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها ، وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا فى الأحكام من الحلال والحرام . منذ أيام البذر الاول الى يومنا هذا لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم ولا قالوا لهم أعينونا بما عندكم أو اشهدوا لنا أو علينا بما قبلكم » .

وهكذا نجد أن هذا العمل قد وجد من علماء المسلمين معرفة لهدفة وكشفا لزيفه بما أسقطه فى نظر المثقفين ، حتى جاء دعاة التغريب فجددوه فى العصر الحديث وادعوا أنه علم وفهم وثقافة وما هو الا سموم عرفها أهل الأصالة الاسلامية ، وضلال كشفوا عنه وابانوا فساده ، وكان خليقا بأهل عصرنا أن يعرفوا هذا فلا يترددوا فى خطر النظر أو المتابعة لهذه الاعمال الضالة المضلة .

* * *

الفصل الرابع

دعاة الباطنية

حظى دعاة الباطنية الذين حملوا سموم هذه النحلة المضلة بتقدير كبير من رجال التغريب والغزو الثقافى وكان لهم القدح المعلى لدى حركة الاستشراق والتبشير ، فكتبت الابحاث الطوال حول عبد الله بن سبأ وعبد الله ابن المقفع وابن سينا والفارابى وابن الراوندى والرازى والمأمون ، ووضعوا جميعا موضع التمجيد والتقدير ، واحتفل بهم فى ميادين مختلفة منها ميادين الادب والتاريخ والفلسفة ، والف الدكتور طه حسين كتابا ضخما تحت اسم الفتنة الكبرى ، ليبرىء اليهودى ابن سبأ من المؤامرة التى قام بها والطائفة التى تشكلت باسم السبئية والتى كانت تقول بألوهية على بن أبى طالب ، بينما تجمع المصادر التاريخية الاسلامية كلها على انه يهودى من اليمن يلقب بابن السوداء أظهر الاسلام ورحل الى الحجاز فالبصرة فالكوفة ودخل دمشق فى أيام عثمان فأخرجه أهلها فانصرف الى مصر وهو فى كل مكان يؤلب على عثمان ويدعو الى خلعه .

وقد كان عبد الله بن سبأ هو أول من ادخل فى افق الفكر الاسلامى مفاهيم الوصية والرجعة والتناسخ وقد قال برجعة النبى ودعا بألوهية على ، عن ابن عساكر أنه لما بويع على قام اليه ابن سبأ فقال له :

انت خلقت الأرض وبسطت الرزق ، فنفاه الى ساباط المدائن حيث القرامطة وغلاة الشيعة ، وقيل انه قال ان محمدا خاتم الانبياء وعلى خاتم الأوصياء . قال ابن حجر العسقلانى أن ابن سبأ من غلاة الزنادقة .

وقد بث عبد الله بن سبأ فى البلاد الاسلامية دعاته وأشار عليهم أن يظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والطعن فى الأمراء فأخذوا يثيرون الناس على ولاتهم تنفيذا لخطة زعيمهم ويضعون كتبا فى عيوب الأمراء ويرسلونها الى غير مصرهم من الامصار ، ونتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبئيين وقدومهم الى المدينة وحصار أمير المؤمنين عثمان فى داره وقتله .

وتكشف كتب التاريخ الاسلامى عن دور عبد الله بن سبأ الواضح فى اثارة الفتنة وتنظيم الاتصال بين الثوار فى مختلف المدن والأمصار .

وقد نقل الطبرى (٥ — ٦٦) واكثر المصادر الاسلامية أن اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ ورد الشام فلقى أبا ذر فقال له : يا ابا ذر ألا تعجب الى معاوية يقول : المال مال الله ، ان كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين ، فأتى أبو ذر معاوية فقال : ما يدعوك الى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ فقال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، السنا عبـاد الله والمال ماله والخلق خلقـه والأمر أمره ؟ وأتى ابن السوداء الصحابى الجليل فقيه أهل الشام أبا الدرداء فقال له ما قال لأبى ذر فأجابه أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهوديا ، وأتى ابن سبأ الصحابى المجاهد عبادة بن الصامت فتعلق به معاوية فقال هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر » .

وكان للسبئيين موقف آخر خطير ، فانهم عندما رأوا المسلمين قد بايعوا عليا وخرج طلحة والزبير الى البصرة لحرب الجمل ، ووجد السبئيون أن رؤساء الجيش أخـذوا يتفاهمون وانهم ان تم ذلك سيأخذون بدم عثمان فاجتمعوا ليلا وقرروا أن يندسوا بين الجيشين ويثيروا الحرب بكره دون علم غيرهم ، فاستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فناوش المندسون من السبئيين فى جيش على من كان بازائهم من جيش البصرة ففزع الجيشان وفزع رؤساؤهما وظن كل بخصمه شرا .

قال رشيد رضا : من راجع اخبار واقعة الجمل فى تاريخ ابن الاثير فلا بد أن يرى مبلغ تأثير افساد السبئيين لذات البين دون ما كاد يقـع من الصلح .

وقد وصف ابن سبأ بأنه كان مبشرا متجولا يغرى المسلمين ويوردهم مورد الخطأ ، والقى عصا الترحال فى مصر بحيث استقر هناك يدعو الناس الى الاعتقاد بالرجعة .

ويشير الاستاذ محمد سعيد الافغانى أن الجمعية التى انشأها عبد الله ابن سبأ كانت تعمل لحساب دولة أجنبية هى دولة الروم التى انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام ، يقول : اقطع بأنه أحد أبطال جمعية سرية مختلفة غايتها تقويض الدولة الاسلامية والقضاء على الاسلام . وأن هذه المؤامرة كانت منظمة محكمة سهر عليها أبالسة خبيرون وتعهدوها فى جميع الاقطار حتى أتت ثمرتها ، وان هـذه المؤامرة لم تلق من عامة المؤرخين ما يسـتحق من التوضيح والاهتمام . وعنده أن عبد الله ابن سبأ أراد نسف العقيدة الاسلامية من اساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين هما الرجعة والوصاية فى قوله « العجب من يزعم ان عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع » وقـد قال الله تعالى (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) ومحمد أحق بالرجوع من عيسى فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت فى المجتمع . ثم قال لهم بعد ذلك : اذا كان الف نبى ولكل نبى وصى وكان على وصى محمد ومحمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الاوصياء (تاريخ الطبرى ٣ — ٣٧٨) وجمع بين افساد الميدان الدينى والسياسى فى اذاعة قوله (فمن أظلم ممن

لم يجز وصية رسول الله ، ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة ، ثم قال ان عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الامر فحركوه واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الأمر . ثم طاف الاقطار العربية قطرا قطرا وبدأ بالحجاز باثا ضلاله ثم انعطف الى الشام يومئذ فبصر بأمره معاوية الذى فطن الى خطره فأبعده الا انه على ضرره أصابه رشاش من افساد . وزعم الطبرى أن ابن السوداء لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى اتى مصر ، والصحيح أنه قدر وزرع وحرك على معاوية صحابيا جليلا اذعن عامة الشـــام لأقواله حتى اضطر معـــاوية الداهيـــة الحليم ان يطلب الى الخليفة عثمان اخراجه من الشـــام : ذلك هو أبو ذر الغفارى وحادثه معروف .

واستقر فى مصر ، بؤرة الناقمين — اذ ذاك — ، وأحكمت هذه الجماعة أمرها وأرسلت الى الامصار كتبا مزورة بما شاعوا من شكوى واستنجاد بأهل الامصار وتحريض لهم على الثورة والخلع ، وجعلوا هذه الكتب على لسان على وطلحة والزبير وعائشة . وملا ابن السوداء البلاد نقمة وفسادا وسالت جموع الثائرين على مدينة الرسول فقتل الخليفة عثمان وبعد أن ســقط الخليفة عثمان وضج الناس من هول الفاجعة بدأ حلقة أخرى : واخذ يتحفز لاحكام مؤامرة أكبر وسوق هـــذه الجماهير نحو فاجعة اكبر وكارثة لا تذكر الى جانبها كارثة عثمان فقد انضم هو ومن تابعه الى على ابن أبى طالب حين خرجت السيدة عائشة للمطالبة بدم عثمان .

وقال لهم : اذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأى وتفرقوا عليه .

(الطبرى جـ ٣ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ حديث هذه المؤامرة)

خرج مضريهم الى مضريهم وربيعيهم الى ربيعيهم ويمانيهم الى يمانيهم فوضعوا فيهم الســـلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بغتوهم وحيرتهم الصدمة ، وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ، فقالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلا ، فقالا : قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ، وأنه لن يطاوعنا ، واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم الى عسكرهم وقال على قد علمت ان طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، والتحم الناس بعضهم ببعض وبدأت المعركة ثم انحسرت عن خمسة عشر الفـــا من القتلى وما لايحصى من الجرحى وكان ممن قتل رءوس المهاجرين والانصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .
وجملة ما قام به ابن السوداء وأخلافه فى مختلف الاعصار والامصار :

(١) الدس فى الدين (٢) تفرق الكلمة (٣) الاستهانة بالتاريخ
(٤) الاستخفاف بالتقاليد والمقومات (٥) الوضـــع فى شـــأن اللغـــة

(٦) افساد الاخلاق (٧) التهوين من سلامة النظم (٨ الاشادة بكل مذهب أجنبى .

ويعلق محمد سعيد الافغانى على ذلك فيقول : ان هذه المؤامرة ترجع الى توسيد أمورنا الصغيرة والكبيرة الى الذين كانوا مطايا للاستعمار وجواسيس للاجانب وأجراء لكل دعوة هدامة .

والواقع أنه يمكن الآن الرجوع فى كل نظريات التغريب والغزو الثقافى الى أفكار عبد الله بن سبأ .

ومن هذه الادانة الشديدة لعبد الله بن سبأ يتابع طه حسين رأى اليهودية التلمودية فى انكار وجوده ، والادعاء بأنه شخصية خيالية حيث يقول انه ليس لهذا اليهودى (عبد الله بن سبأ) يد فيها وأن ليس لليهود عمل فى تأريث نارها .

راجع هذه القصة فى كتابنا (المساجلات والمعارك الادبية) .

يقول : هناك قصة أكثر الرواة (المتأخرون) من شأنها واسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدرا لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أورث هذا الاختلاف من فرقه بين المسلمين لم يمح آثارها بعد وهى قصة عبد الله بن سبأ ويقول : لست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن . ولكنى اقطع بأن خطره ، ان كان له خطر ، ليس ذا شأن ، وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليبعث بقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان .

وقد دحض دعوى الدكتور طه حسين الاستاذ محمود محمد شاكر حين قال : ان قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه ايهام شديد وتعمد ، فان الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، وأن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء فهو شيخ الطبرى والبلاذرى وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبرى انهما من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه . وأن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه ايهام شديد واجحاف جارف ، فاذا لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة التى بين أيدينا ، وان كان من حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله ابن سبأ اليهودى اللعين ان البلاذرى لم يذكره (وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) ، ثم عاد فنفى أيضا خبر الكتاب الذى فيه الامر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال ، وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره ، ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبرا ما حجة فى نفيه ثم ينفى أيضا خبرا آخر قد ذكره ولج فيه .

ثم يشير محمد محمود شاكر الى اعتماد طه حسين فى انكار عبد الله ابن سبأ على الجزء الذى طبع من كتاب البلاذرى (أنساب الأشراف) الذى

قام بطبعه رجل من طغاة الصهيونية ويقول : ليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك فى ذمة هذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية فى اورشليم . نشك ونتوقف . هذا الى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى قد يترك المؤلف منها شيئا فى مكان ثم يذكره فى مكان آخـــر ، وكان أولى أن يذكر فى المكان الاول ، أفلا يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة عمار بن ياسر أو محمد بن أبى بكر او محمد بن حذيفة او رجل ممن اشترك فى هذه الفتنة . وهو يعلم ان الذى وجد فى كتاب البلاذرى قسم ضئيل جدا طبع منه جزء فى المـــانيا ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان ١٩٣٦، ثم طبع جزء آخر ١٩٣٨ ، وقال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعربيـــة ان هناك حوادث جرت فى عهـــد يزيد بن معاوية هى واقعـــة كربلاء وموت الحسين ، افلا يجوز اذن ان يكون البلاذرى قد ادمج امر عبد الله بن سبأ فى مكان آخر كما فعل فيما لاحظه هذا اليهودى ، كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد ان ينفى شيئا لا يبالى ان يجتاز كل هذا ويغضى عنه ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نسى الدكتور أن من يروى خبرا ما ليس حجة على من روى هذا الخبر وبخاصة اذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ، بل لعل الطبرى اقوى الرجلين واعلمهما واكثرهما دراية بالتاريخ وتحقيقا له ، ان الدكتور قد اشتط وركب مركبا لا يليق بمثله حين نفى خبر عبد الله بن سبأ وخبر الكتاب الذى فيه الامر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه فى البحث العلمى .

لقد خالف الدكتور سنة العـــالم فى نفى الأنباء وتكذيبها بلا حجـــة من طريق أهل التمحيص ، بل تحكم بلا دليل يسوقه عن فضلة البلاذرى وتقـــديمه على الطبرى وبلا مراجعة للصـــورة التى طبعت عليها الكتب وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها . كما هو القول فى ابن ســـعد والبلاذرى معا .

ان الهدف هو أن ينفى عن اليهود الشركة فى دم عثمان والتحريض على قتل الامام ، فركب مركبا وعرا خالف فيه أسلوب العلماء فى جرح الاخبار وكذب الرواة فى شىء بغير برهان وصدقهم فى شىء آخر بغـــير برهان » .

وهكذا نجد أن الدعوى الشعوبية والباطنية الحديثة قد وجدت طريقها من احياء مادة الدعوات الباطنية القديمة لزلزلة العقائد وافساد المفاهيم تحت اسم احياء التراث او النقد الادبى .

* * *

(٢)

ويمثل عبد الله بن المقفع الحلقة الثانية فى ذلك المخطط الذى رسمه عبد الله ابن سبأ ، وهو اسم لمع فى العصر الحديث واهتم به دارسو الادب العربى ، اعلوا من قدره وحاولوا ان يجعلوه على راس البلاغة العربيـة متجاهلين الدور الحقيقى الذى قام به بلغاء الصحابة الذين سبقوه على الطريق ، وقد جرت احاطة اسمه بهالة من التقدير والاعجاب ليس بوصفه صاحب الأسلوب البليغ بل وبأنه الرجل الذى ترجم عديدا من ثمرات الادب الفارسى الى الأدب العربى ، ولا ريب أن ابن المقفع كان ماكرا شديد المكر ، فقد سار فى طريقه بخطوات دقيقة متتبعا خطة المؤامرة الشعوبية الكبرى وان كان أمره قد انفضح من بعد ونال جزاءه ، ولكن دعاة التغريب فى العصر الحديث استطاعوا عن طريق فصل قطاع الادب عن جسم الفكر الاسلامى وقيمه ، أن يذيعوا به كثيرا من اعمال الشعوبية الخطيرة ، ولقد كشف الباحثون عن خطره وتآمره وعرفوا موضعه فى مطالع هذه المؤامرة الشعوبية الضخمة حتى وصف بأنه أكبر أعداء الاسـلام على الاطلاق ، وقد قضى اكبر سنى حياته فى عهد الدولة الاموية ، وكان زرادشتيا فى قول لاشتهاره بالقيام بطقوس المجوس عامة ، وكان فى قول آخر مانويا أو مزدكيا . وقد قام بترجمة كتاب مزدك المعروف باسم ديستاو الى العربية لنشر العقائد المزدكية فسرعان ما تكونت فى أول العصر العباسى فرق مزدكية كثيرة ، كما انه كتب (الدرة اليتيمة) فى معارضة القرآن ، وترجم كتاب كليلة ودمنة ، وضمنه باب برزويه أخطر الابواب يعارض فيه الاديان ويثير الشبهة بعدم امكان التوصل الى اليقين ، ويعتبر العقل وحـده أعظم وسيلة وافضلها للمعرفة ، وما يزال كتاب كليلة ودمنة فى أيدى شبابنا فى مطالع دراستهم يثير هـذه الشبهات منذ قرره الدكتور طه حسين على طـلاب المدارس الثانوية ، وهو موجود فى أيدى الشباب تحت اسم البلاغة العربية مع ما فيه من سموم ، وكان ابن المقفع يرمى الى نشر الالحاد والتحلل من الاسلام بالذات قاصـدا تشكيك ضعيفى العقائد فى الدين ودعوتهم الى مذهب المانوية ، وقد اشار العلامة البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) الى مانوية ابن المقفع وقد سجل ما قاله الخليفة المهدى عن ابن المقفع حين قال : ما وجدت كتابا زندقة قط الا واصله ابن المقفع .

(ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٩ ص ١٧٨)

يقول البيرونى « وبودى لو كنت اتمكن من ترجمة كتاب (رينج تنتر) وهو المعروف عرفا بكتاب كليلة ودمنة فانه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على السنة قوم لا يؤمن تغييرهم اياه كعبد الله

ابن المقفع فى زيادته باب برزويه فيه قاصدا تشكيك ضعيفى العقيدة فى الدين وكسبهم للدعوة الى مذهب مانى ، واذا كان متهما فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل .

والمعروف ان حركة الترجمة التي قامت فى صدر الاسلام كانت تستهدف ترجمة الايجابيات من العلوم اليونانية القديمة ، ولكن المجوس الذين تولوا هذا العمل وفى مقدمتهم ابن المقفع ، حولوا الاتجاه نحو الفلسفة الالهية التى هى علم الأصنام عند اليونان ، ويعد ابن المقفع فى نظر المؤرخين هو أول من ترجم من الهيات اليونان وفلسفاتهم ، ثم تولى الترجمة بعد ذلك النصارى من النساطرة واليعاقبة (حنين اسحق وآله) ، كما ترجم ابن المقفع من الفارسية ايضا كتب أديانها القديمة ثم لم تلبث الترجمة أن انحرفت نحو الوثنيات والاباحيات من الفلسفات القديمة ، ومن أبرز من عملوا فى هذا المجال عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت وموسى بن خالد والحسن بن سهل والبلاذرى وزادويه بن هاشويه وكلهم من المجوس ، وقد قاموا بترجمة كتب المجوسية والاساطير .

ويقول الدكتور على سامى النشار فى كتابه (مقدمة مناهج البحث عند مفكرى الاسلام) : ان (روزبه) القديم (عبد الله بن المقفع) وكان اكبر ضاغن على الاسلام فى القديم قدم أول ما قدم للقضاء على نظام الاسلام الاجتماعى كتـــاب (مزدك) ثم كتـــاب (برزويه)ليثبت تناقض الاديان وبخاصة الاسلام ، وعدم يقينيتها وما يظهر فيها من تناقض بينما يؤكد يقينية الفلسفة ووصولها الى الحق المطلق ، ثم قدم أو دفع ابنه محمد بن عبد الله بن المقفع ليقدم أول ترجمة لعلم ظن انه الصورة الكبرى لليقين قانون بديهى فى نظره فى أفق فوق الخطأ فاذا أعلن المسلمون أن كتابهم المقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أشار لهم الى (باب برزويه) الذى يقرر خطأ الكتاب وتناقضه ، وان طريق الفلسفة هو طريق اليقين ، ثم يدعى كل هذا بصـــورة المنطق الارسطاليسى المتكامل البناء اليقينى فى نظـــره . لقد غرس روزبة مجوسية الفرس وأتى ثمرة منشآت مجامع الغنوصية الخطـــيرة على أثر روزبه كما تناول المنطق متفلسفة ظهروا فى الاسلام ومجدوه ورفعوه فوق كل يقين ، وحاولوا مزجه بكل علم اسلامى ولم تكن الجماعة الاسلامية غافلة عن كل هذا فسرعان ما تناولت المنطق الارسطى بالدراسة والتمحيص ممزقة اياه كل ممزق وأنشأت منهجها ، بل كان المنهج قد يكون منذ البدء مستندا على القرآن والســـنة والعودة الى قانونها .

ويقول الدكتور على سامى النشار : أن خلفاء روزبة كثيرون فى عصرنا وقد تعددت أشـــكالهم وتنوعت صورهم ولكنهم هم جميعـــا نسخ مشوهة منتنة لابن المقفع الكريه ، لقـــد فشـــل ابن المقفع من قبل وهم أيضـــا فاشلون .

وقد تصدى كثيرون لابن المقفع وكشفوا زيفه وفضحوا سمومه بالاضافة الى ما أورده البيرونى وابن خلكان فقد قام القاسم بن ابراهيم الزيدى المتوفى

عام ٢٤٦ بوضع كتاب (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) وقد أشار القاسم الى مانوية ابن المقفع .

وقد وصف دعاة التغريب ابن المقفع بأنه علم من أعلام الفكر الحر ، وأنه مصلح اجتماعى ، وهذا كله من الزيف الذى يراد به اضفاء صورة البطولة على هذا الشعوبى الخطر ، الذى تؤكد المراجع كلها على أنه بقى أمينا لعقيدته المجوسية الى زمن الدولة العباسية حيث اسلم على يد عيسى ابن على عم المنصور ، قال لعيسى بن على : قد دخل الاسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك ، قال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فاذا كان الغد فاحضر ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : اتزمزم وأنت على عزم الاسلام : قال أكره أن أبيت على غير دين ، ويروى البعض انه مر ببيت النار بعد اسلامه فتمثل بقول الاحوص :

يا دار عاتكة التى اتغـــزل   حذر العـــدا وبك الفؤاد موكل

انى لامنحـــك الصـــدود واننى   قسما اليك مع الصـــدود لأميل

وهكذا نجد أنه كان مخادعا فى اسلامه ، ويقول الجاحظ انه كان يجتمع على الشراب مع مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب وبشارد بن برد وأبان اللاحقى فيهجو بعضهم بعضـــا وكل منهم متهم فى دينه وقيل انه عارض القرآن .

وقد اتهم بالزندقة فى آخر أيامه فقتله سفيان بن معاوية والى البصرة ، وقـــد كشف الأستاذ جويدى الايطالى فى كتاب ابراهيم ابو القاسم الذى نشره وهو كتاب (الرد على اللعين عبد الله بن المقفع) كشف فى هذا الكتاب عن فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد كان يكتب باسم النور الرحمن الرحيم ، يمدح النور ويقول انه منبع الخير من حيث انه منزل على محمد ، وأشار الى ما نقله ابن المقفع من الفارسية من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون .

ولقد حاول الدفاع عن ابن المقفع فى العصر الحديث كثيرون من دعاة التغريب من امثال طه حسين وأحمد أمين وبطرس البستانى ورأيهم مردود ازاء هذه الوثائق التى لاشبهة فيها .

ولاريب ان مؤلفاته التى ترجمها تكشف وجهته : ترجم خداى نامة او سير ملوك الفرس ، وآسين نامه أو كتاب المراسيم والتقاليد وكتاب (التاج) فى سيرة أنو شروان ، كما ترجم كتاب مزدك فى الأدب ، والمثل الاخلاقية المجوسية مما لا يأتلف والمفاهيم الاسلامية ، وكتاب كليلة ودمنة الذى أضاف اليه باب (برزويه) قاصدا تشكيك ضعفاء العقائد فى الدين فضلا عما يقال من أنه ترجم كتب ارسطو المنطقية الثلاثة وكتاب ايساغوجى لفرفوريوس الصورى وكلها كتب تشكك فى العقيدة الاسلامية .

وقد اشار هلال ناجى الى أن عبد الله بن المقفع الذى سبق ان ترجم كليلة ودمنة هو الذى نقل هزار أنسانه (الف خرافة) الى العربية والتى كانت نواة كتاب الف ليلة ، ولا ريب أن مـــا قدمه عبد الله ابن المقفع فى كتاب الف ليلة ما زال قائما حتى اليوم يثير الشبهات فى النفوس حـــول وثنيات المجوسية وفساد الصـــور التى قدمها والقصص المليئة بالسموم والاباحيات .

وقد حاول البعض أن يصفه بالبطولة فى نقد نظام الحكم والملك وانه كتب نص الأمان الذى سيمنحه الخليفـــة لعمه الثائر عبـــد الله بن على فوضع ابن المقفع فى الامان الشرط الشديد التالى (فان لم يف أمير المؤمنين عما جعل له فهو برىء من الله ورسوله والأمة فى حل وسعة من خلعه) .

والباحث فى كتاباته عن نظام الحكم والملك فى الدرة البهية والأدب الكبير والصغير يجد الهدف الواضح من التآمر على نظام الحكم الاسلامى بغية هدمه واضعافه لحساب المؤامرة الباطنيـــة والقرمطية التى كانت ترسم وتدبر .

قال المقريزى انه كتب أمانا تعدى فيه ما يكتبه الخلفاء من الامانات وقد جمعت هذه الوقائع كلها لتكون فى صفحة اتهامه :

١ ــ ما قاله الخليفة المهدى فيما روى ابن خلكان أن كل كتاب زندقة يعود فى أصله الى ابن المقفع .

ــ باب برزويه الذى أضافه الى كتاب كليلة ودمنة قاصدا به تشكيك ضعفاء العقيدة فى الدين .

٣ ــ ما قاله حين مر بعد اسلامه ببيت من بيوت النـــار مبديا حنينه الى ديانته القديمة .

٤ ــ ما أورده القاسم بن ابراهيم فى كتابه المرسوم (الرد على الزنديق اللعين) عن معارضته للقرآن وقلة احترامه له .

٥ ــ ما أورده المسعودى فى مروج الذهب من أن ابن المقفع وآخرين من الملاحدة ترجموا مؤلفات مانى وابن ديصان ومرقيون . كما أن ابن المقفع ترجم كتب مزدك . ويعلق الصفدى بأن كتب الزنادقة الممنوعة تحوى كثيرا من آراء ابن المقفع .

٦ ــ ما أشارت اليه روايات عديدة وأكيدة عن اتصال ابن المقفع بخلفاء الشعوبيين والمجـــان المتهمين بالزندقة من اقبـــال البقلى (الذى انكر البعث والقيامة) وعمار بن حمزة وأبان اللاحقى وسهل بن هارون وحماد عجرد .

٧ — ارتباط اسم ابن المقفع بتهمة الزندقة عند المسعودى وابن خلكان والبيرونى والصدفى ، وقول جويدى انه كان قليل الاحترام للقرآن الذى حاول أن يعارضه .

وفى كتاب ابن المقفع للمستشرق جبريللى هذه العبارة التى تدين ابن المقفع حتى فى نظر المستشرقين رغما عنهم فقد اشار جبريللى الى أن الفقرات التى تنتقد الدين فى باب برزويه هى من وضع ابن المقفع التى حشرها دون أن يسفر بوضوح عن عقيدته الالحادية . وقال : ان القطعة كلها بما فيها من جرأة فى التفكير ومغزى تهكمى لاذع لا يمكن أن تكون قد كتبت وانتشرت باسم مؤلفها فى دوائر بلاط فارس الساسانية ودينها الرسمى هو المزدكية او فى المجتمع الاسلامى فى القرن الثامن الميلادى . ولكن من المحتمل جدا أن عقلا يسوده الشك كما كان عقل ابن المقفع قد اظهر فى هذه القطعة آراء ناسبا اياها الى شخص أجنبى . ان علينا أن نرفض أن يكون ابن المقفع وهو فى سن الرجولة والنضج قد تعلق بالمجوسية وآمن بها ايمانا عقليا ، ولو أنه من الممكن أن يكون ابن المقفع مع ذلك يميل الى دين الفرس القديم من ناحية العاطفة والحضارة » ويؤكد جبريللى عقيدة ابن المقفع المانوية وصحة نسبة (باب برزويه) فى كليلة ودمنة اليه وكذلك الكتاب الذى رد عليه القاسم بن ابراهيم ويقول : بأن ابن المقفع رد على مادة القرآن بطريقة فلسفية جدلية وببراهين عقلية أثارت الامام القاسمى ايما اثارة فحملته على الرد بنفس الاسلحة التى صنعتها المعتزلة فى تلك الفترة وتعنى مقالة ابن المقفع : خلو المعارف الدينية من اليقين وتناقض الأديان فيما بين بعضها البعض .

ويقول المستشرق كروس : ان النسخة الأصلية الفهلوية لنفس النص تتضمن اقوالا شكوكية عن الاديان جعلها ابن المقفع اساسا لما دونه من اضافات ، بالاضافة الى هذا كله فاننا نجد الاجماع على اتصال ابن المقفع بالمانوية ودفاعه عن اعداء الدولة وانتقاده سياسة الخلافة فى رسالة الصحابة ودعوته لتعليق واقتباس النمط الفارسى للحضارة .

* * *

ولا ريب أن ابن سينا من ألمع الأسماء التى حاولت حركة التغريب الشعوبية فى العصر الحديث دفعها الى افق الشهرة والتبريز فى محاولة حياء الفلسفة القديمة وتجديدها ، ونحن نشهد بأن ابن سينا الطبيب لا غبار عليه وانه رائد فى مجاله وأن الأمر لو اقتصر على هذا الجانب العلمى فى حياته لما وجد عليه من ملام ، ولكن المستشرقين والمبشرين ينفخون فى آراء ابن سينا الفلسفية ويعلون من شأنها ويضعون شخصيته فوق كل الشخصيات ويحجبون به الأعلام ذوى الاصالة من أمثال البيرونى وغيره .

بينما تثبت الوثائق أن ابن سينا كان على طريق اخـوان الصـفا والباطنية ، وأنه قد أودع كتاباته تلك الاسرار والرموز التى يعرفها أصحاب المخططات السرية لقلب الاسلام ، ولقد أعلى ابن سينا من شأن العقل علوا شابه به المعتزلة وزاد عليهم فقد دعا الى ما اسماه سلطان العقل وتقديس العقل مما هو باطنى فى النظرة الاسلامية الصحيحة . وليس هذا الذى يقوله ابن سينا الا متابعة لمناهج الهلينية اليونانية وليس له اساس اسلامى ما ، وهذا هو موضع ابهـام ابن سينا وهو فى نفس الوقت موضع تقدير الاستشراق والشعوبية له . ولم يكن ابن سينا متورطا فى اتجاهه هـذا وانما كان قاصدا اليه قصـدا يقينا لأنه كان من دعاة الباطنية وزعمائها المستورين .

ولقد كانت محاولة ابن سينا فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين الاسلام — من الأعمال التلفيقية المغرضة التى لا تصدر عن مؤمن بالاسلام — اذ كانت تستهدف اخضاع العقيدة الاسلامية القائمة على التوحيد للفلسفة اليونانية الوثنية الاباحية ، ولقد كانت تلك كبرى مقاتله ، لان هذا الاتجاه الذى سار فيه هو والفارابى انما كان الطريق الذى رسمته الباطنية ودعت اليه وأشار اليهاخوان الصفا . وقد اعتبره ألامام الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) كافرا خارجا عن الاسـلام بسبب قوله بقدم العالم وعلم الله بالكليات دون الجزئيات ونفى البعث والمعاد .

وبالرغم من ان ابن سينا حاول الدفاع عن نفسه ونفى تهمة اتصاله بالمؤامرة الباطنية فان وقائع حياته تكشفهذا الانتماء كما تؤكد المصـادر الاسماعيلية على باطنيته . فقد تأثر بفلسفة المعتزلة التى انكمشت على نفسها شرقى فارس بصـورة خاصة اثر الضربة التى تلقتها على يـد المتوكل .

ويتحدث الأستاذ ابراهيم الخال عن باطنية ابن سينا (مجلة الرسالة

العراقية : ايلول ١٩٧٢) فيشير الى انه أضاف الى الفلسفة نظرية الفيض الافلوطنية التى ورثها من الفارابى واخوان الصفا ويقول : ان فلسفة ابن سينا كانت ثمرة شـجرة غرســها مؤسس الدعوة الاسماعيلية فى أرض يونانية .

ويفصل القول فى هذا الصدد فيقول : ان الذى يظهر من سيرة ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨) أنه رجل دنيا وسياسة كما كان فيلسوفا فى عصر كانت فيه السياسة والدين وجهين متلازمين للدولة والحكم ، تولى منصب الوزارة لبعض الأمراء البويهيين .

وكان هؤلاء زيدية وتعرض للسجن والقتل غير مرة لاسباب سياسية واصبح طبيبا ونديما لعلاء الدولة الذى اتهم بالزندقة لملازمته اياه .

وكان الناس فى اصبهان ينظرون الى ابن سينا كزنديق ، لحياة اللهو التى كان يحياها ، فقد كان من أصحاب الكأس والطاس وكان ينزع فى حياته الشخصية نزعة ابيقورية مغرقة فى اللذة والحس والشهوة ، وقـد وصفه ابن خلكان فى أيام حياته الاخيرة بالافراط فى الشهوات والاكل . ولقد كان ابن سينا من اكبر أعداء السلطان محمود الغزنوى ، وكان الغزنويون أعداء الاعتزال والباطنية والفلسفة الالهية . ولو كان السلطان عثر عليه فى الرى لقتله على وجه التحقيق ، وقد هرب ابن سينا من الرى قبل وصول السلطان وكان دائم الهروب من كل أرض يمتد اليها يد الغزنويين ، وكان الغزنويون موالين للدولة العباسية ومسنودين من دار الخلافة ، وكان ابن سينا بذلك من أعداء الدولة العباسية ، ولم يكن ابن سينا من الشـيعة الاثنى عشرية اذ كان والده باطنيا اسماعيليا كما أن البيت الذى نشأ فيه كان مفتوحا للدعاة الاسماعيليين أى لرسل الفاطميين الذين يحكمون مصر ويطمحون الى حـكم الشرق الاســلامى وكان ولاء ابن ســينا للفاطميين الاسماعيليين سرا وكان ابن سينا قد وجه منذ مطالع صباه وجهة اسماعيلية باطنية صرفة عندما دفعه ابوه الى دراسة الرياضيات والفلسفة وكان ذلك بدافع عقائدى من ابيه وهى القاعدة الاساسية للعقيدة الاسماعيلية وهى الوجه الثانى الذى يقابل الوجه الروحانى لها .

فالباطنيون يعتقدون عن ايمان بأن تراث الفـكر اليونانى انما هو تراثهم الخاص ، وان الفلاســفة (سقراط ـ افلاطون ـ فيثاغورث ـ ارسطو ـ افلوطين) وهم فلاسفة اسماعيليون فعلا ، فالباطنية من احدى نواحيها فى معتقداتهم فلسفة ومدرسة فلسفية نما فيها وازدهر الفـكر اليونانى (عارف تامر ـ أربع رسائل اسماعيلية ـ دار الكشاف) انهم يفسرون الطبيعة وما يتعلق بها من حرارة ورطوبة ويبوسة ومن جهات أربع وفصول السنة ومكونات جسم الانسان ثم ما فيها من كواكب وبحار ومعادن على أساس من خواص الأعداد كالعدد ١٢/٧/٤ طبقا لمـا جاء فى نظريات اخوان الصفا المستوحاة من الفلسفة الفيثاغورثية فى الرياضة والحساب ـ تاريخ الدعوة الاسلامية) .

وتؤكد هذه المراجع الباطنية ان رسائل اخوان الصفا قد وضعت من

قبل علماء اسماعيليين بأمر من الامام الاسماعيلي (احمد الوفى) الذى كان مستترا أيام المأمون وانهم لا يذكرون أسماء مؤلفيها .

أما بخصوص ما وراء الطبيعة (الالهيات) فانهم يعتمدون نظرية الفيض التى ورثها ابن سينا عن الفارابى وعن اخوان الصفا ونظرية الفيض تعود بالأصل الى افلوطين ومدرسة الاسكندرية ، وخلاصتها عن ابن سينا أن الله عقل محض وأنه يعقل ذاته ودائم التأمل فيها وحيث أن التعقل هو علة الوجود فقد فاض عن الله بالضرورة موجود واحد هو العقل الأول وعنه فاض ثان له خواص خاصة حتى العقل العاشر وهو العقل الفعال الذى فاض عنه عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه .

وهذه العقول المفارقة للمادة كانت عند الفلاسفة اليونان اكثر من خمسين عقلا ولكن الفارابي ثم ابن سينا أوقف الفيض عند العقل العاشر ليتفق ذلك مع مراتب الدعوة والدين لدى الفاطميين .

وهم يرون أن العقل الأول هو رتبة التنزيل (الناطق) .

والثانى : رتبة التأويل (الاساسى) .

والثالث : رتبة الأول (الامام) .

والرابع : رتبة فصل الخطاب (الباب) .

والخامس : رتبة الحكمة (الحجة) .

(راجع مؤلف تاريخ الدعوة الاسلامية) فقد ذكر المؤلف أسماء الدعاة : ابن حوشب ، الكرمانى ، ناصر خسرو ، ابن سينا ، الفارابى ، اخوان الصفا ، الرازى ، السجستانى ، والذى يظهر من ذلك أن ابن سينا لم يكن باطنيا عاديا وحسب وانما كان داعيا من اقطاب دعاة الباطنية .

فابن سينا عندما تفلسف اذن كان يخضع الفلسفة لمفاهيم العقيدة الباطنية الاسماعيلية حيث انه كان يقابل نتائج بحوثه الفلسفية مع مراتب الدعوة التي كانت موجودة ومقررة قبل الفارابى ومنذ أيام اخوان الصفا فى عصر المأمون على أقل تقدير .

ونظرية الفيض الأفلوطينية هذه هى اخطر النظريات الميتافيزيقية التى تحتويها العقيدة الباطنية لكونها تتعلق بالامام الباطنى المعصوم الذى كان يصل بمنزلته لدى القائمين على العقيدة احيانا الى درجة ينبوع المبدعات أو مبدع الذات أى العقل المحض ودرجة الربوبية .

وفى كتاب اسماعيلى محفوظ بعنوان كتاب المحصول : ان الامام الهى الذات ، سرمدى الحياة ، غاية الغايات ، ومبدع الذات ومخترع الصفات وهو مبدع الابداع .

وقولهم : اذا ظهر الامام بصورة الجسم مكان اسم من أسماء الله وصفة من صفاته .

واذا تحدث العلنا كان هو الله فى الحقيقة :

أما (نظرية الفيض) فهى عماد نظرية العقيدة الباطنية .

ومن هنا كان ابن سينا باطنيا بل داعية باطنيا كبيرا على وجه التأكيد .

ويرى ابن سينا أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات وانه اذا علم الجزئيات فانه يعلمها بمعانيها وليس بأعيانها وشخوصها وهـذا يخالف مفهوم السنة ويعارضه تماما .

والرجل باطنى النشأة والتربية توجه فى دراسته الأولى وجهة باطنية ولم يكن مخلصا للبويهيين ومن أعداء الغزنويين والدولة العباسية التى ناصبها الفاطميون الباطنيون العداء . انه يتفق فى فلسفته كل الاتفاق مع العقيدة الباطنية فى وجهيها الميتافيزيقية والروحانى ، وهو اضافة الى المصادر الباطنية الموثوقة التى تؤكد كونه من كبار دعاة الباطنية .

ولا ريب أن هـذه المادة التى استخلصها الأستاذ ابراهيم الخال من كتب الباطنية والتى اعتمد فيها على كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية للدكتور محمد كامل حسين ، هذه المادة كافية لتوضيح موقف ابن سينا وعدائه للفكر الاسلامى القرآنى وايمانه بغير ما يؤمن به المسلمون ، ولا ريب أن هذه الفلسفات التى تتعلق بالعقول العشرة وهى من الفكر الأفلوطينى الفاسد ما تزال تدرس فى جامعاتنا ومدارسنا على أنها نظريات فلسفية بينما هى سموم معارضة لمفهوم التوحيد ومناقضة للاسلام الصحيح .

ويجب أن تحاط فى دراستها بالخلفية التى تكشف تطورها التاريخى ومحاولة مؤامرة الباطنية الكبرى لوضعها واستغلالها لافساد العقلية الاسلامية والتأثير عليها وقد تجدد هـذا الفكر الوثنى المضلل فى العصر الحديث بواسطة الاستشراق والتبشير ودعاة التغريب دون أن يتنبه احد الى أخطاره ومحاذيره .

* * *

وتتركز فلسفة ابن سينا الخاصة حول مسائل ثلاث :

مسألة الفيض ، والنفس الانسانية ، ونظرية المعرفة الاشراقية وما تتضمنه من نظريات خاصة الى النبوة والمعجزات والتصوف .

أولا : نظرية الفيض : لم يكن هو الذى ابتكرها وانما سبقه اليها ابو نصر الفارابى ، ولكن ابن سينا وضحها ودعمها بحيث ينظر اليه أحيانا على أنه هو الذى ابتدعها وهى محاولة لتفسير صدور العالم وتعتمد على أساس من التوفيق من عناصر أفلاطونية وارسطوطالسية واسلامية وبها مسحة من التصوف ، فعن أرسطو أخذ كل من الفارابى وابن سينا ان الله (جل وعلا عما يقولون علوا كبيرا) عقل محض يدرك نفسه ، وعن أفلوطين فكرة مراتب الوجود ، وعن المتكلمين التفرقة بين الواجب والممكن ، وعن الصوفية فكرة الاتصال بالعقل الدائم وبالذات الالهية . ويرى الغزالى أن ابن سينا استخدم نظرية الفيض لتقرير قدم العالم ، ويرى ابن رشد أن نظرية الفيض عند الفارابى ثم عند ابن سينا دخيلة على الفلسفة الحقة ويتهم كليهما بالكذب ويصف الفارابى وابن سينا بأنهما أول من قال هذه الخرافات فقلدهما الناس وهذه كلها خرافات وأقاويل أضعف من أقاويل المتكلمين .

ثانيا : فى موضوع النفس الانسانية استرشد ابن سينا بآراء الفارابى فى النفس مع ادخال كثير من التعديل والتفصيل عليها وتكشف قصيدة النفس لابن سينا عن تأثره الكبير بآراء أفلاطون .

ثالثا : اما فى الفلسفة الاشراقية الخاصة بآرائه فى النبوة والوحى والمعجزات والنصوص فانه يربط نظرية الفيض بنظرية مادية هى وحدة الوجود التى تقول بأن الله يتجلى وانه يتحد بكل مخلوق من مخلوقاته (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) ويرى أن كرامات العارفين كمعجزات الرسل ، وان العارف متى وصل ذهل ، ومن هنا لا يكلف والتكليف لمن يعقل التكليف .

وهذا القول باطل ومعارض لمفهوم الاسلام الأصيل الذى لا يقر سقوط التكليف عن أى واحد من المسلمين ولا عن النبى .

ويقترب ابن سينا فى هذا من أسلوب الباطنية وان ألبسه ثوبا صوفيا براقا ، ومن أخطر آرائه التسوية بين المعجزات والكرامات والسحر التى يستشهد عليها بتجارب الكهان من الوثنيين ، وهو مادى فى نظرته حيث يرجع المعجزات والسحر والكرامات الى تأثير القوى النفسية للاجرام السماوية .

ويكشف ابن سينا فى ختام كتابه (الاشارات والتنبيهات) عن هويته التى أخفاها كثيرا عن الناس فى أبحاثه وبدا وكأنه العالم المتخصص ، فهو يسجل فى الوصية التى يوصى بها أتباعه روحا باطنية واضحة ، ويقدم منهجا باطنيا صريحا شبيها بمنهج اخوان الصفا والفلسفة الاسماعيلية ، ويوصى اتباعه بأن لا يذيعوا أسرار الحكمة الشرقية الا لمن يثقون بنقاء سريرتهم واستقامة سيرتهم ، وطلب من خلصائه أن يقرأوا فى حلقة مغلقة ، وأن يدرسوا الحالة النفسية لمن يريدون ضمهم الى مذهبهم مع أخذ العهد

على المريدين أن يسلكوا مسلكهم مع الذين سيوكل اليهم فيما بعد مهمة جذبهم الى هذا المذهب السرى الباطن وهذه الوصايا تشبه وصايا الباطنية .

* * *

وقد تحدث الدكتور محمود قاسم عن ابن سينا وكشف القناع عن حقيقته فقال انه حرص على تأويل النصوص الدينية تأويلا باطنيا حتى يجعلها على وفاق مع فلسفة الخاصة وهى فلسفة اشراقية فى المقام الأول ، وهى تلك الفلسفة التى انتقلت الى أوربا وأشار الى حياته الخاصة فقال انه خصص أمسياته للسمر والشراب والسماع وطلب المتعة ، وكان مسرفا على نفسه فلم يعن بعلاج المرض الذى أصابه ولم يتحفظ فى شرابه وطعامه ولم يقتصد فى متعته فاشتد عليه المرض ومات فى السابعة والخمسين ، وقال ان نظريته فى الفيض مأخوذة مما أورده بطليموس عن العقول كما تأثر فى قصيدة النفس بآراء أفلاطون .

* * *

(٤)

ولا يخلو الأمر من توجيه نفس الاتهام الى الفارابى فقد كان باطنيا عميق الباطنية وآية ذلك أنه فسر النبوة على أساس تعاليم الشيعة الامامية ، ويعد الفارابى أول من أقام نظرية صوفية فلسفية فى الفكر الاسلامى ، وصوفية الفارابى لا تقوم على مجاهدة النفس أو البعد عن اللذائذ لترفيه النفس بل هو تصوف نظرى يعتمد على الدراسة والتأمل ، وطهارة النفس فى رأيه لا تصدر عن طريق الجسم والأعمال البدنية ، بل عن طريق العقل ، والسعادة عنده أن تصير نفس الانسان من الكمال فى الوجود بحيث لا تحتاج فى قوامها الى مادة وهذه المفاهيم جميعا من مفاهيم الفلسفة الهلينية وليست من مفاهيم الاسلام .

* * *

(٥)

ولقد اثمرت دعوة الباطنية نماذج خطيرة من الدعاة من أمثال ابن الراوندى الذى هو ثمرة أكيدة للفلسفة اليونانية ، وقد ادعى ابن الراوندى أنه لا يقبل من الأفكار الا ما يخضع لمنطق العقل البشرى ، وعنده أن رسائل الأنبياء لا تحتاج الى وحى من السماء لان كل ما قال به الأنبياء لا يشق على العقل ولا يمكن أن تستغنى البشرية عن دعوتهم لأن ما يطالبون به الناس من عبادات وشعائر لا يستسيغها العقل ولا يوجد مبرر منطقى يلزم بأدائها ، وأن معجزات الرسل لا يصدقها العقل ، ويحتمل أن رواتها تواطئوا على الكذب وأن آيات القرآن ليست خارقة للعادة ويصح أن يتفوق فرد بمهارة أدبية على ناطقى اللغة العربية .

هذه السموم والأضاليل التى أوردها ابن الراوندى هى التى حفزت دعاة التغريب على بعثه فى هذا العصر الحديث وتجديده واعادة الحديث عنه حتى توضع هذه الشبهات تحت أنظار الشباب المسلم فتجرى على ألسنتهم وتكون موضع حديثهم ظانين أنهم بذلك سيفسدون حركة اليقظة التى يمر بها الاسلام اليوم ، ومن هنا عنى بابن الراوندى كثير من الباحثين وفى مقدمتهم عبد الرحمن بدوى الذى اذاع هذه الآراء ، وحسنها . والواقع أن هذه الآراء فى جملتها ليست الا شبهات باطلة يستطيع كل مغرض أن يجمعها وأن يذيعها ولكنها لا تخدع أحدا وخاصة من يدرس حياة ابن الراوندى ويعرف انه رجل فارسى الأصل من أصل يهودى كان أبوه يهوديا ثم أسلم وما زال هو متصلا بالمجوسية الفارسية ، وله ارتباط بالمؤامرة الباطنية . وقد عرف بالنفاق وباع قلمه لكل الفرق والمذاهب والأديان . فقد ألف لليهود وللرافضة وأجرا كتبه (الزمردة) الذى يحاول به

ان يقول ببطلان رسالة الانبياء ، وقد وضع أبو الحسن الخياط كتابا فى الرد عليه وكشف زيفه واثبت الحاده ولقد اتصل ابن الراوندى ثمة بالمعتزلة ونعلم منهم الجدل المنطقى المضلل وعرف كيف يستغله فى اثارة الشكوك حول الإسلام .

قال الحافظ ابن الجوزى : زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندى وأبو حيان وأبو العلاء ، وروى أن بعض اليهود كان يقول لبعض المسلمين بشأن ابن الراوندى « ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا » فقد انشق أبوه الأمر ما عن أهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة ، كما كان ابنه يفعل فيما بعد ، فاذا لم يتم له ما أراد انقلب مسيحيا نكاية فى بنى دينه اليهود .

قال البلخى انه كان فى أول أمره حسن السيرة حميد المذهب ، ثم انسلخ عن الدين وأظهر الالحاد والزندقة وطردته المعتزلة لوضع الكتب الكثيرة فى مخالفة الاسلام .

وكان ابن الراوندى ملحدا فى شبابه ولكنه كان أعرف باعجاز القرآن وسحره من أكثر المؤمنين ، وقد وضع كتابا لليهود يرد فيه على المسلمين ثم رام نقضه بنفسه فنقضه ووضع كتاب (الامامة) للرافضة لقاء ثلاثين دينارا ووضع كتبا غيره فى التوحيد وأصله . عارض نظم القرآن بنظم من وضعه ، وضع للرافضة ضد السنة وللسنة ضد الآخرين . قال عنه أبو العباس : أن ابن الراوندى كان لا يستقر على مذهب ولا يثبت على حال حتى أنه صنف لليهود كتاب (البصيرة) الأربعمائة درهم أخذها فيما بلغنى من يهود سامرا فلما قبض المال رام نقضه حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض .

وقيل كانت طريقة ابن الراوندى فى حياته المذهبية التلاعب بالفرق والملل وبأهل كل منهما يمدح اليوم مذهبا ويحتقر آخر ، ومما الف كتاب يطعن فيه فى نظم القرآن نقضه عليه الخياط وأبو على الجبائى وسهل بن نوبخت ونقضه على نفسه ، وكان صديقا لابن عيسى الوراق وأبى حفص الحداد وغيرهما من مشهورى ملاحدة ذلك الزمن الذين تستروا بالرفض ومن كتبه : كتاب (التاج) يحتج فيه على قدم العالم ، وكتاب (الزمردة) يحتج فيه على الرسل ويبرهن على ابطال الرسالة ، وكتاب (الفرند) فى الطعن على النبى ، وكتاب (اللؤلؤة) فى تناهى الحركات ، وقد أعيد منذ قريب طبع كتاب (الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد فيما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم) بقلم الحسين بن الخياط بتعليق الدكتور ينبرج بجامعة ابسالة بالسويد صدر عام ١٩٢٥ .

ويمثل ابن الراوندى قمة موجة الالحاد التى أثارتها الدعوة الباطنية فى محاولة انكار الأديان كلها ويقصد بها الاسلام .

وقد كتب عنه كثيرون منهم سليم خياطة (المقتطف عام ١٩٣١)

وعنه نقلنا بعض هذه النصوص ، وقد أشار هذا الكاتب المسيحى الى تلك الظاهرة التى عرفها الاسلام ولم نعرفها الأديان ولا الامم : تلك هى حرية الرأى والسماح لكل صاحب نحلة بأن يتكلم بها دون مصادرة ، فى اعتقاد بأن الفكرة الفاسدة لا بد أن تسقط مهما حشدت لها الجهود ، نقول وان ما نحشده حركات التغريب من تجديد هذه الآراء سوف يلقى نفس المصير : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » ويقول سليم : لا نود أن نختم هذه النظرة العجلى من غير أن نبدي اعجابنا بهذه المدنية الاسلامية السمحة التى كانت تأذن لأمثال صاحبنا ابن الراوندى بهذا الاجتراء على عقائدها ، وبهذا التهجم والتنقص من تفكيرها ودينها وهى ساكنة هادئة تؤلف الكتب ردا عليه ودحضا لما انهال به عليها من حامى اللطمات ، وان تاريخ المدنيات القديمة لا يروى لنا سيرة أى جرىء متهور بلغ تهوره الى الحد الذى بلغ بصاحبنا .

* * *

ويأتى محمد بن زكريا الرازى : كواحد من أتباع هـذا التيار فقد انحرف هـذا الكيمائى الطبيب وراء ابن الراوندى ووجه نفس انتقاداته الى الأديان فقط دون العلوم ، وأنكر النبوة وقال ان النـاس يتساوون فى المواهب والاستعدادات ، وأنه لا حق لأحد أن يزعم أنه يمتاز على بقية البشر بميزة عقليـة أو خاصية روحيـة مثل النبـوة ، وأن المعجزات ما هى الا أساطير خرافية قصد بها تغرير العامة ، وان تعاليم الكتب المقدسة يعارض بعضها بعضا فقامت الحروب بينها وأن لو اعتمد الناس على العقل الانسانى فى تصريف شئونهم ما اختلف اثنان فى أمور حياتهما ، ولو اهتدوا بالفلسفة والعلوم ما احتاجوا الى عقائد الدين وتعاليم الأنبياء ، وهكذا لم يجد الرازى من ضروب الثقافة ما يستحق اخضاعه لمنطق العقل الا الدين ، ولم يلتفت الى أن العلوم التى اشتغل بهـا من كيمياء وطب لا تخلو من عناصر تتعارض مع أبسط قواعد العقل . فقد كانت الفلسفة اليونانية قد مهدت طريقها الى العقول وجعلت الأقيسة المنطقية منهجـا للوصول الى الحقائق فزودت هذا الفكر الشـاك بطرق عقيمة تدعم شكه وتؤكده . وكانت هذه التطورات مجتمعة مقدمة لظهور آراء ابن الراوندى والرازى . فادعى ابن الراوندى أنه لا يقبل من الأفكار الا ما يخضع لمنطق العقـل البشرى .

وجاءت هذه المقولة المبطلة خادعة لبعض السطاء الذين جروا وراء هذا البريق وجهلوا أن وحى السماء ورسالات الأنبياء لا تخضع لهـذه المقايسات العقيمة ، وأن العقل وحده قاصر وعاجز عن فهم كل الأمور وأن له مجاله الخاص الذى يعمل فيه ولا يستطيع أن يتجاوزه .

وقد مزج الرازى بين علم الكلام والفلسفة كما تكلم فى مختلف دراسات المنطق والجدل والأدب والبلاغة والنحو والفقه والاصول والتفسير والتاريخ والطبيعة والطب والفراسـة والسحر وله كتب ثابتة وكتب منحولة وكتب مشكوك فيها .

وقد تعرف الباحثون فى آثاره على أمر خطير ، وهو أن أقواله كثيرا ما تختلف من كتاب الى آخر خلافا يجعل بعضها فى أقصى اليمين وبعضها فى أقصى الشمـال ، بل ان له آراء متعارضة يضمها كتاب واحد .

وقد أشار الكثيرون الى أن الرازى رجل مشكوك فيه وليس موضع الثقة العلمية وأنه يمثل الثقافة الاغريقية وأعمال فلاسفتها ، هذا وقد أعلن براءته من هذه الآراء عند موته .

(٧)

ويتصل بهذا شعراء مجان امثال بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وأبو نواس وغيرهم من الشكاك الاباحيين ، وقد تصدى واصل بن عطاء للرد على بشار بن برد وتابع رسالته فى الرد على الزنادقة وتفنيد سائر أعمالهم سواء من دعاة المانوية أو المجوسية ، وله كتاب فى الرد على المانوية اشتمل على اكثر من ثمانين شبهة لهم والرد عليها — قال عمرو بن عبيد ليس أحد بأعلم بكلام الباطنية ومارقة الخوارج وبكلام الزنادقة والدهرية وسائر المخالفين من واصل ، وقد اشترك تلاميذ واصل فى الرد على رؤساء الزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس ، وأرسل واصل الوفود الى مختلف الأنحاء لتنفيذ أقوالهم ، كما ظهر الهذيل بن العلاف الذى تعمق أساليبهم الملتوية وخدعهم العديدة ، وكان بشار بن برد يذهب مذهب عمر بن ابى ربيعة فى الغزل المشهر ومذهب الخطيئة فى الهجاء الفاحش . وقد واجهه المهدى فقال له : انحض الناس على الفجور وتقذف المحصنات ؟. وكان يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ، وهو ممن صوب رأى ابليس فى تقديم النار على الطين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة ، وابليس فى رأيه خير من آدم وقد سخر بشار بالأذان وانكر البعث والحساب وفضل شعره على القرآن وكان اباحى النزعة يقال أن له مجلسا يدعى البردان وكانت النساء تحضره ، قال واصل بن عطاء أن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعمى ، وكان متعصبا للفرس مدخولا بالمجوسية يكره العرب ويشتمهم شتما مقذعا ، وقد ضرب بالسياط حتى مات والقى فى البطيحة لافحاشه فى الهجاء والغزل القبيح .

ومع وضوح هذه الحقائق لكل من يدرس حياة بشار بن برد فاننا نجد كتابا يعنون به فى العصر الحديث ويكتبون عنه دراسات أدبية واسعة حافلة بالاعجاب به وتقديره مثل ما كتب عبد الرحمن صدقى وابراهيم عبد القادر المازنى وكذلك ظفر ابو نواس وهو أشد اباحية من بشار وأشد عنفا على الاسلام والعرب بمثل ذلك من أمثال العقاد وعبد الرحمن صدقى وغيره ، بل لقد أصدرت مجلة الهلال عددا خاصا عنه استكتبت فيه عددا كبيرا من أعلام الأدب العربى المعاصر مع الاسف دون أن يلتفت أحد الى مدى الخطر الكامن وراء هذا الاهتمام البالغ ، والمعروف أن ابو نواس شغل نفسه بوصف الخمر والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم وله هدف عميق أبعد من هذا الهدف ، هو خدمة مخططات المؤامرة الباطنية التى كانت تستهدف ازالة الدولة الاسلامية ، وكان أبو نواس ذكيا واسع الحيلة يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة . وقد عده المؤرخون والباحثون من كبار الثنوية وبث فى تضاعيف شعره تأثره بالمانوية والمزدكية ، وقد كان داعية عصره الى التحرر من القيود والتمتع باللذات ، وكان يقول انه لا يؤمن الا بما يقع عليه الحس وينكر البعث ، ومن مبادىء المانوية

اثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة جميع الأديان ، وكان الغزل بالمذكر الذى أوغل فيه أبو نواس جزءا أساسيا من المانوية .

كما ذكر ذلك البيرونى : يقول حمزة الأصبهانى جامع ديوان أبى نواس ، أن أبا نواس هو الذى ابتدع غزل الذكر وهو الذى ادخل الى الأدب العربى افتتاح القصائد بالخمر بدلا مما كانت تفتتح به من البكاء على الأطلال والدمن .

وفى شعره مظاهر واضحة من المانوية والمزدكية من حيث اثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة الدين والاباحية المطلقة والغزل بالمذكر ، فضلا عن تعصبه للفرس واحتقاره للعرب ، وقد تناولنا أبو نواس وبشار بتفصيل أوسع فى مكانهما فى كتابنا (خصائص الأدب العربى) .

* * *

الباب الخامس

الجماعات الهدامة

الفصـــــل الأول

مـــؤامـــرة القـــرامطـــة

تجيء الجماعات الهدامة ثمرة اكيدة للمؤامرة الخطيرة التى رسمتها القوى المضادة للاســلام ودولته ، وأثرا طبيعيــا لذلك الركام الضخم الذى طرح فى أفق الفكر الاسلامى عن طريق المعتزلة والفلاسفة والتصوف الفلسفى والفكر الباطنى ، وقد تعددت هــذه الجماعات وتنوعت ولكنها كانت جميعها تهدف الى غاية واحدة هى اقتلاع هــذا الكيان الاسلامى أو تمزيقه أو احتوائه أو صهره فى أتون الفــكر البشرى الوثنى المادى ، أو تدمير مقوماته وقيمه واخراجه عن أصالته ، وقد تمثلت عمليات الهدم فى حركات القرامطة والزنج والراوندية والخرسانية والبابكية وحركة المازيارد والأفشين وكلها حركات حاولت أن تشكل وجودها خارج الرقعة العربية مستهدفة اسقاط الدولة وتدميرها بوصفها الاطار الحافظ للدعوة الاسلامية ، وأن فى اسقاطها اسقاطا للاسلام نفسه ، وقد كانت حركة الزنج مقدمة لمؤامرة القرامطة ومدخلا اليها فلم تكن حركة الزنج الا نتيجة تحريض خارجى حاول أن يلتمس مدخلا له فى جماعة ساءت ظروف حياتها الاجتماعية ، وقد ادعى صاحب الزنج أنه من الخوارج وأن له نسبا علويا ، وبالرغم من الصورة الخادعة المزورة التى حاولت بعض المصادر أن تصور بهــا هذه الحركة بأنها تستهدف المطالبة بالعدل الاجتماعى الاسلامى ، فان تصرف صاحب الزنج وجماعته يكشف بوضوح عن أنها مؤامرة تستهدف زعزعة الوجود الاسلامى ، ولو كانت حركة اسلامية أصيلة لالتمس القائمون عليها منهجا اسلاميا غير هذه الصورة البشعة التى كانت قتلا وتدميرا وافسادا فى الأرض دون أن يبدو من روائها المتجهم أى صورة من صــور العدالة الاسلامية ، وغاية ما يغال فيها أنها لم تسفر عن نتائج حاسمة غير قتل المسلمين والابادة ، كما يقول فيصل السامر فى كتابه ثورة الزنج ، الذى يرى أن ثورة الزنج لم تكن خروجا على الدولة والنظام القائم بل كانت خروجا على الدين ولذلك تطوع آلاف النــاس لحــرب الزنج من العراق وفارس والبحرين ، فسرعان ما فقد الزنج كثيرا من قوتهم نتيجة معاونة أهالى جنوب العراق فضلا عن مقاومة الدولة ، كذلك فان الأضرار التى تمت على أيدى قادة حركة الزنج والتى تعرض لها أهل المدن زادت من ضراوة مقاومتهم لهذه الحركة وزاد من عداء الأهلين لها .

ولا ريب أن دراسة حركة الزنج فى ضوء التفسير الاسلامى للتاريخ تكشف عن الحقائق الآتية :

اولا : انها حركة متآمرة تحت تأثير هدف خارجى وليست صادرة عن مشاعر حقيقية .

ثانيا : اظهرت الحركة بعد القائمين بها عن المنهج الاسلامى ، وانهم انما كانوا يصدرون عن حقد وتآمر ، اذ قاموا بفظائع ومنكرات لا يقدرها الا من تصفح كتابة الطبرى عنها .

ثالثا : دمر أصحاب حركة الزنج كثيرا من المدن الهامة منها البصرة والأبلة ، ولو كانوا دعاة اصلاح لما هدموا المدن ولاعلنوا منهجهم القائم على العدالة الاسلامية وهو مالم يحدث مطلقا .

رابعا : خلت هذه الحركة من برنامج اجتماعى فى نطاق الاسلام فقد عجزت عن أن تكون حركة عدل اجتماعى فى نطاق الاسلام ، اذ حرص العبيد الذين حرروا أنفسهم على اذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم .

خامسا : اقاموا سوق رقيق للحرائر من نساء العرب وكان ثمن الرقيق يرتفع ارتفاعا ملحوظا اذا كانت اولئك النسوة من اسرى بنى هاشم بصفة خاصة وهذا يكشف هوية الحركة وغايتها .

ومن هنا أيضا نعرف كيف فشلت هذه الحركة فان فشلها نتج عن كثرة فظائعها وخلوها من منهج شامل فى طريق أصيل ، ولقد تفرغ الموفق شقيق الخليفة المعتمد لمكافحة ثورة الزنج فأنزل بهم الضربة وراء الضربة حتى حاصرهم فى عاصمتهم المختارة وقطع عنهم الصلة وسقطت عاصمتهم ٢٧٠ هـ ، وقتل رئيسهم .

ولاريب ان هذه الخطوط العامة كافية فى كشف زيف ماجرت محاولات دعاة التغريب وكتاب الماركسية وغيرها فى العصر الحديث من وصف هذه الحركة بأنها دعوة عدالة وحرية . ومن عجب أن الدكتور طه حسين كان من أوائل من تحدث عن هذه الحركة ووصفها بالعدل الاجتماعى جريا وراء مخطط الاستشراق والتبشير الذى حاول أن يفسد معالم التاريخ الاسلامى لخدمة مؤامرة جديدة .

***

ثم جاءت حركة القرامطة امتدادا لحركة الزنج . كانت حركة الزنج فى الساحة الممتدة بين البصرة وواسط ، وكان القرامطة ينشرون دعوتهم بين سكان جنوبى العراق من العرب والنبط ، وقد بدأت بالتقاء عبد الله بن ميمون القداح مؤسس الحركة الباطنية مع حمدان قرمط الذى قاد الحركة التى سميت باسمه ، وكان عبد الله ميمون القداح : قال لابنائه ان الأئمة والاديان والاخلاق ليست الا ضلالا وسخرية ، وان باقى البشر ليسو اهلا

لفهم هذه المبادىء ، وكان الباطنية تنشر دعوتها باسم التشيع لآل البيت ثم اصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها ، فقد قامت باغتيال كثير من رجال الدولة الاســـلامية وفى مقدمتهم نظـــام الملك الطوسى ابرز وزراء الدولة العباسية فى ذلك الوقت . وفخر الملك . وقد بحث القداح عن انصاره بين الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية .

يقول بلاشير : أن القرامطة استطاعوا أن يتغلغلوا فى صفوف العامة ويجدوا لهم أنصارا يعتنقون نحلتهم ويتحمسون لمبادئهم ، وكانوا يلبسون حركتهم السياسية ثوبا روحيا يعظم أمرهم ، وقد أسسوا امارة مستقلة فى بلاد البحرين ، وكان الوزير نظام الملك قد قهر هذه الحركة ثقافيا وليس عسكريا وسياسيا فقط ، فقد جابه نشاطهم بنشاط مماثل فأنشأ مراكز ثقافية تقف أمام ذلك النشاط ومعاهد علمية تخرج رجالا يستطيعون الوقوف أمام الدعوات الباطنية ، وكانت تلك المعاهد تحمل اسم المدرسة النظامية فى بغداد وقد استطاعت المدرسة النظامية ان تقف أمام الدعوات التى كان يشنها أعداء السنة على أهلها .

وقد كشف القرامطة عن انهم ليسوا بتجربة اسلامية اصيلة وانهم كانوا يكرهون الاسلام ويحقدون عليه . ودليل ذلك استهانتهم بالمقدسات الاسلامية وكرامة البيت الحرام فقـــد أغاروا على مكة ونهبوا الحجيج عام ١٣٨ هـ وقتلوهم وقلعوا باب البيت . وسرقوا الحجر الأسود .

ولعل هذا الحادث وحده يكفى لان يزيف ما يقول به دعاة التغريب والمستشرقين والماركسيين من أمثال جارودى وغيره من أن هذه الحركة تجربة اسلامية صحيحة .

وقد حاول جارودى أن يصف القرامطة بأنهم دعاة عدل اجتماعي ، وكشف زيف هذه النظرية الدكتور محمود قاسم وأبان أن عمل القرامطة لم لم يكن سعيا الى تحقيق كرامة الانسان بل كانت حركة انفصالية تمت فى عصر تحلل الدولة العباسية الى دويلات متصارعة .

وكان هذا التحلل دخيلا على روح الاسلام ، يقول الدكتور قاسم : كانت حركة القرامطة استمرارا لثورة الزنج التى قامت قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى : تلك الثورة التى نشأت لتحرير العبيد لكنها لم تكن حركة عدل اجتماعى بل كانت نوعا من الأخذ بالثأر فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم أن يعملوا على اذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم . أما حركة القرامطة التى قامت فى الشمال الغربى لبـــلاد العراق ثم اتخذت مراكز لها فى منطقة الكوفة وفى بعض بلاد الشام وفى سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج الفارسى ثم اســـتقرت آخر الأمر فى البحرين .

نقول أن هذه الحركة التى توصف بأنها اجماعية كانت على صلة وثيقة بالحركة الاسماعيلية فى دور الســـتر ، وان اختلفت معها فى دور

الظهور . فان الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم فى الغرب أن يستقلوا بتوجيه السياسة فى ذلك العصر باسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية فى المغرب العربى .

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الحلاج المتصوف المشهور كان من اكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية اذ كان على صلة بالقرامطة .

ويقول الدكتور قاسم : يكفى أن الأستاذ جارودى نفسه يعترف ضمنا بأن حركة القرامطة حركة طائفية . اقر القرامطة شيوع المـال فى مجتمعهم الثائر وحققوا المساواة بينهم على حد ما يقوله جارودى (فان كل شخص يعمل بأكثر قدر ممكن من الجهد والمنافسة حتى يحصل على مركز ممتاز بما يقدمه من خدمات للطائفة) .

يلاحظ أن صاحب هذه الحركة كان من الموالى وانه نشر مبادئه فى طائفة العمال والصناع والعبيد والفلاحين والاجراء من الموالى ثم انضم اليهم عدد من العرب ، وقد قامت الحركة فى مكان قريب من المكان الذى قامت فيه ثورة الزنج ووجدت مكانا خصبا فى الكوفة وتظاهر أصحاب هذه الحركة بالتشيع والميل الى البيت العلوى وان كانوا يسلكون من الناحية العملية مسلكا آخر اذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه .

وقد كان هذا المجتمع « الاشتراكى » مجتمعا طبقيا فبقدر ما يقـدم العضو المنتمى اليه من المال كانت ترتفع طبقته . كانت هناك شيوعية فى المـال ولكن طبقة العبيد التى تتكون من الأسرى لم تكن تعامل على قدم المساواة مع الآخرين .

يتساءل : كيف هاجم طائفة القرامطة موسم الحج وقتلوا نحوا من ثلاثين الفا من الحجاج وانتزعوا الحجر الاسود من الكعبة صرفا للناس عن الحج ، كل هذه الوقائع تؤكد وجود صلة بين هذه الطائفة وامثالها وبين الحلاج الذى كان معاصرا لحركة القرامطة : ومن الطريف أن الحلاج قـد ادين وقتل بتهمة صرف الناس عن الحج . وقد ورد فى تاريخه انه كان يستعيض عن الحج بكعبة مصغرة فى بيته يطوف بها أتباعه طوافا يغنيهم عن الذهاب الى مكة .

كذلك اشار الدكتور قاسم الى الصلات الخفية والظاهرة بين الباطنية وبين الصليبيين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وهى تكشـف بوضوح عن ظاهرة فكرية عميقة بدأت فى القرن التاسع الميلادى وانتقلت الى أوربا فى القرن الثالث عشر . فقد انتقلت أفكار القرامطة والباطنية مع الصليبيين الى أوربا وأدت الى ظهور الماسونية . وهذا يفسر لنا فكرة محاربة الأديان عن طريق ضرب بعضها ببعض عند الماسونية وعند من ارتبط بهم من الداعين الى الثورة الفرنسية .

ومن هنا فان المـاسونية يصفون الحسن بن الصباح رئيس الطائفة

الاسماعيلية الشرقية فى القرن الخامس الهجرى بأنه من أسلافهم ويقولون عنه انه كان الأستاذ الاكبر للماسونية فى العالم الاسلامى ، ومن هنا يمكن أن نعرف كيف اتخذ (جارودى) من حركة القرامطة عنصرا من عناصر الحركة الاشتراكية . ا . هـ .

* * *

(٢)

ولا ريب أن من درس حركة القرامطة يجد أنهم اتخذوا أساليب لا تتفق مع مفاهيم الاسلام : أبرزها العنف والتدمير والقيام بالفظائع ، كما أنهم طبقوا فى مجتمعهم آراء مزدك فى شيوعية الاموال واباحة النساء ، فكيف يمكن ان يقول مؤرخ مغرض أو باحث تغريبى ان هذه الحركة أو أخرى من نوعها يمكن أن تنسب الى أنها حركات اصلاح اسلامية ، وقد حمل لواء الدعوتين القرامطة والزنج خصوم الاسلام من الوثنيين والثنوية والمجوس الذين ادعوا كذبا وتضليلا الانتساب الى أهل البيت وهدفهم تدمير الاسلام بالقضاء على دولته .

ولا ريب أن مختلف المفاهيم التى طرحتها هذه الحركات فى نظامها السياسى والاجتماعى مستمدة من المجوسية والوثنية ، فهم يؤمنون بأن الجنة هى الدنيا ونعيمها ، فلا يؤمنون بالبعث والجزاء ، كما يعارضون مفهوم الاسلام فى التنظيم الاجتماعى والسياسى ، فقد وجهت الخصومة بوضوح الى الاسلام كعقيدة ونظام واعتبرته هذه الدعوات مصدر الشقاء ، وحاولت أن تحل مفاهيم الباطنية بديلا عنه ، وقد طبقت فعلا مثل هذه المفاهيم التى هى ركام الفكر البشرى الوثنى والمادى ، وتبين من التجربة أنها لم تحقق الا الظلم والفساد والاباحة والهدم ، وبقى الاسلام قويا عملاقا صامدا ، وذهبت هذه الدعوات وبقى الاسلام .

ذلك أن هذه الحركات لم تصدر عن منهج أساسى يتيح لها صفة البقاء وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية فى العنف والتدمير ، اذ قام الداعون اليها بفظائع لا حد لها وقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب الى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

ولقد استمدت هذه الحركات مفاهيمها من التنظيم السرى الباطنى الذى رسمه اخوان الصفا وغيرهم ، وهى تستهدف فى الأساس تدمير الدولة الاسلامية وارجاع مجد فارس المجوسية القديم ، والعودة الى الوثنية والثنوية والمانوية .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة فى العراق والبحرين والحشاشين والباطنية فى سوريا وايران واتخذت من الحشيشة وسيلة الى اغراء الشباب المنضم اليها باعتناق مذهبها وخداعهم برفع التكليف واستباحة المحرمات .

وقد حاول المستشرق دوزى أن يمجد هذه الحركة فقال انها أسفرت عن نتائج مدهشة هى أن جمهورا كبيرا من أناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معا لتحقيق غاية . نقول « وما هى الغاية الا التآمر على الاسلام وما جمع هذه الجموع الا الأهواء والشهوات والاغراء والخداع ولكنها عجزت عن أن تصلح اعوجاجا أو تقيم مائلا ، وشت فشلها فى اتجاهها نحو الافساد والظلم » .

ولم يلبث أثرها الا قليلا حتى انكشف وتبين انها حركة معادية للاسلام ناشئة بين قوى أجنبية تريد أن ندمر هذا الكيان القائم ، ولم يجدهم أن جمعوا جموعا لا يربطها رابط الا اباحة الملذات والخمر والشهوات وتقديمها لهم للاستعانة على تحقيق غاياتهم البعيدة .

ولم تزد دعوتهم على أن عمدت الى نهب أموال الاغنياء واباحة الخمر ونكاح المحرمات من البنات والأخوات والغلمة والفتك برجال الدولة وزلزلة الامن فى المجتمع .

ولقد تآمرت تلك النحل من المجوس واليهود والنصارى والصابئة والوثنيين والبراهمة وكلها دعوات تنكر وجود الله وتحقد على الاسلام النامى الممتد ، اولئك هم الذين جمعتهم قيادات القرامطة والحركات الباطنية باسم الأهواء والاحقاد ، فما استطاعت أن تحقق شيئا الا الدمار ، وما استطاع مؤرخ منصف واحد أن يصف هذا الفساد بأنه حركة اصلاح الا اليهودية العالمية التى عقدت مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٨ فى الولايات المتحدة وقد جمعت له بعض المبشرين والمستشرقين لوضع خطة الى احياء هذه الحركات واعادة طرحها فى المجتمع الاسلامى على انها حركات اصلاح ونهوض ومعارضة للنظام الاسلامى ، وقد تمكنت هذه الدعوة من تجنيد بعض الكتاب الذين وصفوا القرامطة والباطنية بأنها ثورات الاسلام ، ولكنهم لم يخدعوا أحدا فقد تعرف المسلمون الآن على مصادر الشبهات التى تحيكها اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية .

* * *

(٣)

ولم يتوقف الأمر عند حركة الزنج والقرامطة ، بل تعددت الحركات كحركة المقنع الخرسانى وحركة بابك الخرمى وحركة المازيار وحركة الأفشين وحركة الراوندية وكلها مؤامرات تحمل نفس الولاء الباطنى والاتجاه المجوسى الحاقد الذى يحاول هدم النظام الاسلامى وتدميره ، فقد كانت هذه الحركات السرية تتظاهر بالاسلام ومحبة آل البيت لتعمل على هدم السلطان العربى الاسلامى مقدمة لهدم الاسلام نفسه ، وأنها كانت تجمع الناس فى مناطق فارس بالمؤامرة والاغراء والشهوات على أساس الحقد والكراهية والمطمع ، ولذلك فانها ظلت بالرغم من صورتها المرعبة التى كانت تشير الى القوة والسلطان . كانت هشة ، وأنها عندما ووجهت بقوة حقيقية

سقطت كأنما كانت حصونها من الورق المقوى ، ولم تستطع مؤامرة الباطنية بتجميع ظلمات المجوسية والمزدكية والزرادشتية والمانوية أن تواجه ضوء الاسلام ولم يبق من بعـــد منها الا هـــذا الركام الفاسد الذى بحث عنه المستشرقون والمشرون وخصوم الاسلام فى العصر الحديث لتجديده وبعثه ووضعه مرة اخرى فى ايدى المسلمين ليفرقهم ويمزق وحدتهم وليصرفهم عن حقيقة الاسلام وليؤرث الخلافات مرة ثانية بين العرب والفرس وبين الفرق المختلفة التى ماتت وانطوت .

* * *

(٤)

كان اقوى نفوذ الباطنية واشد بأسهم حين ظهر (الحسن بن الصباح) وقد ادعى انه ينتسب الى ملوك حمير القدماء وقد ظفر بالحصن الجبلى المعروف بألموت ٨٤٣ قرب بحر الخزر ، وكان نظام الملك يخشى الحسن ويتوجس خيفة منه وقصته معه معروفة حين الحقه ببلاط ملك شاه فقد بدا الحسن يدس على نظام الملك نفسه الى أن دبر له نظام الملك تدبيرا الجأه الى الهرب .

ومن حصن الموت قامت دولة الحشاشين الى أن قضى عليها جنكيز خان فى طريقه الى بغداد . وكان الحشاشون قد اعتصموا بمجموعة من الجبال وكانوا يقطعون الطريق فلم تستطع قوى الدولة الوصول اليهم أول الأمر فاستطاعوا احـــداث الاضطراب بالتعاون مع الصليبيين واستغلال انشـــغال الدولة فى مواجهة الحملة الصليبية ، ومع ذلك فان السلاجقة استطاعوا اسقاط أكثر حصونهم وكانت الضربة القاضية هى التى وجهها اليهم الظاهر بيبرس .

وقد كان الحشاشون يعمدون الى الاغتيال كوسيلة لتحقيق أغراضهم ، كما كانوا يستعملون الحشيش لتخدير الأعضاء الجدد وحملها الى حدائقهم الجميلة لاقناعهم انهم فى الجنة ، وزادت قوة الحشاشين فى جميع أنحاء الدولة فى فارس والعراق .

ولكنهم ظلوا — رغم المـــدة التى قضوها — يعيشون على هامش المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية .

وقد استغلوا هذه المرحلة من ضعف الخلافة وتمزق الدولة وانسلاخ بعض الولايات وغلبة القوى العسكرية المختلفة على سلطان الدولة وقيادتها وتعيين الأمراء الذين تولوا الادارة والمـــال والجيش ولم يبق للخليفـــة الا الاسم .

وكان ذلك كله مقدمة لسقوط بغداد ٦٥٦ هـ وزحف القوى الصليبية الى القدس ، ولقد تكشفت حقائق كثيرة فى هذه الفترة ردت المخدوعين الى

فهم الأمور ، فقــد تبين أن كثيرا من هؤلاء الذين خدعوا الناس بالحيل والكرامات من أمثال ابن عربى والحلاج والسهروردى أنهم من تلاميذ الباطنية وانهم يستترون تحت أسماء لامعة وكلمات براقة بينما هم على صلة بالمتآمرين سياسيا متفقون معهم على هدم الدولة وتقويض وجودها .

كما تبين أن الحركة الباطنية هى ثمانى فرق أو تسع من المتآمرين تنتظم مجموعة الأقطار العراقية والفارسية وتضم بقايا المجوسية والمزدكية والبابلية ولها شاراتها ورموزها واسرارها التى تخفى وراءها مقاصدها وغاياتها وأن هذه الدعوات أصبحت ملجأ لكل ناقم وحاقد ولكل صاحب شهوة وهوى .

***

(٥)

ولقد تعددت فى العصر الحديث كتابات الشعوبيين والشــيوعيين التى تحاول احياء هذه النحل الباطلة مفسرة اياها فى ضــوء التفســير المادى للتاريخ ، أو فى ضوء المفاهيم العنصرية والقوميات الضيقة عندما يحاول البعض أن يدعى أنها كانت حــركات اصلاحية ترمى الى تحقيق العدل الاجتماعى أو أنها انتفاضات قومية ، ولقد ادعى أحد هؤلاء أن حركة بابك الخرمى هى انتفاضة الشعب الأذربيجانى ضد الخلافة العباسية ، وفى هذا من المبالغة وانتقاص الحقائق التاريخية ما فيه . بينما لم تكن البابكيــة الا واحدة من حركات هدم ما بناه الاسلام وتفتيت الصرح الذى اقامه الفكر القرآنى الربانى الأصيل ، ويشهد بذلك ما يقوله المؤرخ العباسى صاحب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق : بأنه « لم يكن فى الاسلام حادث أضر بالاســلام والمسلمين من ظهور بابك الخرمى بتلك المقالة التى تفرع عنها القرامطة والباطنية » .

ومما يردده دعاة التغريب سواء فى اطار الفكر الغربى أو الماركسية من أن الباطنية قد حاولت ان تعيد للمرأة حقوقها وحريتها ، وكذلك وصفت المشاعية والدعارة التى دعت اليها وأقرتها هــذه الجماعات بأنها حركة تقدمية للمرأة .

ولقد كانت حركة بابك واحدة من الحركات الباطنية ، وقد قامت على ما قامت به حركة القرامطة من ترك العبـادات والتحلل من الالتزامات الأخلاقية . وتؤكد وثائق التاريخ (المسعودى : مروج الذهب) وغيره أن بابك تحالف مع امبراطور الروم ثيوقيل ووقع اتفاقا مكتوبا للقضاء على الجيوش العباسية وتحطيم السيادة العربية .

وتقول المصادر ان امبراطور الروم ثيوقيل قدم مساعدات ضخمة لبابك وللخرمية لمهاجمة المسلمين وانه قبـل الخرميين الفــارين الى الأراضى البيزنطية وأن فلول البابكيين انضمت بعــد اندحارها الى الامبراطــور

البيزنطى . واعترف المازيار وهو أيضا من المتآمرين تحت لواء الحركة الباطنية بعد أسره . اعترف باتفاق المتآمرين على أخذ الامبراطورية من العرب واعادتها لاكاسرة الفرس ، كما اتفق الأفشين والمازيار على احياء مذاهب المثنوية والمجوس ، فكيف يمكن أن يجيء اليوم من يستخرج هذا الفكر ويقدمه مرة أخرى للمسلمين على انه فكر تقدمى أو اشتراكى ، وكيف يمكن أن توصف مثل هذه الحركات المتآمرة التى انكشفت مؤامرتها بأنها حركات عـدل اجتماعى كمـا صـورها طه حسين وجماعة المستشرقين ودعاة التغريب .

ولقد حاولت الباطنية خداع الجماهير بالمغالطات المنطقية والاغراءات الكاذبة عن الفردوس الموعود ثم تبين من بعد أن ذلك ليس الا مثيلا للخدعة الماركسية العصرية ، ولقد هزمت هذه الحركة وتحطم مضمونها الفـكرى تحت سنابك الأصالة الاسلامية التى لم تلبث أن سيطرت وعلت وانتصرت على ركام الفكر البشرى المضلل .

كما تبين ان نشاط هذه الفرق الهدامة لم يهدد أبدا الحضارة الاسلامية ولم يهددها خاصة بالزوال كليا فى اى منطقة ان لم يكن قد زادها قوة وكذبت ادعاءات المبطلين من المستشرقين .

* * *

الباب السادس

تجديد الفكر البشري

تجـديد الفكر البشرى

كان الفـــكر البشرى قـــد لقى مواجهة أصيلة صادقة ردته وصدته وكشفت زيفه وأدالت منه على النحو الذى قضى عليه وكشف عن جوهر مفهوم الأصالة الاسلامية الذى أطلق عليه مفهوم أهل السنة والجماعة ، غير أن النفوذ الاجنبى بأجهزته من الاستشراق والتبشير والغزو الفكرى والتغريب والشعوبية قد عمد الى احياء هذا الفكر الاسلامى لاثارة الشبهات وتمزيق وحدة الفكر الاسلامى من جديد ، وقد تحركت هذه المحاولة تحت اسم « تجديد الفكر العربى » بدعوى أن الفكر العربى المعاصر قائم بذاته ومنفصل عن الفكر الاسلامى ، وانه يتشكل من جديد منقطعا عن امتداده المتصل خلال اربعة عشر قرنا ومتصلا بالفكر الغربى على النحو الذى يدعو اليه رجال الارساليات والمبشرين ، وذلك حتى يتشكل فكر جديد تحت اسم الفكر العربى ، يكون محاصرا من الفكر الغربى ينظر الى الاسلام والى عقيدته وتراثه نظرة منفصلة وتقوم النظرة على منهج النقد الغربى الوافد الذى ينظر الى الأدب على أنه نتاج العصر والبيئة وحدهما بينما تقوم النظرة الاسلامية العربية على أن الأدب العربى يستمد جذوره وعوامل حياته من الاصل الاصيل : القرآن ، وأن الأدب ليس الا قطاعا من الفكر العربى الجامع المتكامل لا ينفك عنه ، ويقوم على أساس المسئولية الفردية والجزاء الأخروى واخلاقية التعامل الاجتماعى .

ولقد توزعت هذه المحاولة الخطيرة على دراسات الكلام بالدعوة الى احياء الاعتزال وتصوير الدعاة الى تجديد الفـــكر الاسلامى بأنهم معتزلة ورجال كلام جدد ، وبالدعوة الى تجديد الفكر الفلسفى فى الجوانب التى هاجمها الغزالى وقضى عليها ابن تيمية وبالدعوة الى احياء التصوف الفلسفى القائم على الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وبالدعوة الى احيـــاء الفكر الباطنى الشعوبى .

وقد سارت حركة تجديد الفكر البشرى فى هذه الميادين الأربعة ، تحت لواء ما أطلق عليه « الفكر الحر » .

- وقد بدأ الاستشراق هذه الخطة : باحياء هذا الركام القديم واعادة طبعه ونشره :

بدأت هذه المرحلة عام ١٩٠٩ بكتاب لويس ماسنيون حتى حمل لواءها طه حسين عام ١٩٢٧ بعد سقوط الخلافة ، ثم جددها عبد الرحمن بدوى عام ١٩٤٦ ثم جاء زكى نجيب محمود منذ عام ١٩٦٧ وفى ظل النكسة لاحياء هذا التراث على نحو جديد .

١ ــ نشر لويس ماسنيون كتابات الحلاج والسهروردى وفريد العطار وابن سبعين .

٢ ــ نشر جولد زيهر كتابات صالح بن عبد القدوس .

٣ ــ نشر كريمسكى عن أبان بن عبد الحميد اللاحقى .

٤ ــ نشر فرنسسكو جبريلى وباول كراوس عن ابن المقفع .

٥ ــ نشر باول كراوس عن ابن الراوندى .

٦ ــ نشر فرنسسكو جبريلى عن بشار بن برد .

٧ ــ نشر باول كراوس عن محمد بن زكريا الرازى .

٨ ــ ما كتبه اسين بلاسيوس عن ابن عربى .

ثم جاء دور التغريبيين العرب فقاموا بدور كبير :

١ ــ كتب طه حسين عن الزنادقة : بشار بن برد وابو نواس وحماد وأبان بن عبد الحميد . وجدد طبع آثار ابن المقفع ورسائل اخوان الصفا .

٢ ــ كتب عبد الرحمن بدوى كتابيه : شخصيات قلقة و (من تاريخ الالحاد فى الاسلام) تناول فيهما الحلاج والسهروردى وابن المقفع وابن الراوندى والرازى ، وقدم شطحات الصوفية عن أبى زيد البسطامى ورسائل ابن سبعين وترجم ما كتبه ابن بلاسيوس عن ابن عربى .

وبذلك أحيا قدرا كبيرا من ذلك التراث الغنوصى المجوسى القديم وان كان قد قدمه كمترجمات لآثار المستشرقين .

٣ ــ أما الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه (تجديد الفكر العربى) والمعقول واللامعقول فى التراث العربى فقد أعاد صياغة الفكر البشرى الوثنى الغنوصى صياغة جديدة .

وتتمثل حركة تجديد الفكر البشرى فى عدة ظواهر :

أولا : اعادة كتابة تاريخ القرامطة والزنج والباطنية على أنها حركات عدل وحرية أو ثورات اسلامية ومن ذلك ما كتبه محمود اسماعيل عن الحركات السرية فى الاسلام وحسين الوزير عن انتفاضة الشعب الأذربيجانى .

ثانيا : اعادة الدعوة للاعتزال والراوندية على النحو الذى حاوله الدكتور زكى نجيب محمود .

ثالثا : اعادة طبع كتب وحدة الوجود والحلول والاتحاد كمحاولة طبع كتب ابن عربى والحـــلاج .

رابعا : محاولة فرض منهج التفسير الماركسى للتـــاريخ كما فعـــل أحمد عباس صالح فيما أسماه اليمين واليسار فى الاسلام .

خامسا : محاولة لطفى السيد التى صورها فى ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو من أن فلسفة أرسطو هى مصدر النهضة العربيـــة الحديثة . وترجمة تمام حسان لكتاب (مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب) تأليف أوليرى ، وكتاب الأصـول اليونانيـــة للنظريات السياسية فى الاســـلام لابراهيم بيومى مدكور وكلها تحاول أن تجعل من الهلينية سيادة على الفكر الاســـلامى .

وهناك لعبد الرحمن بدوى فى هذا الركام : كتابه شطحات الصوفية لأبى زيد البسطامى والافلاطونية المحدثة عن العرب والخوارج والشيعة ورسائل ابن سبعين .

وهكذا تتجمع الروافد كلها (فلسفية ، وصوفية ، وكلامية) لتشكل جبهة خطيرة قوامها مفاهيم الفكر البشرى فى متابعة للعمـــل الذى قام به ماسنيون وباول كراوس .

ولقد جدد عبد الرحمن بدوى أعمال الاستشراق ونقلها الى العربية ، ففى كتابه تاريخ الالحاد فى الاسلام يتحدث عن الزنادقة ويترجم لهم بتوسع ويؤرخ لهم وبضع فكرهم مجددا أمام المثقفين العرب ، يتحدث عن طالوت ونعمان وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء وأبو عيسى الوراق وبشار وحماد وأبان بن عبد الحميد وابو العتاهية .

ونجد أمثال سيد حسين نصر فى ايران يؤلف عن ابن سينا والسهروردى وابن عربى كتابا تحت اسم حكماء مسلمين مجددا هذه الدعوة رابطا بينهم وبين زرادشت ومانى ومبتعثا علم الحروف والجبر والرموز والأسرار فيغرب اغرابا شديدا ويبعد عن مفهوم الأصالة الاسلامية كثيرا .

وهكذا اتسع نطاق دائرة المؤامرة على الاسلام فى هذه الجولة وكانت التجربة الأولى واضحة امام قادة المؤامرة (التغريب والشيوعية واليهودية العالمية) فقد راى اصحاب المؤامرة كيف أغرق ركام الهلينية الفارسية الباطنية الوثنية الفكر الاسلامى فى دوامة عميقة خلال قرنين من الزمان او أكثر فجددوا هذا العمل بهذه الأبحاث الواسعة المتعددة فى كل اتجاه التى تحمل الملامة والمؤاخذة للفكر الاسلامى لأنه قصر فى مجال الفلسفة واقفل بابها وعارض الاعتزال وأن هذا كان من أسباب تأخر المسلمين . وكانت الحملة شديدة على الامام الغزالى وكان الاغضاء والتجاهل لأصحاب حركة المقاومة والمواجهة أولئك الذين حملوا لواء الاصالة الاسلامية من أعلام مع اعلاء وابراز وتلميع كل الاسماء التى حملت لواء الباطنية والفلسفة والزندقة

قديما مما يسمونه (المشاءون) أو (الشراح) فكتبت عشرات الابحاث عنهم وجلهم لا يسلم فى مقياس الأصالة الاسلامية للحكم عليه واخطر من تصوب اليه أسهم الاتهام الفارابى وابن سينا .

وكان من اخطر دعوات المؤامرة فصل الفكر الاسلامى الحديث عن الفكر الاسلامى فى مراحله المتصلة منذ بزوغ الاسلام تحت اسم الفكر العربى ، وذلك لعزله واقتناصه واحتوائه ، ولكن حركة اليقظة الاسلامية استطاعت أن تواجه هذه المؤامرة وتكشفها وظهرت أبحاث كثيرة وكتابات متعددة لكشف هذا الزيف ونسف هذه الشبهات وكتب عديد من مفكرى الاسلام عن هذه المخططات .

* * *

(٢)

الإسرائيليات الجديدة في التاريخ والعقائد

لم تكن الاسرائيليات الجديدة الا صـــورة مجددة من الاسرائيليات القديمة غير انها وضعت فى صورة المناهج العلمية والقى عليها ظل من براعة التعبير وصنعت من نظريات مستحدثة ولقد كشف كثير من الباحثين الجذور التلمودية فى :

* مذهب التحليل النفسى لفرويد .

* مذهب ليفى بريل عن القول بتطور الأخلاق .

* مذهب دوركايم عن القضـــاء على المسؤولية الفـردية وتغليب المسؤولية الجماعية .

* مذهب ماركس فى اعلاء التفسير الاقتصادى للتاريخ .

وفى مجال هدم « اسلامية » الثقافة العربيـــة والامة العربية كانت المحاولات والمؤامرات تدور حول تزييف التاريخ وتصوير حملات الباطنية والقرامطة على انها حركات ثورية اصلاحية .

وقد ظهرت هذه الحركة فى افق الفكر الاســلامى المعاصر بعد أن صدرت توصية مؤتمر بالتيمور الذى عقد فى عام ١٩٤٢ والذى دعا الى الاهتمام بدراسة وابتعاث الحركة السرية فى الاسلام ومن ثم بدأت كتابات (عربية) كثيرة فى هذا المجال ، تحاول أن تصور حركات الانتقاض على الاسلام ودولته على انها حركات اسلامية اصيلة .

وفى السنوات الأخيرة تركز الحديث حول القرامطة ووصفهم بأنهم حركة تقدمية وجاء الدعاة الى الشرق ليصفوا القرامطة بأنهم دعاة العدل فى الاسلام ، من أمثال جارودى وغيره ووصفهم الدكتور طه حسين كذلك عام ١٩٥٠ تقريبا فى بحثه فى مجلة الكاتب المصرى اليهودية المصدر .

ولم تكن حركة القرامطة فى الحقيقة حركة اسلامية ولكنهـــا كانت احدى الحركات المتصلة بالمؤامرة التى دبرت ضد الاسلام ودولته ، هذه

المؤامرة المتصلة التى اشترك فيها اليهود والمجوس والقوى الشعوبية لحساب الدولة الرومانية الشرقية .

ويمكن أن نصدر فى تقييمها التحفظات التالية :

أولا — لم تكن حركة القرامطة انسانية الطابع أو تعمل على تحرير الانسان أو تكريمه وقد استخدمت الاسلام ستارا لها لتحقيق أغراض المؤامرة ، بل كانت حركة طائفية محضة .

ثانيا — ارتبطت حركة القرامطة بثورة الزنج ولم تكن ذات طابع اسلامى بل كانت بمثابة الأخذ بالثأر على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « فقد حرض هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من اذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم » .

ثالثا — لم تكن هذه الحركة اسلامية لأنها لم تستطع أن تحقق نهج الاسلام فى الحكم ولو ليوم واحد ، وانما حققت مناهج الشيوعية فى المال والعرض وقام مجتمعهم على المنافسة وكان التقدم فيه قائما على الثروة المالية فكان مجتمعها مجتمعا طبقيا .

رابعا — كذلك ينفى عنها طابع الحركة الاسلامية اعتداؤها على الأراضى المقدسة وتجريح الرسول وصحابته ، وقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحو ثلاثين الفا من الحجاج وانتزعوا الحجر الاسود من الكعبة صرفا للناس عن الحج .

خامسا — تؤكد النصوص التاريخية تلك الصلة الوثيقة بين حركة القرامطة وبين الحركة الباطنية الاسماعيلية فى دور الستر وان اختلفت معها فى دور الظهور .

سادسا — كان المجتمع القرمطى مجتمعا طبقيا فيه طبقة السادة وفيه طبقة العبيد التى كانت تتكون من الأسرى ولم يكن لها أى حق فى أى حرية أو مساواة مع الآخرين ، ومعنى هذا انقلاب الوضع فقد عمد العبيد الى الاستيلاء على السلطة ووضعوا أصحاب البلاد فى موضع العبيد .

سابعا — كشفت الوثائق أن هناك صلات ظاهرة وخفية كانت قائمة فى ذلك الوقت بين الباطنية والصليبيين .

ثامنا — يعد الحلاج من أمثلة هذه الروابط بين الحركة الباطنية وأعداء الدولة الاسلامية ، وقد كان الحلاج من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية اذ كان على صلة بالقرامطة وقد روى عنه أنه أقسم فى أحد أحاديثه القدسية التى كان يزعمها لنفسه(١) بعام ٢٩٢ هـ .

---

(١) رجعنا فى هذا الى بحث الدكتور محمود قاسم (الهلال يناير ١٩٧١ م) .

وهذا العام هو الذى شهد الثورة الكبرى للقرامطة وقد سجل هذا كله ماسنيون فى كتاباته عن الحلاج .

وهذه التحفظات تكشف عن زيف دعوى المدعين بأن حركة القرامطة ثورة اسلامية أو حركة اصلاح ، كذلك فان بعض كتاب العرب قد أولى اهتمامه للحلاج ووصفه بأنه داعية تحرير الانسان من الظلم ، والحقيقة أن الحلاج لا يستطيع الثبات فى مجال الزعامة الاسلامية لحظة واحدة .

فقد وصفته كتب التاريخ التى بين ايدينا بأنه « رجل مجوسى الأصل ، اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالاسرار ، ثم تناهى الى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر العباسى لينفذ بهم الى تحقيق غايته فأدى ذلك الى قتله » .

وذكر امام الحرمين فى كتابه الشامل أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاقا سريا على قلب الدولة ، وان هذا هو السبب الحقيقى لقتل الحلاج ، فالحلاج لم تقتله الكلمة مهما كانت مغرقة فى الشك والوثنية وانما قتل حين ثبتت عليه مراسلات الى القرامطة وتبين انه كان وكيلا لهم ، وكان القرامطة قد ازاحوا النظام الاسلامى وسفكوا الدماء وخربوا البلاد وأنشأوا لهم عاصمة فى هجر حملوا اليها الحجر الأسود فظل بها ثلاثين عاما .

ولقد قيل أن دعوى الحلاج فى الحلول والاتحاد والاشراق ووحدة الوجود كانت منطلقة الى تمزيق الفكر الاسلامى وافساده وهدم تعاليم الاسلام تمهيدا لتحطيم سلطته السياسية ، وهو نفس المنهج الذى سلكته الباطنية فقد رأى خصوم الاسلام ازاء عجزهم عن هدم الدولة ، أن يلجأوا الى تقويض عقيدة التوحيد التى جمعت شمل المسلمين وتذرعوا الى ذلك بنظريات التصوف الهندى والمجوسية الفارسية والفلسفة الوثنية اليونانية، وكانت مقدمات ذلك السخرية بالشريعة الاسلامية والترخص فى الحدود واباحة المحرمات ، وقد جرى الحلاج فى ذلك شوطا طويلا فادعى الالوهية واتهم بمعارضة القرآن وأنه يحيى الموتى وان الجن يخدمونه وانه يعمل من الخوارق ما يشبه المعجزات ، وأنه كان يدعو الى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت الحرام فى مكة وله مع أصحابه كتابات بالشفرة لايفهمها الا هو ومن ارسلها اليه .

وقد أشار الدكتور قاسم الى أنه مما يثبت ادانة الحلاج بالعمل مع القرامطة انه كان يصرف الناس عن الحج وكان يستعيض عنه بكعبة مصغرة فى بيته يطوف بها اتباعه طوافا يغنيهم من الذهاب الى مكة .

ومن الظاهرات الجديدة فى أفق البحث ظاهرة (وحدة الوجود) وهى ذات مصدر دينى قديم لا يقول بالتوحيد ويتصل بالتعدد حتى ليمكن القول انها احدى ركائزه الأساسية ، وقد وجدنا من أمثال الدكتور حسين فوزى وغيره من يفخر بأنه يؤمن بها .

ومذهب وحدة الوجود دخيل على الفكر الاسلامى وهو من المذاهب الفلسفية القديمة المرتبطة بالوثنية والمجوسية وفلسفات الاغريق والهنود والفرس التى تحرر منها الاسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها .

وتعنى وحـــدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو « الله » جل جلاله .

وهى دعوى تتناقض مع جوهر العقيدة الاسلامية تناقضا مطلقا بحيث لا يمكن التوفيق بينها وبين دين عقيدة التوحيد بأى وجه من الوجوه .

ومفهوم الاسلام فى مواجهة وحدة الوجود : هو أن الموجود اثنان :

واجب الوجود وممكن الوجود .

أما واجب الوجود فهو صانعها الواحد الأحد الفرد الصمد .

وأما ممكن الوجود فهو هـــذه الكائنات التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

كذلك انكر الاسلام عقيدة الاتحاد ، اى حلول الخالق فى المخلوق ، او استغراق المخلوق فى الخالق .

والاسلام يميز طبيعة كل منهما ولا يقبل وحدة الوجود لانها تتعارض مع (لا اله الا الله) .

ومن هنا نرى كيف أن الاستشراق وهو مادة التغريب والتبشير جميعا يركز على هذه القضايا :

١ ــ قضية التصوف الفلسفى وفكرة وحدة الوجود فى مجال العقائد .

٢ ــ قضية الثورات المضادة للاسلام ويحاول أن يصفها بأنها ثورات اسلامية كالقرامطة والزنج وغيرها .

ولقد أغرى بعض الذين يكتبون بهذا منـــذ وقت بعيد ، وما تزال اجيال الشعوبيين تتوالى وتجدد دعواها (والله يقول الحق وهو يهـــدى السبيل) .

* * *

(٣)

كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية

ان هذه الدعاوى التى ماتزال تتردد من صلة الفكر الاسلامى بالاغريقية أو الهلينية فى حاجة الى أن تواجه دائما بالحقيقة القاطعة التى تكشف موقف الاسلام من الاغريق وكيف حطم هذا القيد وحرر الفكر الاسلامى من آثاره وآثامه .

لقد وجه المستشرقون والمبشرون الغربيون همهم ، دون توقف ، ودون يأس حول هـذا المدخل الى الاسلام فى محاولة تصوير الفكر الاسلامى أنه من صناعة الفكر اليونانى الاغريقى ، أو القاء ظل التبعية الكامل عليه . كأنما لم يكن للمسلمين فكر قبل القرن الثالث الهجرى منذ نزل كتابهم وجاء رسولهم وتشكلت أمتهم ودولتهم وتكون فكرهم خلال مائتى عام كاملة ، استوفى فيها الفكر الاسلامى كيانه ووجوده قبل أن يلتقى بالفكر اليونانى ، وفيه تشكلت كل الركائز العلمية من تحقيق السنة وانشاء النحو وبناء الشريعة واللغة وكتابة التاريخ وانطلاق شرارات العلم والبحث وبناء المنهج الاسلامى للمعرفة المستمد من القرآن الكريم ، لقد تم كل ذلك قبل ان يلتقى المسلمون بالهيلينية ، لقد تكونت ركائز الفكر الاسلامى وتشكلت وثبتت قبل هـذا اللقاء . فلما جاء الفكر اليونانى المترجم نظر المسلمون فيه واخذوا منه ورفضوا .

ولقد كان المسلمون فى تطلعهم الى التراث اليونانى انما يقصدون العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ، ولم يكونوا فى حاجة الى الفكر اللاهوتى الذى يسمونه الفلسفة الالهية فقد كانت هى مما استغنى عنه المسلمون بالاسلام ، ولكن موجة الترجمة ما لبثت أن خرجت عن قواعدها التى رسمت وسيطر عليها بعض النساطرة الذين تدافعوا الى ترجمة هذه الآثار فأحدثوا ذلك الأثر الخطير من البلبلة والاضطراب الذى تدافع المفكرون المسلمون حوله ، فى محاولتين : الاولى الملاءمة بينه وبين التوحيد وهى محاولة فاشلة قام بها الكندى والفارابى وابن سينا ، لأنها لم تحقق شيئا ولانها حين قامت لم تكن النصوص التى فى أيدى أصحابها هى الاصول الحقيقية للفكر اليونانى . أما المحاولة الثانية : فهى محاولة رد هذا الفكر اليونانى فى مجال الالهيات ردا كاملا ورفضه والتماس منطق الفكر الاسلامى من القرآن على النحو الذى استطاعه الامام الجليل ابن تيمية .

ومن الحق أن يقال أن النساطرة والسريان كانوا مزيفين مضللين ،

وانهم لم يكونوا خالصى الوجه للعلم فقد ثبت « أن الفكر الذى نقل الى المسلمين من اليونان والاغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف الى خدمة مفاهيم دينية ، ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الاسلامى شيئا » وأن هذه المترجمات « كانت تكسبا للمال لا حبا للعلم ، بالاضافة الى استغلال الترجمة فى الدعوة الى نحلتهم ونصرة مذاهبهم » .

ومن هنا وقع الخطر : خطر نسبة بعض الكتب الى ارسطو وهى لغيره أو لافلاطون وهى ليست له ، ومن هنا فقد فسدت الدراسات التى حاول بها أمثال الفارابى الملاءمة بين فكر ليس هو فى الأصل لصاحبه ، فاذا أضفنا الى ذلك أن النساطرة واليعاقبة كانوا يحرفون الأصول التى بين أيديهم ، فيما يرونه مخالفا لدينهم ، وأن بعضهم الآخر كان يتصرف بالزيادة والنقص فى النصوص ، يبدلون فيها ميلا مع أهوائهم أو نصرة لمذهبهم ، عرفنا الى أى حد كانت قيمة ذلك التراث المترجم .

* * *

ولقد كان أرسطو هو قمة هذا التراث وهو الذى احيط بهالة ضخمة من الاهتمام ، هذا الاهتمام الذي جدده (الهيلينيون الجـدد) فى العصر الحديث .

ولقد كان هناك قول أصبح من المسلمات ان منطق ارسطو هو قمة ما أخذ الفكر الاسلامى من اليونان .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ، فان منطق أرسطو مستمد من المجتمع اليونانى الذى يختلف اختلافا كبيرا عن المجتمع الاسلامى ، ولذلك كان منطقه لا يطابق مجتمع الاسلام بل يتعارض معه .

« ان منطق ارسطو يعبر تعبيرا دقيقا عن المجتمع اليونانى العبودى المنقسم الى سادة يتأملون وعبيد يعملون : السادة هم الصورة والعبيد هم المـادة » ولكن المجتمع الاسـلامى كان يختلف عن المجتمع اليونانى اختلافا كبيرا ، دولته تقوم على الأخوة والمساواة وينطلق من نقطة النظر فى السموات والأرض والعمل والتجريب ، ومن هنا اختلف منهج المجتمع الاسلامى عن مجتمع اليونان ، من جملة جوانب اهمها التوحيد ، والغـاء العبودية ، والممارسة فى مجال العلم وبذلك بدا ذلك التعارض الواضح والتباين العميق بين مجتمع ومجتمع وفكر وفكر .

خرج الفكر الاسلامى عن النظرة الأرسطية التى ترى أن العلم لايكون الا بالكلى أما العلم الجزئى فليس علما ، فتقدم الفكر الاسلامى فحطم هذه القاعدة وبدأ النزعة التجريبية من الجزئيات . وبذلك خرج المفـكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطى للحد والتعريف واستطاع رجال الاصول والفقه أن يقيموا نظرة جديدة للتعريف تقوم على أساس الواقع ، وأدى ذلك الخروج عن حدود القياس الارسطى الى الحصول على نتائج عملية ، واصبح طابع الفكر العلمى الاسلامى هو طابع التجريب . ونقد المفكرون المسلمون قياس أرسطو وقال عنه ابن خلدون أنه قياس ذهنى ، أما المسلمون فقد عرفوا ما لم يعرفه اليونان وخطوا أخطر خطوة فى تاريخ البشرية وهى بناء قاعدة العـلم الحديث نفسه تلك هى التوحيد بين التأمل والممارسة العملية . وأولى المسلمون اهتمامهم بالرابطة العلية بين الاشياء ، وعلى هذه الرابطة بين الاشياء قامت التجارب وعلى هذه الرابطة العلية (البحث عن العلة) أقام البيرونى والرازى وجابر بن حيـان وابن سينا تجاربهم

العلمية ، وفى نفس الوقت قام المنهج العلمى فى الفكر حيث فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقة البشرية (١) .

« وبهذه النظرة المتطورة للكون والانسان : اختلف الفكر الاسلامى العربى اختلافا كبيرا عن الفكر اليونانى المترجم وتناقض معه فى مختلف فروع الثقافة من علم واصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة الى الانسان ولم يكن هذا الاختلاف عابرا أو طارئا ، وانما كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الإجتماعى للدولة العربية وللحضارة اليونانية » .

وبذلك ظهر الفكر الاسلامى فى جوهره فكرا تجريبيا ، تجاوز منطق ارسطو واطل على التجربة العلمية رابطا بين التأمل النظرى والممارسة العلمية وخرج بذلك على الفلسفة الأرسطية والافلاطونية : خرج بالعقل التجريبى والمنهج العلمى الأصيل(٢) .

ولقد صور كثير من الباحثين اثر منهج أرسطو فوصفه الدكتور قاسم بأنه « كان منهجا عقيما وأنه ضلل كثيرا من مفكرى العرب ثم وقف حائلا دون ازدهار الحضارة العربية ، ويرجع عقمه الى أنه كان خلوا من الخيال والى أنه كان اكثر اهتماما بالقضايا العامة المجردة منه لدراسة التفاصيل والجزئيات ، يستدل على صدق دعوانا وتواضعها بتاريخ النهضة الأوربية فانها لم تتحرر من الجمود الذى فرضه عليها منهج اليونان الا بعد أن عرفت مناهج العرب فى العلم والفلسفة ، ولنا أن نستشهد برينان نفسه ، ذلك أنه يصف (روجر بيكون) بأنه الأمير الحقيقى للفكر الاوربى فى القرن الثالث عشر ، ويجب أن تعلم كيف جاءته امارة الفكر ، اذ ليس فى هذا المجال خلق من العدم ، ومن اليسير أن نكتشف سر اصالته ، اذا نحن بينا انه اول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطوطاليسى فى اوربا ودعا الى اصطناع نهج العرب ، فهو يأخذ على معاصريه بأنهم يصبون لعناتهم على الرياضة مع انه من الممكن أن يبرهن بالرياضة على كل ما هو ضرورى لفهم الطبيعة ، ولولا الرياضة لاستحال علينا أن نعرف أشياء هذا العالم معرفة صحيحة ، تعود علينا بالنفع فى الأمور الانسانية والامور الدينية أيضا ، كذلك يأخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لا تكشف أسرارها الا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا الى القوانين الكلية » .

وهكذا انتصر المنهج الاسلامى على المنهج الأرسطى وحطمه فى عقر داره بعد أن حطمه فى مجال الفكر الاسلامى نفسه .

فضلا عن ذلك فان هناك التناقض الواسع العميق بين الاسلام والفلسفة اليونانية ، لقد احتقر اليونانى التجريب والتجربة وجاء منطق ارسطو اكبر معبر عن روح اليونان ، ولم يشغل المسلمون بالجوهر والماهية

---

(١) راجع : على سامى النشار ومحمود أمين العالم وعبد الرحمن مرحبا وتوفيق الطويل فى دراساتهم عن العلم عند المسلمين .

(٢) انظر : (معارك فكرية) د/ على سامى النشار .

والتصورات التى شغلت بها الفلسفة اليونانية وانما اشتغلوا « بالخواص . واندراج الخواص فى نسق منهجى متكامل ، ومع ذلك فما زال هناك من أهل التبعية الفكرية الغربية من يقول أن الاغريق أول من أوجد التفكير العلمى . وهو كلام براق غير علمى .

ان الاسلام هو الذى وجه تيار الفكر نحو الخواص ، ونحو التجريب وعبارة رسول الله فى هذا الصدد بعيدة الأثر والمدى (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا) .

ومع ذلك فان الاسلام هو الذى حفظ الفلسفة اليونانية من الضياع فان النصرانية لما دخلت اليونان خافت على الدين فمنعت تدريس الفلسفة ودفنت كتبها فى دهاليز فى باطن الأرض حتى كشف عنها المسلمون .

ولقد صحح المسلمون أخطاء جالينوس فى الطب اليونانى وأخطاء بطليموس وأبقراط واقليدس فى الرياضيات وعارضوا أخطاء ارسطو فى المنطق ، وبالرغم من اثر الاغريق فى التاريخ الفلسفى الا أنه لم يستطع أن يحدث تغيرا فى مفهوم الاسلام للانسان ، ورفض المسلمون رأى أرسطو ومفهومه فى الألوهية وما وصل اليه من زيف ، واعتبر الكندى والفارابى وابن سينا — فى مجال الفلسفة — بالرغم من الجهد الكبير الذى بذلوه لاقرار مفهوم التوحيد والتنزيه واقرار النبوة — اعتبروا بالرغم من ذلك كله مجرد امتداد للروح الهلينية فى العالم الاسلامى .

واعتبر الباحثون أن الفلسفة الاسلامية قد نبعت من صميم البيئة الاسلامية ، وانه بعد معاناة علوم القرآن والحديث نشأ علم اسلامى أصيل هو (علم أصول الفقه) الذى أقامه الامام الشافعى أول معارض لتيار الهلينية ، وأول من نبه الى هذا الخطر حين قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا الا لتركهم لسان العرب وميلهم الى لسان ارسطوطاليس .

ولقد قدم الامام الشافعى « مباحث الأصول » لاول مرة : كعلم متسق الاجزاء له منهج عام يحدد للفقه الطرائق التى يسلكها لاستنباط الأحكام .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب هذا الفهم لأصالة الفلسفة الاسلامية : ان هذا الاتجاه من الشافعى هو اتجاه العقل العلمى الذى لا يعنى بالجزئيات والفروع بل يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها . لقد دعا كل ذلك الى اعتبار (الشافعى) فى العالم الاسلامى وفى الدراسات الاسلامية مقابلا لأرسطو فى العالم الهلينى والدراسات اليونانية .

« كان الشافعى يعرف اليونانية وقد هاجم المنهج الأرسطى مهاجمة شديدة لا من الجانب السلبى فقط بل ايجابيا بوضع منهجه فى الأصول الذى كان اساسا للمنهج الاستقرائى والتجريبى ، الذى تميزت به الثقافة الاسلامية وحضارتها والذى لولاه لسقط العلم فى العالم الاسلامى ، ولتأخرت نهضة أوربا العلمية الجديدة » .

« كان الشافعى يرى (فكر الدين) فى اللغة العربية وفكر (الفلسفة) فى اللغة اليونانية ، كما يرى أن المنطق الأرسطى الذى يستند الى اللغة اليونانية مخالف للمنطق الذى كشف عنه علم الأصول الذى يستند الى اللغة العربية وخصائصها . ولقد تبين له أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغة العربية يؤدى الى كثير من التناقض ، ولذلك هاجم المنطق الأرسطى الذى أخذ بعض علماء المسلمين كالفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد الى حد التحريم وتابعه فى ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين على راسهم ابن تيمية (١) .

ومن هنا فان المنهج الاستقرائى (العلمى والتجريبى) على حد قول الدكتور النشار ـــ هو المعبر عن طبيعة الاسلام ، والاسلام فى آخر تحليل هو تناسق بين النظر والعمل ، هذا المنهج بما فيه من روح الاسلام ونظرته قد أدخله العرب الى العالم الأوربى وبذلك فان المسلمين هم مصدر هذه الحضارة القائمة على المنهج التجريبى » .

***

---

(١) الدكتور النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام .

(٣)

جاء الامام ابن تيمية خاتمة لهذا الخط الواضح القوى : الذى ظل المفكرون المسلمون يعملون له دون توقف فى سبيل تحرير الفكر الاسلامى من هيمنة الفلسفة الهلينيه ، لقد كان شغل المسلمين الشاغل هو رفض السماح لشخصية الاسلام الحضارية أن تذوب أو تتلاشى فى شخصية حضارية أخرى ، وهو ما مكن المسلمين من الصمود فى وجه القوة الغازية .

ولقد وصل ابن تيمية الى قمة من القمم فى هذا المجال فى كتابه (الرد على المنطقيين) ويعتبر ابن تيمية فى رده على مناطقة اليونان أكثر ممثل لروح الاسلام نجاه الهلينية ، فنقد المنطق الأرسططاليسي ولم يقف عند هذا بل استخلص للاسلام منطقا يعبر عن خصائص العقلية ويحمل طابع حضارته .

ويعد الباحثون : « ابن تيمية » الرائد الأكبر لكل الاتجاهات الحديثة والغربية فى نقد (منطق ارسطو) من ارجانون فرنسيس باكون الى المنطقية الوضعية ، وقد تتبع ابن تيمية المنهج الاسلامى الاستقرائى منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ، ثم اضاف الى عناصر هذا المنهج الاسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستندا على روح القرآن والسنة . وكشف عن عقم عملية التلفيق التى قام بها الفارابى وابن سينا ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل ، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة ، وكشف عن ضعف أدلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع .

ووصل الى نتيجة صريحة هى أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفا لصحيح النقل ؛ ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل اذا تعارضا ، وعنده أن فى ذلك خروجا على أصل من أصول الاسلام . ويؤمن بأن مهمة العقل هى تفسير الوحى والتعبير عنه .

***

« وبعـــــد »

فان الحقيقة الواضحة الصريحة أن الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تسيطر على المسيحية واليهودية ، ولكنها عجزت عن أن تفعل ذلك بالنسبة للاسلام ، وأن منهج اليونان مخالف لمنهج المسلمين ، وان اليونان اقتصروا على التأمل . اما المسلمون فقد اقتحموا مجال التجربة ، وان القرآن هو الذى هداهم الى بناء المنهج العلمى التجريبى .

ومن هـــذا فقد كان على الأصوات التى تدعى أن للهلينية فى الفـــكر الاسلامى مكانا أن تخرس وأن تتوقف بعد أن تكشفت الحقيقة على أيدى الباحثين فى الفلسفة انفسهم ، ان خصومنا يحملون اسم الفلسفة على أنه معلم من معالم الحرية ، ولكنهم فى الحق انما يريدون به تحطيم مفهوم الاسلام الصريح القائم على الفطرة والتوحيد والذى ليس فى حاجة الى سلاح الفلسفة الا على النحو الذى فهمه الامام ابن تيمية .

* * *

(٤)

الفلسفة المكتوبة باللغة العربية

هل عرفت طريق الأصالة ؟

ما زال ارنست رينان يردد في كتبه التي ما زالت تدرس في بعض الجامعات العربية : ان الفلسفة العربية ما هي الا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ، ومنذ أن وصل أول باحث مستشرق لتدريس مادة الفلسفة في الجامعة المصرية القديمة : كونت دي جلارزا فقد فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين بأنه لا توجد فلسفة عربية وانما هذه الفلسفة المنسوبة الى (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية .

وقد ازعج هذا القول الكثير من الغيورين وحملوا على هذا القول وقالوا : بل هناك فلسفة عربية وأن دور الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن مجرد النقل وانما كان لهم دور بناء .

وقد سار على هذا المنهج أحمد لطفي السيد حينما ترجم باسمه كتاب علم الأخلاق لارسطو طاليس ترجمة بارتلمي سنهيلر(١) الذي يقول في المقدمة :

« مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصورا على كتب أرسطو فان فلسفة ارسطو هي التي غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئا غير فلسفة أرسطوطاليس طبعت بالطابع العربي وسميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة الى حد أن الجامعات الأوربية في العصور الاخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين أي فلسفة أرسطو » .

وقد علق الدكتور صروف في المقتطف (يناير ١٩٢٥) على هذا المعنى

---

(١) ما يزال العاملون في دار الكتب المصريه يذكرون كيف قامت هيئة الترجمه باداء ترجمه هذا الكتاب يوم كان لطفي السيد متوليا منصب مديرها عام ١٩٢٥ .

فقال : ان ما قاله الأستاذ — يعنى لطفى السيد — يؤيده الكتاب الاوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية واستشهد بما قاله الاسكيس وليم ولسن . أن ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة فانه فكر يونانى منظم عبر عنه بلغة سامية وحور بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الاسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم ، وبقى حيا بغيرة جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من المجاهرة بآرائهم ، على أن أمتهم أساءت بهم الظن واضطهدتهم . ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سببا فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين الى فلسفة أرسطو فقال : وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الاصلية فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى اخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لا سيما انها اشد المذاهب ائتلافا مع مألوفاتنا والطريق الأقرب الى نقل العلم الى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية » .

وقال أن فلسفة المعلم الأول خالدة ما حدها وطن ولا أخنى عليها زمن فقد بنت عليها كل مدنية صروح مجدها العلمى حتى مدنيتنا الجديدة » .

هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الأهلية الى جامعة رسمية وجيء بلطفى السيد فوصفه تلاميذه وأتباعه بأنه أستاذ الجيل . رئيسا للجامعة وجاء طه حسين وغيره يدعون الى اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا « لطفى السيد » أستاذ الجيل صادقا فيما قال وفيما دعا اليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقا الى النهضة الجديدة ، وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعد دعوة ملحة الى هذا الطريق أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة !.

هل حقا كان أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة وما بعدها أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا حتى جاء منهج التجريب الاسلامى الذى أطلق الطاقات الى عصر العلم الحديث ؟ ندع هذا للباحثين ، لقد كان علماء المسلمين انطلاقا من القرآن هم الذين أنشأوا المنهج التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة : درابر وبريفولت وجوستاف لوبون فى القديم ، وسارتون وهونكة وغيرهم فى العصر الحديث ، وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه : (شمس الله تشرق على الغرب) وكتاب (أوربا ولدت فى آسيا) .

اذن لم يكن لطفى السيد صادقا ولم يكن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أمينا حين نقلا الينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ثم جاء الغربيون فنقدوه فى ضوء العرب ورفضوه والتمسوا منهج المسلمين الذى دفعهم الى ذروة التكنولوجيا الآن .

اذن فلماذا هذا التعارض ؟ بسأل عن هذا الاستشراق والاستعمار ، ذلك فانهم على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : نقلوا المسلمين الى أرسطو ونقلوا أنفسهم الى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) .

ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة اخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المغلقة ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب الذى انشأوه ونماه الغــرب .

وهكذا نجد أن هذا المنطق على يد طه حســين وجماعة من اتباعه يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ولما كان الفكر الغربى الحديث هو ثمرة فكر اليونان فان تبعية المسلمين والعرب له لا تعد شيئا جديدا ولا غريبا لأنهم كانوا تابعين لليونان فلا عجب أن يتبعوا ما جدده أحفـــاد اليونان . لم يكن أستاذ الجيل صادقا اذن ، ولم يكن الدكتور طه حسين صادقا فى هذا ، فان المسلمين لم يقبلوا أرسطو ، ولم يعتنقوا فكر اليونان وانما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن .

ولقد تصدى لهذا كثيرون من أبرزهم الغزالى وابن تيمية .

واذا كان الخلاف ما زال واسعا حول ما كتبه الفارابى وابن سينا وهل هو فلسفة اسلامية أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين فان رجــلا كريما ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب هو الشيخ مصطفى عبد الرازق قد فصل فى هذا الأمر على نحو صحيح ومن خــلال دراسات الجامعة نفسها وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الآداب ، حين قال : ان الفلسفة الاسلامية انما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء وان الامام الشافعى واضع (أصول علم الفقه) هو أول الفلاسفة فى الاسلام وان مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسطو فى اليونانية .

وبذلك نشأت مدرسة الأصالة فى مجال الفلسفة وامتدت من بعــد واتسعت وكان من أتباعها محمود الخضيرى ، ثم محمد عبد الهادى أبو ريده ، وعلى سامى النشار .

ومنذ ذلك الوقت وقد صدر كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الاسلامية) عام ١٩٤٧ وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل فقــد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فيها وهو ما يزال عسيرا فى مجال الأدب والنقــد الادبى فان التبعية لمذاهب النقــد الغربى الوافد ما تزال قوية .

ولقد اثبتت مدرسة الأصالة فى الفلسفة الاسلامية (عبد الرازق — ابو ريدة — النشار) أن المنطق الأرسطاطالسى — منهج الحضارة والفكر اليونانى — لم يقبل فى المدارس العقلية ، وأن المنهج التجريبى الاسلامى هو الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتهــا الحديثة مع مباينته

للحضارة اليونانية ، وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر روح الحضارة الاسلامية ، فالحضارة الاسلامية حضـــارة عملية تجريبية نتجه الى تحقيق العدل الانسانى فى ضوء نظرية حية ملموسة .

كذلك فقد كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا : « أن الفكر الذى نقل الى المسلمين من اليونان والاغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة دخلت عليهـــا مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف الى خدمة مفاهيم دينية ومن هنـــا كان نسادها فى أن تعطى الفكر الاسلامى شيئا » .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانيـــة ومذهب أرسطو بالذات قد بدأت منذ أن تمت الترجمة وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الأول ، ذلك أن الفكر الاسلامى قد تم تشكله قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ومن الربط بين الوحى والعقـــل ، ولذلك فانه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانيـــة أو ينصهر فيها وخاصة أنها فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية واعلاء العقل وعبادة الجسد فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف نصوص ، وان كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم المشائين المسلمين قاموا بمحاولة شاقة وعســيرة لادخال الفلسفة اليونانيـــة فى اطار الاســلام فان المحاولة فشلت تماما . وكانت وقفة الغزالى فى وجه الفلسفة الالهية اليونانية وقفة صارمة ردت السيف الى صدور أصحابه فقد كشف عن الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعيـــة وبين الفلسفة الالهيـــة ورفض الأخيرة لانها متعارضة مع التوحيد وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى أما فى الالهيات فهو تخمينى .

وفى الفلسفة الالهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليونانية وتختلف مع مفهوم الاسلام : ما يقولون به من قدم العالم وأن الله (جل وعلا) لا يحيط علما بالجزئيات وانكارهم البعث .

وهاجم الفلاســفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العـــالم قديم كالدهرية والزنادقة . والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعــود ومن ثم أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الامام الغزالى بالنسبة للفـــارابى وابن سينا وجهة أخرى ، أشد خطورة حين عرفت صلاتهم بالدعوات الباطنية الهدامة واخوان الصفا وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الاسلامية من قرامطة وغيرهم .

ثم جاء ابن تيمية فاستحالت غربا فقد كشف فى كتابه (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الاسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة ، وقـــد استخرج منهما هذا المنطق الجديد الذى سماه المنطق الاسلامى . وقال أن

هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية اليونانية فى الحكم على الأشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلتها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما . ومما قاله : ان ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو اكمل وأبلغ منها على أحسن وجه منزه من الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ويقول الدكتور النشار : كان ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الجديدة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بيكون الى المنطقية الوضعية وقد عنى بنقد فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق ارسطو وأشار الى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عند (الفارابى وابن سينا) بين الاسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل .

ومما عرف فى هذا المجال وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن ابراهيم الوزير الحسينى اليمنى الصنعائى المتوفى ٨٤٠ .

وبعد فان مدرسة الاصالة كان لابد أن تواجه المدرسة التى ماتزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية والتى تبلورت بعد فى مناقشة الدكتور النشار لآراء الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فى كتابه (فى الفلسفة الاسلامية) وقد بدأ الدكتور مدكور وكأنه متابع لمنهج لطفى السيد وطه حسين ويرى مدكور أن أرجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية(١) يقول الدكتور النشار : أن المنطق الأرسطاليسى قد نقل الى العالم الاسلامى وأثر فقط فى المدرسة المشائية الاسلامية وبقيت المدارس الاخرى المنبثقة عن نظام اسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته ، الدكتور مدكور لا ينكر وجود هذا المنطق الاسلامى ولكنه يرى أنه كان لمنطق أرسطو أثره الكبير فى العالم الاسلامى . ولست أرى هذا على الاطلاق .

أن سيادة منطق أرسطو انما بدأت حينما تداعى الفكر الاسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلم يونان ولكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء المتأخرين ولم يوافق متكلمى الأشاعرة من ناحية ومتكلمى السلف من ناحية أخرى على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحرب .

ويرى الدكتور مدكور ان محاولة الفارابى نجحت واضفت على تاريخ الفلسفة أضواء جديدة . ويقول الدكتور النشار أن هذه المحاولة كانت غريبة

---

(١) أثبت عكس هذا الرأى : الدكتور النشار فى كتابه « مناهج البحث عند مفكرى الاسلام » .

عن روح الاســـلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وان فلسفة الاسلام انما تنبثق من الاسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق ، وان فلاسفة الاسلام المشائين قد ابتعدوا عن الاسلام روحا ونصا ، وعن المجتمع الاسلامى فكرا وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الاسلامى منذ عهد بعيد ، ولم تمت العقائد الكلامية حتى عهدنا هذا ، ولكن النشار ينصف مدكور فلا يجعله تابعا لمدرسة لطفى السيد وطه حسين فيقول : ليس الدكتور بيومى من مدرسة الفلسفة اليونانية التى رأت فى فلسفة اليونان (غاية الغايات) وأن اليها يعود كل فكر ، ولم ير الدكتور مدكور على الاطلاق ان فكرنا المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها (مدرسة طه حسين) على مسرح تفكيرنا ، أنه ما دام أسلافنا قد اخذوا بفلسفة اليونان وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلينا اذن أن نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء » ا . هـ .

* * *

(٥)

تجديد التفسير الباطنى للقرآن

وقد جرت محاولات للقول فى تفسير عصرى بأن عذاب جهنم ليس على حقيقته المصورة فى نصوص القرآن انما هو ضرب من الاخافة والترهيب . يقول الدكتور محمد سعاد جلال أن هذا كلام هدام للاسلام يجب أن تحذره الأمة حفاظا على كيان دينها واصل وجودها فى وجه هذه الاتهامات الشداد المتدفقة عليها من كل بلد اندفاع السيل ، والمراد بهــذه الدعوة الخاطئة والتفسير الآثم هو اشاعة الاباحية والجريمة فى الناس بانتزاع فكرة العذاب الأخروى من نفوسهم الذى هو عنصر هام من عناصر احياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم ، والدعوة للاباحية المطلقة والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجنسية أصبح هدفا ايدلوجيا لبعض الفلسفات المعاصرة كالوجودية وغيرها ، فالقائلون بعدم كون العذاب الأخروى حقيقة انما يعملون بدهائهم الخاص لتسرب هذه الفلسفات الهدامة للقضاء على روح الأمة وافساد معنوياتها النفسية والعقائدية والامة أشد ما تكون حاجة وهى تصارع فى معاركها المعتدين الى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقته المناضلة وحماية نفسه ، وهذا يحدد الدور التخريبى الذى كانت تقوم به الشعوبية لهدم الاسلام من باطنه بالعمليات الفكرية المضادة لمفاهيمه وأسسه فى صدر الدولة العباسية ، ان البوذية والبرهمية تذهبان للقول بعدم وجود عذاب أخروى ، وبعض الأديان الكتابية الاخرى تذهب الى أن عذاب الآخرة معنوى لا حسى على عكس ما يرى المسلمون . هذه محاولة لاحتواء الاسلام وامتصاص خلته من نفوس المسلمين وحياتهم بتغيير مفاهيمه المجمع عليها ، وتعطيل نصوصه من الدلالة على معانيها الموجودة بها وهم قد أبطلوا بمذهبهم هذا قضية الثواب والعقاب على الاطلاق وأبطلوا تبعا لذلك مفعولية التكاليف الشرعية والتزام العمل بهــا ، فاذا بطلت حقيقة الخطاب بالثواب والعقاب على فعــل التكاليف وتركهــا فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية نفسها ، وهل الاسلام الا هذه التكاليف من الأمر والنهى ولوازمها من الثواب والعقاب ؟ فاذا بطلت بطل الاسلام كله . أما بالنسبة للقرآن الكريم فبعد القطع بكونه تنزيلا من حكيم حميــد تمتنع الاعتراض فى أحكامه وأخبــاره ويجب أن تتلقــاه النفوس بالاذعان والقبول واتمام التسليم له لأنه — لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — فهو حق وصــدق وسلامة منطق وصحة احكام ، أما بالنسبة للمكلفين فان ضمان العمــل بالشريعة الذى هو أصــل تربية الأمة على الاصــلاح وارتقائها

على مدارج الفلاح وانما هو فى التحذير الحقيقى للمخاطبين بالشريعة من مخالفة الامر والنهى بنصب الوعيد لهم على المخالفة بعذاب الجحيم .

ويصور الدكتور محمد سعاد جلال هذا العمل على أنه جزء من خطة احتواء الاسلام ، فيقول أن الاسلام يواجه صراعا تاريخيا حادا وظالما من أمم فى الأرض جعلت نفسها بغير الحق فى جانب عداوته والكيد له . تستطيع أن تتصور الاسلام حصنا متينا شامخا وفى داخله اقوام من الناس يعيشون بعقائد خاصة وتقاليد وفنية وعادات . وهذا التراث الدينى — لا القومى — هو حبل الله المتين الذى يربط بين هذه الجماعات الانسانية وصنع منها وحدة صلبة تؤكد لأصحابها وحدة العمل والبناء ، وتمنحهم طاقات النضال وقد تمكن الذين اختاروا لانفسهم عداوة الاسلام بغيا بغير الحق بصبرهم وذكائهم وشدة اخلاصهم لمعتقداتهم ثم بتفريط المسلمين وانقسامهم على أمتهم أن يكسروا حصن الاسلام الظاهرى باستعمار اكثر بلاد المسلمين ، المهم انهم وضعوه بمكان من سلطانهم بحيث لا يفلت من قبضتهم ان ارادوا شيئا ولكن كسر قشرة حصن الاسلام الظاهرة — أعنى استعمار أمته واحتلال اراضيه — لم يكن شأنه أن يؤدى للغاية الأصيلة منه وهى التخلص من سلطان الاسلام العالمى كفكر ودين وايديولوجية ، وما دامت بطانة هذا الحصن من العقائد والأحكام باقية بين المسلمين فان (ديناميكية) هذه العقائد والاحكام كفيلة اذا تفاعلت فى نفوس المسلمين أن تعيد لهم مرة ثانية بناء الطبقة الظاهرة المكسورة من خصمهم العنيد .

ان مكمن القوة الفاعلة ومادة البناء الذى يراد به التطاول والشموخ تستقر فى قلب الاسلام باعتباره عقيدة وفكرا ونظاما اجتماعيا . وما دام هذا الحصن المعنوى قائما فى نفس الانسان المسلم فهو الحصن الاكبر الذى لا يأتى عليه الدهر ، فالمقصود للتخلص من وجود الاسلام هو ادخال التغيير والتحريف على معانى نصوص الاسلام وادخال التغيير والتحريف على مفاهيم العقائد الاسلامية والأحكام الاسلامية بحيث يقع ذلك كله موقعا قريبا من الاديان الاخرى التى يريد لها أصحابها الانفراد من دونه بفكر جميع البشر واعتقادهم ، وبحيث يؤدى هذا القرب الى نسيان المسلمين وتجاهلهم بحقائق دينهم الأصيلة الصحيحة وانتقالهم عنها الى هذه المفاهيم المتغيرة الجديدة التى تنقلهم بطبيعتها المنحرفة المتغيرة الى الايناس والتذوق لحقائق ومفاهيم الأديان الاخرى التى شدوا اليها من أول الطور بتزييف السهولة واليسر الى تمام مراحل العمليــة المنظمة باخراجهم من دينهم وادخالهم فى الدين الجديد المراد ادخالهم فيه من أول مراحل العملية . نعم ان هذه عملية طويلة وصعبة التناول والممارسة وتحتاج الى زمان طويل ، ولكن تجارب التاريخ مع خصوم الاسلام فى الكيد له تعلمنا أنه لا يوجد فى تخطيطهم عن الاسلام شىء يقال عنه أنه صعب ، لقد بدأ خصوم الاسلام الأذكياء ذوو الكفاية المذهبية الرائعة المنظمة أروع تنظيم الى بدء هذا المخطط منذ زمن قديم جنبا الى جنب مع مخطط ضرب الاسلام عسكريا من اول يوم من أول ظهوره ، وفى كل مكان وصل اليه فى الأرض . لكن تركيزهم

على ما قبل الحرب العالمية الاولى كان منصبا على ضرب الآسلام عسكريا بالدرجة الأولى . حتى اذا أسقطوا دولة الخلافة الاسلامية ووضعوا أيديهم على البلاد التى تعتبر قلب الاسلام وهى مصر وفلسطين ، انتقل تركيزهم بالدرجة الاولى الى عملية الاحتواء الفكرى هذه يسخرون فيها أناسا من المسلمين أنفسهم اما بطريق الاستهواء والاقناع الفكرى لمن ضعف اعتقادهم وتثقيفهم الاسـلامى واما بالاغـراء بالمنافع العاجلة واستثمار ضمائرهم واقلامهم بالثمن الجزيل واستغلال حاجة بعض الناشئين الفقراء لوضع نفوسـهم فى قالب التربية الخاصة التى تؤهلهم اذا كبروا واصابوا مراكز مرموقة فى الدولة ممكنين لهم من الفعل والخدمة أن يقوموا لمربيهم هؤلاء فى مضادة الاسلام بهذا الدور الخطير .

* * *

(٦)

صاحب الزنج والحلاج

حاولت حركة المؤامرة على الاسلام ابتعاث مفاهيم زائفة فى محاولة لاحياء الشعوبية والفكر الباطنى على أن حركة الزنج والقرامطة حركات عدل اجتماعى .

وكان صاحب الزنج والحلاج فى مقدمة الشخصيات التى ركزت عليها ، وقد استطاعت حركة اليقظة الاسلامية والأصالة أن ترد هذه المفاهيم الزائفة وتكشف وجه الحق فى دعوى أن الحلاج كان مصلحا اجتماعيا أو داعية الى العدل الاجتماعى أو انه قتل فى سبيل تحرير رقيق الارض ، ولقد عنى لويس ماسنيون بأخبار الحلاج اربعين سنة يبحث عنها ويمليها ويعبد طبعها ويضع سمومها بين أيدى المثقفين فى هذا العصر ، حريصا أشد الحرص على أن ينفى الصلة بينه وبين القرامطة ، وقد واجه الدكتور محمود قاسم هـذه القضية وكشف وجه الحق فيها قال : بدا ماسنيون شديد الحرص على نفي الصلة بين الحلاج والقرامطة وظل يؤكد أن هذا المتصوف لم يكن داعية سياسيا بل انتهى به الحب الالهى الى التضحية بنفسه على مذبح الحب ، كذلك يؤكد لنا دون ملل أن الحلاج كان متصوفا سنيا أراد تعميق الروح الدينية فى بيئة جفت عاطفتها الروحية وتمسكت بقشور الدين دون لبه . وقد ظن ماسنيون وبعض تلاميذه أن الحلاج الذى قال بحلول الله فيه يعد جسرا بين المسيحية والاسلام السنى ومع ذلك فان هذا الحرص الشديد على نفى الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤذن على عكس ذلك بوجود هـذه الصلة بينه وبينهم ، وقد اعترف ماسنيون فى موطن ما من كتابه عن الحلاج بأن موقف هذا المتصوف من فريضة الحج كان سببا فى ادانته ومصرعه ، وأنه جرد مكة من أفضليتها وقداستها مما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منه ثم ارساله الى هجر حيث بقى هناك اثنين وعشرين سنة فلم يعد الى موضعه الا بعد أن استقرت الدولة الفاطمية وبعد ان ثبت الحكم الفارسى فى بغداد بدلا من الحكم العربى .

عاصر الحلاج حركتين شعوبيتين هامتين هما ثورة الزنج وثورة القرامطة وربما تكشفت لنا خيوط تربط احدى هاتين الثورتين بالاخرى وذلك أمر يتسق وطبيعة الأحداث التاريخية والاجتماعية . ويمكن القول

بدءا بأن القرن الثالث الهجرى شهد عدة حركات سياسية ترمى الى تقويض الدولة العباسية والتمهيد لدولة علوية ، بعد أن فشلت جهود القرن الثانى فى نقل الخلافة من الأمويين الى آل البيت .

وكان من الطبيعى أن نصطبغ هذه الحركات بصبغة دينية جلبا للانصار من الحانقين على الدولة العباسية وربما كانت هنـــاك دوافع اجتماعية وسياسية وعنصرية توجب الحنق على أصحاب هذه الدولة ، ولكن سارت الثورات السياسية جنبا الى جنب مع ظاهرة دينية اذ كان ادعاء النبوة أو الربوبية أمرا مألوفا فى تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية التى بدأت تتحلل لكى نمهد لظهور عصر الدويلات الصغيرة منـــذ أواخر القرن الثالث بصفة خاصة .

اذن لم يكن الحسين بن منصور الحـــلاج أول من ادعى الألوهيـــة ولا آخرهم ، فقـــد سبقه كثيرون كما تبعه آخرون فيما بعـــد ، وبعضهم كان من تلاميذه ونعنى به أبا عمر الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى

ساعد ضعف السلطة المركزية فى بغداد على تنابع الفتن فيها ثم على نجاح ثورة الزنج التى بدأت فى ٢٥٥ واستمرت نحوا من خمسة عشر عاما وقد بدأت هذه الحركة تحت لافتة دينية اذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة الى آل البيت وهو محمد بن محمد على عبد الرحيم ولد فى الطالقان بخراســـان وهى المنطقة التى كان يجوب فيها دعاة الاسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح والتى جال فيها الحلاج أيضا ــ بدأت الحركة بمجىء صاحب الزنج من خراسان وقد ادعى هذا الرجل أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى من أبناء الحسين ، ونجح فى كسب ثقة الزنج فاجتمعوا حـــوله ثم اتجه الى البحرين التى ستكون من أهم المراكز القرمطية فيما بعد فاتبعه جماعة من أهلها وغيرها ، وادعى لنفسه النبوة وزعم أن الوحى يئزل عليه . ثم انتقل الى البصرة ومنها الى بغداد فزعهم أنه ظهـــر له آيات وتلك هى الكرامة التى نسبها الحلاج الى نفسه أو نسبها اليه أصحابه فيما بعد وقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد ثم انتقل هو وأتباعه الى البصرة فى سنة ٢٢٥ أما صاحب الزنج فقد اختار البصرة مركزا له بعد أن عزل واليها ثم أخذ يستدرج العبيد وكون منهم جماعات نصب على كل جماعة فيهـــا رئيســا من بينهم ، وكان يعدهم الجنة فاجتمع لديه عدد كبير من غلمان أهل البصرة الذين اقبلوا عليه خلاصا من الرق والتعب ، ولمـــا قوى أمره سار الى القادسية ونهبها هو وأصحابه ثم عاد بهم وهاجم البصرة ووضع فى أهلها السيف بعد أن هزم جيشها فقتل من أهل البصرة خلقا كثيرا ، وقد رسم المسعودى صورا بشعة لكارثة البصرة فيقول : واختفى كثير من الناس فى الدور والآبار فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها والفيران والسنانير فافتنوها فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه . وهكذا لم

تلبث حركة الزنج أن كشفت عن وجهها الحقيقى فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين والقرشيين فى أسواق الرقيق ، وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الأسرى فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها بدون قتال كما فعل أهل عبادان ، وقد دخل الأهواز وخربها ثم أحرقها ولم يكن يحترم وعدا أو عهدا مع اعدائه ، وذلك انه لما دخل البصرة اقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت ولما طلب اهل البصرة الامان أمنهم فلما تجمعوا فى دار حددت لهم غدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم وأحرق البصرة فى عدة مواضع ، وهذا هو ما فعلوه بمدينة واسط عندما دخلوا اليها سنة ٢٦٤ هـ ، هزمهم أبو العباس الموفق الهزيمة الأولى ٢٦٧ .

ثم كتب الى صاحب الزنج كتابا يدعوه فيه الى التوبة ولكن الثائر لم يستجب فحاصر الموفق مدينته التى سماها (المختارة) وضيق عليها الحصار واجاد التأثير النفسى فى أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون من المدينة المحاصرة ، ومن بينهم بعض القواد وكانوا يطلبون الامان من الموفق فأمنهم وظل يحاصر المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها واخيرا اقتحم الموفق المدينة المحاصرة وأحرق قصورها وانقذ النساء والاطفال واستطاع القضاء على ثورة الزنج سنة ٢٧٠ .

ثم ما لبث أن نشبت ثورة جديدة بعد وفاة الموفق ٢٧٨ نعنى بها ثورة القرامطة التى امتدت قرنا من الزمان وقد اتهم الحلاج بأنه من كبار دعاتها والمروجين لها تحت ستار من التصوف وادعاء الالوهية الى جانب المناداة بابطال فرائض الاسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة وتوحيد أيضا . وقد حاول ماسينيون جاهدا أن ينفى عنه التهمة السياسية وان اقر بأن الحلاج نادى باسقاط التكاليف وبأن الولى عنده أعلى مرتبة من النبى وله أن يفسخ الشريعة وان يقرر عبارات جديدة ، وعلى الرغم من الفاصل الزمنى بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فاننا نجد انفسنا فى الواقع أمام ثورة متصلة اجيد تخطيطها والاعداد لها بصورة متقاربة .

ومن المؤكد أنه كانت للقرامطة (أيديولوجية) دينية لا تتسق مع ما يعرفه المسلمون عن دينهم سنية كانوا أم شيعة فقد ادعى القرمطى الأول أنه داعية المسيح وأنه عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو جبريل ، وينم هذا الخلط العجيب عن الطابع التلفيقى للماسونية والقرمطية والباطنية بصفة عامة .

ويخبرنا ابن الأثير أن قرمطا اتصل بصاحب ثورة الزنج قبل مقتله واخبره أن معه مائة الف ضارب بالسيف ، ولكن لم يتفق الرجلان لبعض الفروق المذهبية ، وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين الى حد كبير من سبى النساء والجوارى وقتل الأسرى والسلب والنهب .

كان أسلوب القرامطة امتدادا لأسلوب صاحب الزنج .

ويبدو أن الحلاج الذى كان يجوب خُراســـان منذ سنة ٢٨٥ هجرية لفترة امتدت نُحوا من خمس سنوات كان شديد اللهفة فى ظهور المهدى المنتظر يقسم بسنة ٢٩٠ هجرية وهى السنة التى كان يقسم بها بعض دعاة القرامطة فى خراسان أيضا ، وهذه السنة هى التى بلغت فيها ثورة القرامطة أوجها من العنف وقبض على الحلاج ٣٠١ . ويقول ابن الأثير انه كان مشعبذا فى قول بعضهم ومعه صاحب له فقيل انه يدعى الربوبية ، وفيما بعد قال الامام الجوينى امام الحرمين أن الحلاج كان من دعاة القرامطة وأنه اتفق هو الجبائى وابن المقفع على افساد عقائد الناس ، وتفرقوا فى البلاد فكان الجبائى فى هجر والبحرين وابن المقفع ببلاد الترك ودخل الحـــلاج العراق وان كان الحلاج لم يجتمع فى عصرهم ؛ غير أنه لم يكن لمقتل أبى سعيد الجبائى ولاربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد أحد خدمه من الصقالبة فى سنة ٣٠١ تأثير كبير فى حركة القرامطة التى مدت سلطانها على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين .

واخذ القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج بعـــد خروجهم من مكة .

والذى يعنينا هنا أن نفسر عنف القرامطة فى محاربة الحجاج والفتك بهم ، وسنرى كيف اضطر ماسينيون رغم محاولاته العديدة انكار الصلة بين الحلاج والقرامطة أن يعترف بأن الحلاج كان يريد ابطال فريضة الحج ويبدو أن محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفا أساسيا من أهداف الدعوة الفاطمية . أن ظاهرتى ابطال فريضة الحج وظاهرة ادعاء الألوهيـــة هما الظاهرتان الغالبتان ، وقد جمع الحلاج بين هذين الأمرين ثم اختلف الناس فى تفسير مقتله أكان بسبب محاولة اســـقاط فريضـــة الحج أم كان بسبب ادعائه للالوهية ، لكن يبـــدو انه كان يريد الأمرين معا ، فانه يصرح بأنه مدين بمذهب الحلول ، وهو عندما يجمع بين الامرين لايفعل سوى أن يســـير فى الاتجاه العام لكل من حركة القرامطة والدعوة الفاطمية ، وانه استعان فى سيرته هذه بالسحر والتصوف فى الوقت نفسه .

* * *

ويتحدث الدكتور بديع شريف عن الحلاج فيقول : كتب عنه ماسينيون كتابا كبيرا عالج فيه ناحية التصـــوف فقط ولم يتعرض للناحية السياسية كأن الحـــلاج لم تكن له صلة بالقرامطة ، وكأن الحـــلاج لم يكن له شأن فى أمور السياسة وقد عـــده المعـــرى فى رسالة الغفران من الزنادقة ، وقال عنه أنه مشعوذ ، وقال ابن النديم انه سياسى يروم قلب الدول ، وقال البيرونى عنه انه كان رجلا مشعبذا ومتصنعا ومازجا نفسه بكل انسان على حسب اعتقاده ومذهبه ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالاله وصارت له الى أصحابه رقاع معنونة بهذه العبارات من الهوهو الأزلى الاولى النور الساطع اللامع والاصل الاصلى وحجة الحجج ورب الأرباب ومنشىء السحاب ومشكاة النور ورب الطور المتصور فى كل صورة الى عبده فلان . وكان أصحابه يفتتحون كتبهم اليه بعبارة : سبحانك يا ذات

الذات الخ ، وقد فتن الناس به وارتبكت أمور الدولة فقبض عليه وحوكم علانية أمام جمع غفير وسئل فقهاء الشرع فى أمره فأفتوا بالاجماع بقتله ، وكان يمكن للمقتدر أن يتركه حرا يعبث بالصوفيـــة ويثرثر بهـــذه الألفاظ التى لا تنفثها عادة الا أفواه المعتوهين والمأفونين لولا أنه اكتشف سرا خطيرا وبان له أن الجبة التى قال عنها الحلاج كلمته المشهورة (ما فى الجبة الا الله) كانت ستاراً يغطى اتفاقا سريا بين الحلاج وبين رئيس القرامطة لقلب الدولة وتقويض أركان الاسلام ، وقضى المنصور على ابن المقفع وقتل المهدى بشار بن برد وفتك الرشيد بالبرامكة بعد ما كشف سر ما يبطنون له وقضى المعتصم على الأفشين وأفتى علماء المقتدر بقتل الحلاج فأهلكته » .

فانظر كيف يجدد الشعوبيون ودعاة التغريب لنا ذلك كله اليوم تحت ستار الأدب .

* * *

(٧)

الشـــــعوبيـــــون

ابن المقفع ـ أبو عبيدة ـ علان ـ أبو نواس ـ أبو العتاهية

١ ـ وقد كشف الدكتور بديع شريف عن جذور المؤامرة وحاول وضع النقط على كثـير من الحـروف وخاصة ما أورده المستشرقون : يقـول أن المستشرق الايطالى جويدى نشر مخطوطا لمؤلفه ابراهيم بن القاسم واسم الكتاب (الرد على اللعين : عبد الله بن المقفع) كشف به القناع عن زندقة ابن المقفع ، اقتطف ابراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد بدأ عبد الله قرآنه بطراز جديد من البسملة باسم النور الرحمن الرحيم ثم شرع يمدح النور وأنه منبع الخير والمعرفة ويهاجم الاســلام من حيث أنه دين والقرآن من حيث أنه منزل على محمــد وخاصة سورة الجن واحراقهم بالشهب ، ثم يستهزىء بالله حيث لم يجعل النصر للمسلمين الا بالسيف وعلى ظهور الخيل ، ويظهر جور الله وظلمه ، ومن ذلك قتل أنبيائه ورسله وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين الى يوم القيامة ، وأنه يسلط الأمراض والمصائب على الناس ويشعر بالغضب والحزن والالم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الاســلام ثم يتهكم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

والقاسم لم يذكر جميع رسالة ابن المقفع بل اقتطف منها جمــلا معدودة ولكنها تعطينا صورة للجدل الذى كان يثار فى ذلك الزمن والكفاح المستعر بين الملحدين والمسلمين ، وبتعبير اجلى للصراع بين الميــدانين وأسس الحضارتين ، كان عمل ابن المقفع عملا فرديا ولكنه عمل جبار فى الصراع بين هاتين الحضاريين ، ومع أن الدور الذى لعبه ابن المقفع له خطره ولكن اقل شأنا من الدور الذى لعبته أسرة البرامكة فى هذا الصراع .

٢ ـ وقد طرد البرامكة الأصمعى من بلاط الخليفة واحلوا محله أبو عبيدة . وأبو عبيدة مثقف جمع الى الثقافة العربية : الثقافة اليهودية والمجوسية فقد كان أبوه يدين بالتوراة وجده يعتقد بالمجوسية ، وكان شعوبيا متعصبا الف كتب المثالب والطعن على العرب ، منها كتاب المثالب فى قبيلة باهلة ، وآخر فى المثالب على وجه العموم ، يقول جولد سيهر أن أبا عبيدة مولع بوضع الأخبار ووضع الاحاديث التى تظهر خـلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجمها وشتائمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء » .

وكتاب المثالب يذكر فيه أبو عبيدة أنساب العرب ويرميهم بما ليس من الكياسة ذكره ، ولا يحسن وضعه ، وكان اذا رأى أمرا يشرف العرب أرجعه الى الفرس فاذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال ان العرب خلدوا بها الفرس ، ، وقد بالغ حتى جعل كثيرا من أخلاق بنى عدنان وقحطان وحياتهم راجعة الى بنى ساسان : يقول جولد زيهر : وهكذا يريد أبو عبيدة ان يقطف كل زهرة ناضرة فى اكليل الفخر العربى .

وقد انتشرت روايات أبو عبيدة فى كتب التاريخ وأصبح معتمدا لكثيرين من المؤرخين والمتفقهين فى اللغة فكان الطبرى يروى عنه أخبار القبائل العربية ونجد أمثلة كثيرة واضحة من اختراعه على العرب فى مثالبهم فى كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى .

٣ ــ وعلان أو غيلان كان شعوبيا عارفا بأنساب العرب منعطفا الى البرامكة نسخ للرشيد والمأمون فى بيت الحكمة وألف كتاب المثالب الذى هتك به العرب وأظهر مثالبها : يقول الألوسى : كان غيلان زنديقا ثنويا فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الاسلام بدأ فيه بمثالب قريش ثم سائر العرب ونسب اليهم كل زور ووضع عليهم كل افك وبهتان .

أما أبان بن عبد الحميد اللاحقى فقد كان موضع ثقة البرامكة ترجم لهم كتاب مزدك ونظم لهم كليلة ودمنة شعرا فوهب له جعفر البرمكى مائة ألف درهم .

أما أبو نواس وأبو العتاهية فقد هاجما السنة وبثا المبادىء الهدامة ومهد لهم الطريق بشار بن برد ، وقد نجح البرامكة فى تهيئة المكان الأول لأبى نواس فى مجلس الرشيد ، وهو شاعر لبق حاذق يخلط الجدل بالهزل ويبث مبادئه فى ثنايا هزله فكان يعد من كبار الثنوية زنديقا يهزأ بالدين ويراه قيدا من قيود الحياة ، وأن الآخرة والبعث خيال ، ويثير الشك فى العقيدة ويطلب الابتعاد عن الدين كما هى وسيلة المانوية فى محاربة الأديان ، والذين لا يعرفونه يقولون : ان أبا نواس رجل شغل نفسه بالخمر والغزل الخارج على المألوف ولكنهم لا يدرون أنه مدفوع بتعاليم البرامكة لنشر هذا الطراز من الشعر بين الناس فكان يعتمد على البرامكة والبرامكة يعتمدون عليه .

يقول المستشرق كريمر ناشر ديوان أبى نواس : ان أبا نواس كان يهزأ بالعقيدة المحمدية علانية دون وجل أو خجل ، وكان ينشر مبادىء الضلال والزندقة ولا يحجم عن الكلام عن كل ما يعتقد به ، كان يؤثر فى الرشيد تأثيرا مطلقا فكلما غضب الرشيد على البرامكة كسر أبو نواس سورة غضبه فى بيتين من الشعر ، وكان كلما اتهم بالزندقة شفعوا له عند الرشيد ، ولما قتل البرامكة حبسه الأمين فى حبس الزنادقة .

أما أبو العتاهية فقد لاحظ المستشرق فايدا اثر الثنوية فى أرجوزته المشهورة ، وقد وجدت ايضا فى ثنايا شعره ، وقد أخذ ناحية من تعاليم

المانوية هى ناحيـــة الزهد فى الحيـــاة مع أن الزهـــد ليس من طبيعـــة أبى العتاهية ، لم يتكلم الا عن الموت ولم يذكر البعث .

ترى هذا الشاعر يتحدث عن الزهد فى الحياة والانضواء بين القبور وخفـــاء الطموح والاستكانة الى الذلة والمســـكنة والاستســـلام لانقراض البشرية التى كانت المانوية تدعو اليه ، وكان ما قام به البرامكة واتباعهم فى عنفوان الحضارة الجديدة والدين الجديد مثل القنبلة انفجرت فى البناء الشامخ فصدعت جوانبه وتفتحت منها الثغرات بما نشأ بعد ذلك من البدع والضلالات التى كانت تتمثل تارة بأشخاص وتظهر تارة على يد جماعات ، فكانت الخرمية التى حاصل مبدئها رفع التكليف وتسليط الناس على اتباع الشهوات ، والقرامطة الذين عاثوا فى الأرض فسادا بتعاليمهم الباطنية وكانوا يستندون فى هذه التعاليم على تأويل القرآن تأويلا يتفق مع آرائهم وكانوا يرمون فى أعمالهم الى انتقال دين الاسلام الى عقيدة المجوسية .

* * *

(٨)

الـــــوحى والـــــنبوة

تتردد هذه الأيام كتابات جديدة عن الاســـلام والفــكر الاسلامى والثقافة العربية بأقلام كانت فى الفترة الماضية من دعاة الوجودية أو المادية أو الوضعية المنطقية ، وليس هـــذا مستغربا فان عددا من كتاب العصر الحديث أمثال الدكتور هيكل والعقاد وزكى مبارك ومنصور فهمى واسماعيل مظهر قد غيروا جلدهم فى فترة الأربعينات واتخـــذوا مواقف جديدة مغايرة لمواقفهم فى الثلاثينـــات ، وقد جرى تحليل هـــذا التحول وكشفت الأيام خلفياته وأهدافه وحقائقه ، بل أن هناك من تحول من الشـــعر الجاهلى الى هامش السـيرة .

فليس غربيا أن نجد عددا من الذين عرفوا منذ مطالع حياتهم بالتبعية للفكر الغربى وقد تجددت أهدافهم أو أجروا محاولات جديدة الى كسب جولات جديدة فى محيط القراء والفكر .

فليس غريبا أن تهتدى النفس البشرية الى طريق وطريق ، وأن تجد أنها كانت قد غفلت عن نهج ، أو عجزت عن ارتياد أفق ، ثم أتيحت لهـــا الفرصة لارتياده ، أو جاءت مناسبة ما لزيارة بلد عربى أو اسلامى تحت أى ظرف ما ، ثم كان لهذا الجو النفسى والاجتماعى أثره الفكرى ، وقديما غير زكى مبارك آراءه بزيارة الجزائر والمغرب ، وغير محمود عزمى آراءه بزيارة فلسطين ، وغير هيكل باشا آراءه بزيارة دمشق ، وتحول دعاة المصرية والفرعونيـــة والاقليمية الى دعاة العروبة أو ما كانوا يسمونه (الأقطار الشرقية الشقيقة) ، فليس عجيبا اذن أن يزور زائر مكة المكرمة أو ينتدب جامعى فى بلد عربى له طابعه الاسلامى ثم يكون من وراء ذلك رؤية جديدة للتراث أو فكرة جديدة عن التوحيد .

ولكن الملاحظ دائما أن العقل الذى تكون من خـــلال ثقافة الغرب أولا يحتاج الى جهد كبير حتى يكون قادرا على استيعاب الفكر الاسلامى أو فهم الاســـلام فهما صحيحا محررا من آثار المفهوم الغربى للعقـــائد ، وقد وجهت النقدات الى كتابات الدكتور هيكل فى حياة محمد وكتابات العقاد فى العبقريات وكتابات طه حسين عن هامش الســـيرة وعثمان وعلى ، حول منهج الكتابة ومنطلقها ، وقد اعتمدت كتاباتهم جميعـــا على مناهج الغرب فى تحليل الشخصيات وفى مفهوم البطولة بما يختلف ، بل بما يتعارض مع مفهوم الاســـلام .

وكذلك نجد هذا المنهج وقد اخذ طريقه الى كتابات الأجيال الجديدة ، حيث يوصف الرسول بأنه بطل ومصلح ورسول الحرية وداعية الثورة والى غير ذلك من صفات تختلف تماما مع حقيقة الرسول النبى محمد ابن عبد الله نبى الاسلام المؤيد بالوحى .

كذلك رأينا هؤلاء الكتاب الذين يقتحمون مجال الدراسات الاسلامية وهم يلتمسون فى الفكر الاسلامى مفهوما مختلفا عن مفهوم المسلمين انفسهم ، حيث يقف بعضهم عند التفكير الصوفى أو تفكير المعتزلة أو فكر الباطنية ، ثم ينمثل للناس انه انما يعبر عن مفهوم الاسلام .

والواقع أن هناك قضية اساسية فى هذا المجال هى أن الفكر الاسلامى نما وتطور من خلال اقتحامه آفاقا مختلفة منها الاعتزال والتصوف والفلسفة ولكنه انتهى الى أن شكل نفسه تشكيلا واضحا استقلاليا جامعا استقطب عصارة ما فى هذه المذاهب من قيم واستوعبها فى اطار مفهومه الأصيل القائم على التوحيد والايمان بالله .

فاذا جاء واحد من هؤلاء الباحثين فقصر نفسه على قطاع معين من هذا الفكر أو على مرحلة معينة من تطور هذا الفكر قبل اكتماله فى صورته النهائية بوصفه « السنة الجامعة » فانه يخطىء خطأ كبيرا ، حينما يرى انه على الطريق الصحيح ، والواقع أن الفكر الاسلامى قد صفى منذ وقت طويل خلافات الأحزاب السياسية التى تمثلت وراء المذاهب الفكرية وامتص عصارتها وحررها من أطرها المرتبطة بعصر معين أو جيل معين واستصفاها فكرا اسلاميا خالصا يستوعب قضايا المجتمعات والعصور دون أن يكون موضع احتواء الفلسفات اليونانية والفارسية أو الهندية التى وفدت مذاهبها الى أفق التصوف والكلام والعقائد .

ومن هنا فان الداخلين الجدد فى مجال الفكر الاسلامى بدعوى الاعتزال والقول بأنه يمثل الفكر الاسلامى ضالون ومضللون ، فالاعتزال وفكرة مرحلة سياسية وفكرية ، قد انقضت وانطوت وجاء بعد جزرها مد المفهوم الاسلامى ، كما كشف عنه الأشعرى ، ثم ابن تيمية وهكذا ، وليس الاسلام اذن دعوة عقلانية كما خيل لمجدد الفكر العربى ، كما انه ليس مفهوما باطنيا أو صوفيا كما خيل لمجدد تفسير القرآن ، وانما الاسلام فكرا ربانيا فى طابعه ، انسانيا فى منطلقه يجمع بين العقل والقلب ويحرر نفسه بالتوحيد من كل سلطان غير سلطان الواحد الأحد ، ولقد ينخدع بعض القراء حينما يرون باحثا اشتهر بالمادية أو بالوضعية قد أخذ يرد موارد الاسلام ولكنهم يجب أن يحذروا كل الحذر من أى فكر متلبس بالاسلام دون أن يكون على شروطه وأصوله ، وبيننا وبينهم : النبوة والوحى .

ذلك أن الجولة الجديدة للاستشراق انما تتميز بطابعها الصهيونى التلمودى ، وهو طابع يختلف من الاستشراق الغربى سواء منه الكنسى الطابع أو الاستعمارى الاتجاه .

هذا الاستشراق يتكلم كثيرا عن التوحيد وعن دور الأديان ومهمتها

وعن الدور الذى مضى وانقضى حين قام الاسلام برسالته فى مرحلة سابقة فأدى للبشرية خدمة كبرى — كأنما كان الاسلام مرحلة انقضت ، وكأنما ليس هو الرسالة الخالدة الباقية الى يوم الدين .

وابرز مظاهر هذا الطابع الحديث من الاستشراق : التشكيك فى الوحى والنبوة ومحاولة تصوير الأنبياء والرسل على انهم أبطال ومصلحون استوعبوا فكر أمتهم ، واستطاعوا صياغة التراث القديم فى صور جديدة الى غير هذا من دعوة مبطلة مضللة .

ولا ريب ان اصحاب مثل هذه الدعوى ممن يجب أن يوضع فكرهم فى دائرة التغريب والتبشير والغزو الثقافى ويعاملون معاملة المبشرين والمستشرقين .

واخطر ما يقول هؤلاء أن القرآن انطباع فى نفس محمد نشأ عن تأثير البيئة التى عاش فيها ، أو أن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحيا الهيا اعتمادا على القول بعبقرية محمد والمعيته وصفاء نفسه .

ولا ريب أن هدف اثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن . فانه ان كان من كلام محمد كان من عمل البشر ، وبذلك فقد معناه الأسمى وتفرق المسلمون وانتهى أمر الاجتماع عليه .

ونحن نعرف أن هناك فرقا واضحا بين كلام محمد وكلام القرآن فى النسق والنظم ، ولقد كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أميا لا يقرأ ولا يكتب وتلك حجة تدحض قول القائلين بأنه عرف ما فى الكتب السابقة ، ولقد كان علمه بشئون قومه لا يزيد على علم غيره ، فمن الذى أطلعه على قصص الأولين .

ولا ريب أن الوحى ليس ظاهرة نفسية داخلية نبعت من كيانه — صلى الله عليه وسلم — وانما هى حقيقة مستقلة عن ذاته استقبله من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحى .

ولما كان الوحى هو حجر الرحى فى النبوة وفى الدين كله فقد ركز عليه دعاة التغريب وأثاروا حوله الشبهات . وزعموا أنه من الالهام الخفى ، وزعم آخرون أنه كان اشراقا روحيا ووصفه آخرون بأنه نوع من الصرع .

ونحن المسلمين نؤمن بالوحى ايمانا كاملا كجزء من ايماننا بالغيب وبالنبوة ، ونرى أن معارضيه أو المشككين فيه لبسوا من جماعة المسلمين ، وأن زيفهم مهما وضع فى قوالب براقة فانه لا يخدع النفس المسلمة .

وقضية الوحى والنبوة هى كبرى الركائز فى بناء المجتمعات والحضارات والتماس منهج القرآن وشريعة الاسلام ، والتشكيك فيهما محاولة لقطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن الذى هو الأثر الوحيد الباقى على الارض

من رسالة السماء ، وهو الهدى الممتد بالضوء الى النفس البشرية والأمم والمجتمعات الى يوم الدين .

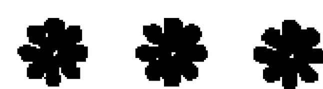
ولا ريب أن محاولة النظريات المادية المستحدثة فى معارضة الوحى والنبوة والغيب كله هى معارضة حققت أسباب فشلها فى واقع الأمم والمجتمعات التى اعتنقت هذه النظريات .

فقد تأكد بالبحث أن العقل غير كاف وحده فى فهم كل شيء وأن العلم قد عجز عن أن يقدم اجابات عن الأشياء ، وانما يقف عند حدود « ظواهر الأشياء » وأن المجتمعات التى صنعت شرائعها وقوانينها وايدلوجياتها قد فشلت وعجزت عن أن تحقق المجتمع الصحيح أو أن ترد للنفس الانسانية سكينتها وطمأنينتها ، ومن هنا كانت البشرية دوما فى حاجة الى نبى والى وحى ، هذا النبى وهذا الوحى لا يعارضان العقل بل يلتقيان معه فى طريق الفطرة الانسانية .

ومن ثم يؤكد العقل دليل الوحى ، فالنبى يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد والآخرة والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التى تدرك بالعقل ، حسنها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحى للبشرية .

ولقد ثبت زيف دعوى العلوم الاجتماعية والأخلاقية والنفسية فى دعوتها الباطلة بوصاية الأديان على الانسان بعد أن بلغت البشرية رشدها ، ذلك أن البشرية لم تبلغ رشدها بعد ، وهى تقف على أهبة الصراع الذرى وهوله يهزها من الأعماق ، فليس هناك سبيل ازاء التقدم المادى الا الدين والوحى هاديا ومرشدا ، ومن الحق أن يقال أن البشرية على الرغم من هذا الزمن الطويل الذى يقدر بملايين السنين ما زالت عاجزة — على حد تعبير الأستاذ محمد المجذوب — عن حماية نفسها من المطامع والحروب والمذابح ولن يحميها من ذلك الا الوحى والنبوة .

وجملة القول أن بيننا وبين الداخلين الى ساحة الاسلام : الوحى والنبوة .



(٩)

المــؤامـــرة اليهـــوديـــة للقضـــاء على أصـالة الإســـلام

اشار العقد الفريد الى قول الشعبى لمالك بن معاوية حين قال :

« أحذرك الاهواء المضلة وشرها الرافضة فانهم يهـــود هذه الأمة يبغضون الاســـلام كما يبغض اليهود النصرانية ، لم يدخلوا الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتا لاهل الاسلام وبغيا عليهم ، وقالت الرافضة : لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وكذلك قالت اليهود من قبل :

ويقول صاحب العقد الفريد : كان لليهود اثر غير قليل فى بعض المذاهب الاسلامية ولا ريب أن ملامح المؤامرة اليهودية واضحة فى تاريخ الإسلام وضوحا تاما .

* أبو لؤلؤة الفارسى ومقتل عمر بن الخطاب « المؤامرة اليهودية المجوسية » .

* عبد الله بن سبأ وفكرة الحق الالهى فى الدولة وابطال الشورى .

* حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية .

* التأويل فى نصوص الكتاب والسنة والقول بالظواهر والبواطن .

* صناعة البدع والمحدثات واشاعة الخرافات الغامضة .

* فلسفة الاشراق ومسائل الاتحاد والحلول .

والمعروف أن مختلف الفرق الباطنية والمضلة تقوم على التأويل : والتأويل « غير التفسير » يقصد به باطن المعنى أو رموزه واشاراته أو الجوهر الخفى وراء الكلمة التى لا تدل عليه .

كما تقوم هذه الفرق على اســـقاط التكليف وحط أعباء الشرع عن

المتعبدين وتسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات وقضاء الوطر فى غير المباحات وفى المحرمات .

ان هدف المؤامرة اليهودية منذ قديم هو هدم الاسلام من الباطن : هدمه فكريا وعقائديا ولذلك فقد اشاعت بين جماهير المسلمين مجموعة من الأفكار التى تنطوى على الخرافة والتخذيل النفسى وتقديم تفسيرات مضللة عن الاسلام وكانت من أكبر الاسباب التى حولت المسلمين عن تكوينهم النفسى ونظامهم الاجتماعى .

وقد جمعت هذه الأيدلوجية اليهودية بين طرفين بالفصل بينها من حيث يجمع بينهما الاسلام : طرف عقلانى صرف يغلو فى مفهوم العقل والحس .

وطرف حدسى خالص يغلو فى مفهوم الروح والوجدان .

ولقد جرى بعض ذوى الأهواء من المسلمين وراء هذا المفهوم الزائف لانه يرضي الرغبات المذلة ويحرر النفس من الضوابط والقيود ، ويحول دون اقامة الحدود — حدود الله التى لا يجوز أن يعتدى عليها .

وخلفوا وراءهم مفهوم الاسلام الجامع المتكامل :

واذا نظرنا اليوم وجدنا الصورة تتكرر حيث يؤمن المسلمون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فهم اما عقلانيون أو حدسيون ، وهم قد يحققون فى حياتهم مفهوم العبادة ولكنهم يغضون — جهلا أو قصدا — عن مفهوم ارتباط الاسلام بالمجتمع وتطبيق الشريعة .

ونرى فى كثير من الكتابات المعاصرة ، هذا الطابع الباطنى المسرف فى الاعتماد على كتب معينة سواء من كتب المعتزلة او الباطنية أو الصوفية والفلاسفة ظنا منهم أن اى نوع من هذه الأنواع هو مفهوم الاسلام ، أو أنه يمكن أن يصححوا به وقد وقعوا على مفهوم الاسلام الصحيح ، وعيب هؤلاء أنهم لا ينظرون نظرة كلية الى حركة التطور التى صاحبت الفكر الاسلامى فى القرون الأربعة الاولى من حيث ارتباطه بالفرق والاحزاب السياسية ومن حيث طبيعة شكله بعد أن اتصل بالفلسفات المختلفة .

ولا ريب أن الاعتزال والكلام والتشيع والتصوف كلهما مراحل فى فكر واحد وحلقات متصلة استعلت بنفسها ثم غلب عليها مفهوم الاسلام الجامع الذى شكل جامعا لخير ما تناولته هذه الفرق والدعوات بعد أن صفاها من أسباب الصراع والخلاف السياسى والفردى واستوعب عصارتها فى أعماقه .

فالاسلام نظر عقلى واشواق روحية وحب لاهل البيت ودعوة للحوار مع غير المسلمين ، ولكنه ليس عقلا خالصا كما يظن من يقرؤون فكر المعتزلة ويظنون أنه هو الاسلام وحده ، أو من يرون ان الاسلام حين

تجاوز الاعتزال فقد ميزته فى النمو والحركة ، كل هـذا لا يصدر الا من أصحاب النظرة الجزئية التى تسيطر على الفكر البشرى عامة والفكر الغربى فى العصر الحديث .

ويردد كثير من الباحثين الذين يتبعون مدارس الاستشراق والتغريب عبارة « هزيمة المعتزلة » ويريدون بها القول بأن هذه الهزيمة انما كانت عاملا من عوامل التأخر والتخلف ، والقائلون على هذا النحو لم يستوعبوا حقائق الاسلام ولم يفهموه فهما صحيحا وربما فهموه من داخل دائرة الفكر الغربى .

والحقيقة ان هزيمة المعتزلة كانت نتيجة الطبيعية القاصرة التى تختلف مع جوهر الاسلام ومع طبيعة الفكر الاسلامى ومنهج المعرفة الاسلامى هذا المنهج الذى يقوم على جماع العقل والوجدان .

لقد كان الاعتزال أساسا محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التى كانت تحتمى وراءها الأديان المعارضة للاسلام وقد ادى دوره فى هذا المجال على أحسن وجه ، وواجه علماء الكلام فى الاديان والفلسفات الاخرى فى قوة وأدال منهم وحقق كثيرا من النتائج وأدخل مئات من الوثنيين فى الاسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو فى تأكيد موقفهم وفكرتهم ، حين أعلوا شأن العقل وبلغوا به مبلغا خطيرا ، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ، ويؤمنون بالوحى والعقل ويتكامل ايمانهم هذا ويتشكل فى وحدة واحدة ، فان اعلاء شأن العقل وحده كان خروجا على مفهوم الاسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح ومن هنا جاءت التعديلات والتصحيحات التى قام بها الامام أحمد بن حنبل اذ كان لا بد أن يعود الاسلام الى أصوله وأن يتحرر مما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من الانحراف .

وبذلك كانت هزيمة المعتزلة نصرا لاصالة الاسلام وتعديلا لمسار فكره وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعا الى أن الاعتزال كان وليد الفكر اليونانى وتابعا له وأنهم كانوا يتمنون له نجاحا مطردا يخرج الاسلام من مقوماته كما أخرج المنطق اليونانى الأديان السابقة ولكن أصالة الاسلام كانت أكبر من هذه الفلسفة اليونانية .

ولذلك فان الدعوة التى تتردد اليوم حول (تجديد الفكر العربى) مستخدمة فكر المعتزلة هى دعوى باطلة لانها لا تفهم الاسلام ، ودعوى زائفة لأن الاعتزال ليس هو الفكر الاسلامى ولكنه مرحلة من مراحل تطوره وتشكله انصهرت بعد بما فيه انصهارا كاملا .



كذلك تجيء الدعوى الأخرى الى تفسير القرآن تفسيرا باطنيا ، وهى لاتعدو أن تكون حلقة من الدراسات الشعوبية الحديثة التى تستمد مصادرها من الفكر اليهودى ، القائم على الاسرائيليات والذى يتصل بالباطنية واخوان الصفا والسبئية والقرامطة .

ولا ريب أن محاولات تفسير الجزاء بأنه روحى والجنة والنار بأنه شعور نفسى ، والتى تحاول أن تبيح ما حرم الله من حدود اللباس ، والزى والزينة . كل هذا زيف مردود وقديم من المجوسية التلمودية يتجدد على أيدى دعاة ربما لا يعرفون مدى خطر الكلمة التى يقولونها .

ويرجع هذا الى أن قراءات أصحاب هــذا الفكر تنصب على كتب التصوف الفلسفى ورسائل اخوان الصفا وكتابات ابن المقفع وابن الراوندى وغيرهم ممن ينكرهم الفكر الاسلامى تماما ويشجب صلتهم به .

ويعود بنا هذا مرة أخرى الى قانون المفاصلة القرآنى الذى تجرى محاولات كثيرة لتزييفه اليوم تحت أسماء (الثقافة العالمية ، التبادل الثقافى ، التقاء الثقافات ، وحدة الفكر البشرى) الخ .

انما تريد كل هذه الدعوات دمج الاقل فى الكثير والضعيف فى القوى والفكر الاسلامى الآن وأمته فى موقف الحرج ، وفى أفواه الازمة الكبرى ، وفى موقف التحــدى ازاء الغزو الثقافى والســياسى والاجتماعى والعسكرى لا يســتطيع أن يستعلن وجــود ثقافته المتميزة ولا يســتطيع أن يفرض طابعه .

ولذلك فهى فى موقف الاحتواء ، من الثقافات العالمية التى تتقارب الآن سواء أكانت راسمالية أم ماركسية أم صهيونية ، بينما يقف الاسلام وحده ثابتا شامخا كالطود لا يمكن أن ينصهر أو يحتوى أو يغرق فى أتون هــذه الثقافات فهو وحده الدين الخالص والفكر الربانى ذو الطابع الانسانى .

وتلك هى دعوة القرآن الى المسلمين منذ أربعة عشر قرنا فى المفاصلة والمواجهــة والوقوف على معالم واضحة ، وقول معروف فاصــل ، دون أن ينطوى أو يقبل التبعية .

وذلك هو « الخطر » القائم أمام الغزو العالمى التلمودى الذى يستهدف السيطرة على العالم كله واذلاله للايدلوجية اليهودية التى رسمتها بروتوكولات صهيون .

وقد فاتت مرحلة استطاعت فيها الصهيونية ان تحتوى الفكر الغربى كله وأن تحركه من داخل دائرتها فى مختلف مجــالات الاجتماع والسياسة والنفس والأخلاق والتربية .

واليوم يواجه المسلمون المعركة : من خــلال صلتهم بالفكر الغربى الذى وقع تحت الاحتواء التلمودى والذى يحمل الآن جذور المؤامرة اليهودية الكبرى .

ان قانون المفاصلة القرآنى يقول :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

« انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم » .

« ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » .

وصدق الله العظيم .

* * *

الباب السابع

الفرق الضالة

(١)

ظهرت فى العصر الحديث فرق كثيرة ضالة منها ما هو منفصل عن الاسلام يحاول السيطرة على فكره ومنها ما هو منتسب الى الاسلام ويتسمى باسمه كالأحمدية والقاديانية .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على أرضية خلقتها كتلب التغريب ودعاة الغزو الثقافى بالحديث عما أسموه (الفكر الحر) فى محاولة لفتح باب الحوار مع هذه الفرق الضالة والدعوات الهدامة . يقول محمد عبد الله عنان : يرى بعض الباحثين فى تاريخ الخلفاء والحركات الهدامة أن حركة التفكير الحر فى الاسلام ترجع فى الأصل الى نشاط الدعوى اليهودية التى تصد بها الدعاة اليهود أن يثأروا لدينهم ولانفسهم بهدم النصرانية والاسلام ، وأن حركة الهدم والالحاد التى وثبت بادىء ذى بدء فى فارس وكان قوامها ابن ديصان وولده عبد الله دبرها دعاة (الكابالا اليهودية) التعاليم العبرية السرية ثم تعهدوها بالنصح والمال » .

وفى هذا العصر نجد القاديانية والبهائية والروحية الحديثة وقد القت بثقلها فى المجتمع الاسلامى كله ووجدت من الفرص الذهبية ما يمكن لهـا وحال وقتا طويلا دون كشف زيفها ، حتى أن بعض كتـاب العرب تابع المستشرقين وأعلن أن القاديانية والبهائية هما دعـويان تجـديفيتان فى الاسلام ، وقد جاء ذلك نتيجة العجز عن دراسة الخلفيات التى دفعت هذه الدعوات وهى الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية ، فالواضح أن هذه الطوائف الدخيلة تلقى المعونة والتوجيه من المستعمرين والمبشرين واليهود ، وهم يعدونها لمـا أسموه « ضرب الاسلام بالاسلام » هذه الطوائف تقدس زعماءها وترفعهم فوق مرتبة البشر وتشرع لاتباعها من الدين ما لم يأذن به الله مستغلة اسم الاسلام لهدم الاسلام .

والمعروف أن النفوذ الاستعمارى قـد اعتمد كثيرا على القـاديانية والبهائية فى فارس والهند ، وكلتا الحركتين قد اعتمدتا أساسـا على الغاء أصل ثابت وخطير من أصول الاسلام وهو الجهاد دعما لبقاء الاستعمار والتعاون معه وقبول سيطرته وحكمه وسلطانه .

وقد أتاح النفوذ الاستعمارى للحركة البهائية حرية الحركة فى العالم الاسلامى ، وفى مصر اهتمت صحف التبشير والاستعمار بالحركة وأولتها قدرا أكبر من العناية ، ومن العجب أنه عنـدما نضحت مخططات التبشير ٣٢ — ١٩٣٣ فى مصر وخفت صوت التبشير ، لم يلبث صوت الحركة البهائية أن علا ونشطت الى العمل ، وكانت لها مراكز فى القاهرة والاسكندرية

وبور سعيد والاسماعيلية والسويس ، ولها نشرات متنوعة وكتب يعلن عنها مؤلفوها ، ان بهاء الله مؤسس البهائية ، هو رسول الله الأعظم وسفيره الذى جاء بما يحقق أسمى رغبات الانسان وتوحيد الأديان جميعا تحت علم البهائية ، وأن الاسلام كان لعصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهى دين العصر الجديد ، ولاريب أن للبهائية أساليب تختلف عن أساليب المبشرين ، ولهم فى الاباحية الأخلاقية منطق عجيب الى جمع السذج والاغرار، اذ تهدف البهائية الى اخراج المسلم من عقيدته الاسلامية ، وجعله يتشكك فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه خاتم المرسلين وان الاسلام هو خاتم الشرائع السماوية .

وتنكر البهائية الدعائم الأربع الاساسية للاسلام : فهى تنكر عقيدة جهاد الاعداء والصمود لعدوانهم ، وتنكر عقيدة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتنكر عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الاسلامية وحمايتها من الذبول ، وتنكر عقيدة الحج التى تعمل على تثبيت الوحدة ودعم الجماعة .

وقد ارتبطت البهائية باليهودية العالمية ، كما ارتبطت القاديانية بالاستعمار واستهدفت الأولى تمييع الفواصل الاساسية بين الاسلام وبين تفسيرات الاديان واستهدفت القاديانية الغاء أعظم قوائم الاسلام وأكبر عقائده ، وهى الجهاد .

يبدأ هؤلاء وهؤلاء من الاسلام ، ويتمسحون به فيحملون كلمات المهدى والنبوة والاصلاح والاستخلاف . وقد أسقط رؤساء البهائية فرائض الصلاة والصيام والحج والجهاد والحدود والقصاص وسائر ما جاء فى الكتاب والسنة من تعاليم .

والبهائيون لا يؤمنون باليوم الآخر أو الجنة والنار والجزاء ، وقد اخذوا بتفسير الباطنية لها . وقالوا : ان القيامة هى قيام الروح الالهية فى مظهر بشرى جديد ، وقالوا عن الجنة انها فرح روحى ، وعن النار انها حرمان من معرفة الله .

وهم يزيفون ما يسمونه دعوة التقريب بين الاديان ، أو بين الشرق والغرب ، وهم يستهدفون من هذه الوحدة الغاء الاسلام وحده ، ويمجد البهائيون الصهيونية والاستعمار ، وقد كشف كثير من الباحثين ، ورؤساء الكنائس حقيقة البهائية وسيطرة النفوذ الأجنبى عليها ، قال رئيس كنيسة (دستيى تمبل) انها فى روحها مطابقة لجميع الخطابات الدينية التى تسمعون كل أسبوع ، ولقد تصافح الليلة الشرق والغرب .

وكان البهاء يزعم أن دين التوحيد الذى جاء به رسل الله وخاتمهم محمد قد أفسد الشرق والغرب ، وكان يؤمن بأن المسيح هو الله (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) والحق يشهد أن الدين الذى أرسل به عيسى يختلف عن التفسيرات التى عرفها الغرب ، وأن عيسى بن مريم رسول الله وعبده وأنه بشر .

وقد لخص الباحثون فساد هذه الفرقة الضالة فى محاولتها الخطيرة الى :

أولا : محاربة اللغة العربية ، وذلك بتبديل اللغـــة الفصحى بما يسمونه اللغة النوراء ، ومحاربة لغة الاسلام العالمية ، وهى لغة القرآن العربية واستنكار عالمية اللغة العربية ، وكونها اللغة المشتركة : لغـــة الصلاة والعلوم الاسلامية لتمزيق الصلة بين حاضر المسلمين وتاريخهم وتراثهم .

ثانيا : ادعاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للاسلام وللاديان جميعا ودعوة الى وحدة الاديان واتحاد العالم .

ثالثا : الخروج من الأديان جميعا والدخول فى دين جديد ، ومتابعة الماسونية فى ترك الأديان والاجتماع على دين واحد هو دين الحب ، وهم بذلك أضافوا اختلافا جديدا .

رابعا : دعوة السلام العام ، وهى دعوة اسرائيل التى ترمى الى خدعة البشرية تحت اسم زوال الحروب ، وحلول السلام والاتحاد ، وقد كانت دعوة العالمية والسلام العـــام هى دعـــوة الصهيونية والماسونية والشيوعية .

خامسا : مساواة النساء بالرجال وابطال شريعة الاسلام واحكامها فى شأن المرأة ، والبهائية تدعو الى الاختلاط الفاجر بين النساء والرجال طريقا الى الاباحية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجل كيفما شاء ومتى شاء واعلانه فلسفة اللذة ومشاركة المرأة والرجل فى صالات الرقص والنوادى الليلية ، والحرية الجنسية المطلقة . ومن نتائج هذا الهدف تدمير الأسرة وانحلالها وانتشار القلق الاجتماعى .

* * *

وقد تبين من التحقيقات الرسمية التى أجريت للبهائية عام ١٩٧٢ قول احدهم انه لو اجبر على حمل السلاح فى مواجهة اسرائيل لأطلقه فى الفضاء وان ذلك هو شعار البهائية ، وادعى زعيم البهائية أن بهاء الله هو المسيح ، وان الباب هو المهـــدى المنتظر ، وأن للقرآن معنى ظاهرا ومعنى باطنا لا يعلمه الا الله . وقال ان البهائية يزيدون على ٦٠٠ مليونا فى العالم ، وقال انه بظهور البهاء انتهى التشريع الاسلامى وانتهت أمة المسلمين وان رسالة البهاء ستستمر الف عام ، وزعم أن العذراء مريم تزوجت بعد مولد المسيح من يوسف النجار وأنجبت .

ولا ريب أن هذه المفاهيم تكشف عن روح اليهودية العالمية والتلمودية الواضح الصريح فى ثنايا هذه العقيدة .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفى مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدى الذى قال : أن طموح البهائية الى أن تكون دينا عاما يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم ، هو مما يقضى بالعجب لانها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول اليها بعد أن بالغت فى عرض نفسها على الأمم ، فأين هى من الاسلام الذى بنى أمما قوية ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال مثل حيويته الأولى حتى لتوقع فلاسفة كثيرون منهم برناردشو ان مبادىء الاسلام توشك أن تعم العالم أجمع على أصلين ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم . فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق ، وهى تقوم على أصلين ، أحدهما عتيق غامض تام به أفراد من محبى السبح فى الخيالات فهى تصـــور ذات الله بصــور المخلوقين . وثانيهما : وهو صرف الالفاظ عن ظواهرها ، وفيه مجال فسيح للظنون والأوهام والحظ ، وتدعى البهائية أنها أتت العالم بجديد فى الاصول ولم يدر فى خلد المصلحين قبلها كاتحاد الأديان وترك العصبيات واتحـــاد الاجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل ، أما ما سموه باتحـــاد الاديان فقد سبق اليه الاسلام وأسسه على اقوى الأصول وحاطه بأحكم الدلائل فقرر ان أصل الاديان كلها واحد وان الخلافات التى بينها ما حدثت الا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الاوهام ، فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضا ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم . ان البشرية ليست فى حاجة الى دين جديد بعد الاسلام فانه استكمل جميع شرائط الدين العام » .

هذا ومع أن البهائية قد انقضى على دعوتها نصف قرن أو يزيد فما

نرى انها استطاعت أن تحقق هدفا واحـــدا من أهدافها فى اتحاد المشرق والمغرب أو اتحاد الاديان أو الأجناس أو زوال الحروب ، وكل ماكشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الاباحية والالحاد التى حملت كل سخائم الباطنية القديمة وأعادت طرحها على البشرية مرة أخرى .

وقد كشفت البهائية عن صلتها الجذرية باليهودية العالمية عندما عقد فى اسرائيل المؤتمر العالمى للبهائية وتبين انها استخدمت النهائية منذ وقت طويل منذ ما كان يقيم عباس البهاء فى حيفا .

أما القاديانية التى تحولت من بعد الى فرقتين احداهما الأحمدية فانها كانت فى أساسها نتاجا استعماريا استهدف ضرب مفهوم الاسلام الصحيح وتنحية مفهوم الجهـــاد وخلق جماعات تحت اسم الاســـلام تتقبل النفوذ الاستعمارى وتعاونه وتخضع له .

فالقاديانية مؤامرة حقيقية على الاســـلام ترمى الى اضعاف القيم الاسلامية وتمجيد القيم الدخيلة للفكر الاجنبى ، أما اضعاف القيم الاسلامية فان ذلك يجرى عن طريق شرح بعض تعاليم الاسلام بما يضعف الاسلام فى نفس المسلم ، أو خلق فكر آخر على أساس تفسير خاص لاصل من أصول الاسلام سيصبح فيما بعد مذهبا من المذاهب الاسلامية ، على حد تعبير الدكتور محمد البهى يقول : يتمثل ذلك فى خلق مذهب الأحمدية فى أواخر القرن ١٩ بفعل مؤسسة ميرزا غلام أحمد القاديانى بعد أن تهيأ الجو الفكرى والثقافى والروحى لنشأة مثل هذا المذهب عن طريق السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة وصاحب التفسير القرآنى المشهور والداعى للولاء والتعاون مع السيادة الانجليزية فى الهند طوال القرن ١٩ .

هذا المذهب يشرح فكرة الجهاد فى الاسلام على انها كانت فكرة مؤقتة حتى يستقر الاسلام نفسه كدين وحتى يستقر أمر الجماعة الاسلامية ، لذلك فانه لا يجب تنفيذه بالســـيف أو بالقوة وانما يجب سلوك الطرق السلمية فى الدعوة الى الاسلام ويتحقق بهذا هدف الولاء للحكومة الانجليزية وبهذا التفسير يبطل العمل بمبدأ الجهاد على نحو ما عرف فى صدر الاسلام ، والمعروف أن مبدأ الجهاد فى الاسلام قصد به عدم انهيار الجماعة الاسلامية وانصهارها فى جماعة أخرى .

ولا ريب أن هذه الدعوات تسعى الى اخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد وتغيير مفهومهم الاصيل والجامع للتوحيد والجهاد والعدل .

وقد انتقلت دعوة القاديانيـــة من نبى فى القاديانيـــة الى مصلح فى الأحمدية يحاول أن يستعيد لها بعض الثقة فى النفوس التى رفضتها .

ولا ريب أن هـــذه الدعوة وغيرها يستهدف طمس منابع الاســـلام والحيلولة دون وحدة المسلمين . والعمل على اعلاء العنصرية التى تقوم على الأجناس — على وحدة الفكر الذى جاء بها القرآن .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على سلاح (التأويل) الذى هو منهج اليهود القائم على مبدأ اذبح الناس بيد بعضهم البعض ؛ وقد أولت القاديانية والاحمدية آيات الجهاد تأويلا ابعدها عن مقاصدها ، وقال القاديانى صراحة : لقد أسقط الله عنكم فريضة الجهاد وهو ما وصف بأنه « ضرب ركن الجهاد بسيف التأويل » وفى هذا متابعة لاخوان الصفا الذين قالوا : أن التأويل للحكماء والتنزيل للدهماء .

وتخالف الأحمدية الاسلام فى ثلاث نقاط : طبيعة المسيح ، دعوة المهدى ، فريضة الجهاد ، وتقول الاحمدية أن المسيح لم يصلب ولكنه مات فى الظاهر فقط ، وخرج وهاجر الى الهند ، وتقول الاحمدية أن وظيفة المهدى هى الدعوة الى السلام وأن الجهاد يجب الا يقوم على امتشاق الحسام بل يجب أن يقوم على وسائل سلمية وهم يظهرون فى كل الظروف ولاءهم الخالص للحكومة البريطانية ويعتقدون أن المهدى يتجسد فى المسيح والنبى فى وقت واحد .

يقول الشيخ عبد الرشيد ابراهيم : « أما ما ترجمه رجال من القاديانية فلا تحسن الظن بهم لانهم جماعات من محدثات سياسة الانجليز لتشتيت جمع المسلمين ، ونعلم قطعا احتياج الانكليز الى زعماء من المسلمين لاضطهاد الاسلام فظهر بسبب ذلك البابية والبهائية والقاديانية » .

ولقد حققت دعوة القاديانية نتائج خطيرة منها اثارة الجدل بين العلماء وشغل المسلمين فضلا عما أثارت من شبهات عن تقديس قاديان كمكة لوجوب الحج اليها وتحويل المسلمين من مكة ، واثارة العنصرية بشأن رسول عربى ونبى هندى واعتبروا هذا انتصارا وطنيا . ووقف نهرو يؤيد القاديانية ورد عليه الدكتور اقبال ردا عنيفا ودعا المودودى الى أن تعتبر القاديانية طائفة غير اسلامية كالبهائيين وقد أعلن عن تنفيذ ذلك فى السنوات الأخيرة .

* * *

(٣)

يقول الأستاذ محمد تقى الدين : أن الهدف من القاديانية هو اعادة عهد الوثنية الأولى لتعيد ذكرى برهما وبوذا ولكن بصورة أخرى يقطعون بها على صغار العقول طريق الفطرة الاسلامية .

أولئك القوم هم جماعة القاديانية الهنود الذين أخذوا اسم الاسلام واطلقوه على عقائد مختلفة . ساقهم ميراث الوثنية للرجوع الى العقيدة الأولى التى كانت تنفس عنهم هذه الآلام ، فدعوا الى المنقذ وأخذوا يفكرون أيكون وريث براهما فى الالهية أم وريث بوذا فى النبوة ، ولم يكن يمكن نجاح دعوتهم اذا جنحت الى الميراث البرهمى فى دعوى الألوهية لأن عقلية مسلمى الهند استنارت بنور الاسلام وترفعت عن هذا الاسفاف ، فحاولوا أن يتخذوا منزلة هذا المنقذ منزلة النبوة ولكن بصورة أخرى تكون قريبة من ادراك الجاهلية فاتخذوا من غــلام قاديان نبيا يبعثون فيه عقيــدة المنقذ ورأوا انه لا بد له من مبادىء ينشرها ويدعى انه أوحى اليه بها فلم يجدوا مبدأ أصلح ولا شريعة أسمى من شريعة الاســلام فراعوا اتخاذها شريعة لهذا النبى الكذاب وعبثوا ببعض مسائلهــا ونظروا فى بعض عقائدها فخالفوا ما فيه من الخلاف ظاهرا واتخذوا من تحريف أقوال الشريعة أدلة على صدق نبوة غلام قاديان .

وقد كشف غلام أحمد القاديانى هويته وانتماءه فقال : لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتهــا ، فلقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الانجليز من الكتب والاعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها الى بعض لملأ خمسين خزانة ، وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر والشام وتركيا ، وكان هدفى دائما أن يصبح المسلمون مخلصين للانجليز ، لقد ظللت منذ حداثة سنى وقد ناهزت اليوم على الستين أجاهد بلسانى وقلبى لأصرف قلوب المسلمين الى الاخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لهــا والعطف عليها والغاء فكرة الجهــاد التى يدين بها بعض جهالهم والتى تمنعهم من الاخلاص لهذه الحكومة .

وكان من نتيجة ذلك أن أقلعت الوف من الناس عن فكرة الجهــاد التى كانت من وحى العلماء الجامدين وهذه مأثرة أتباهى بها يعجز المسلمون فى الهند أن ينافسونى فيها ، (ص ١٠ من الطبعة السادسة من ملحق كتابه شهادة القرآن) .

.. وتكشف الوثائق والدراســات عن الصــلة الواضــحة والجــذرية بين القاديانية والبهائية ، فالقاديانية فى الهــند والبهائية فى فارس الغت

الجهاد الغاء كاملا فى وقت كان فيه المسلمون فى أشد الحاجة الى طرد الغاصبين ، يقول مؤسس البهائية : أن البشارة الأولى لجميع أهل العالم هى محو الجهاد من الكتب — أى القرآن — (نبذة من اشراقات بهاء الله ص ١٠٩) .

وأشار مؤلف كتاب حقيقة البهائية والبابية أن البهائية حركة منحرفة مشبوهة أسسها الميرزا غلام أحمد القاديانى من لاهور من بلاد الهند وهو تلميذ للبوشتى الداعية الباطنى المشبوه بعد استعمار روسيا القيصرية لملكة القوقاز . يحضر روسى ليزود الباب بالأسلحة والخبرة العسكرية . كما يدعى الأرمنى الروسى « متوجهدخان » الاسلام ليخدم الشاه ويحمى الباب فى قصره من بطش المسلمين ثم يحاول ادخال الشاه فى البابية .

وقد دخل يهود ايران فى حركة البابية بشكل جماعى ، ففى أربع مدن وفى مدة قصيرة دخل منهم ٣٨٥ يهوديا ومن الماسونيين جولدزيهر المستشرق روج لهذه الحركة ، ومن المبشرين فى الغرب اهتم بها لورد كرزون ، أستلين كاربنتر ، براون ، فامبرى ، الكونت جونيبو ، البروفيسور جيمس وارمستر ، نقولاس ، الليدى شيل ، الدكتور جيل .

هذه الطائفة انقسمت بعد ذلك الى فرقتين ، فرقة قالت بنبوة غلام وفرقة قالت بولايته : قاديانية وأحمدية ، وللفرقتين مآرب سياسية خطيرة وليست من فرق المسلمين وان صامت وصلت .

وقد أعلن غلام أحمد القاديانى صراحة مخالفته للاسلام (٣٠ يوليو عام ١٩٣١ جريدة الفضل) قال : اننا نخالف المسلمين فى كل شىء ، فى الله وفى الرسول وفى القرآن وفى الصلاة وفى الصوم وفى الحج وفى الزكاة وبيننا وبينهم خلاف جوهرى فى كل ذلك .

وهكذا نجد أن المؤامرة تتجدد فى العصر الحديث ليس بانبعاث الفكر الوثنى والطينى والباطنى وحده فى مجال التراث والتاريخ والأدب ، ولكنها تتجدد أيضا فى صورة دعوات وحركات تحمل لواء هذا الفكر وتعيد صياغته لتحدث فى مجتمعنا ما أحدثته الدعوات الهدامة فى القرن الرابع والخامس الهجرى ، فان التجربة تتكرر مرة أخرى ولكنها اليوم أشد عنفا فان ارادة المسلمين الآن ليست مطلقة فى دفع أعاصير التغريب والغزو الثقافى والشعوبية التى تؤيدها وتؤازرها قوى الاستعمار والصهيونية والشيوعية وتحاول أن تفرضها فى مجال التعليم والثقافة .

ولقد حاول الاستشراق أن يخدع المسلمين بهذه الدعوات ومحاولة وصفها بأنها دعوات تجديد فى الاسلام كما قال لورنس براون فى كتابه (طوالع الاسلام) الذى لخصه وقدمه عباس العقاد فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٥ وتحدث فيه عن البهائية والقاديانية بوصفهما دعوات اصلاح وتجديد ، ولو درى لعرف أن القاديانية كانت البديل المحرف عن دعوة الجهاد الاسلامية التى اهتز لها الاستعمار وقضى على دعاتها ، فهى رد فعل لموقف زعماء المسلمين فى الهند من الاستعمار الانجليزى حينما انهزم البطل الشهيد

تيبو سلطان فى معركة ميسور فى جنوب الهند عام ١٧٩٩ وأصبح للانجليز نفوذ تائم ، وفقد المسلمون امبراطورية ظلت أكثر من ستة قرون . ومن الناحية الاقتصادية كان المسلمون هم الغالبين عليها وأصحاب المهارة فى الصناعة والزراعة ، فأغلق الانجليز المدارس وقطعوا ايدى الصناع وحرموا عليهم الوظائف الرسمية وشغل الهندوكيون الموالون للانجليز وظائفهم ، لذلك فكر صفوة من العلماء وعلى راسهم عبد العزيز الدهلوى ابن الشاه ولى الله صاحب حجة الله البالغة ، فأفتى عبد العزيز بأن الهند اصبحت دار الحرب ، فوجب على المسلمين أن يحاربوا الاستعمار ، فقام الفقهاء والعلماء والمحدثون والمتصوفون يجاهدون فى سبيل اجلاء الانجليز وكونوا جيشا كبيرا قاده الشهيد اسماعيل ووقعت حرب دامية بين الاستعمار وحلفائه وفتحوا مدنا كثيرة ورفعوا فيها راية الاسلام وحدث عام ١٨٣١ بمقاطعة باراكوب فى بنجلب أن انهزم المسلمون على ايدى الخونة من المسلمين انفسهم ، وقبض الاستعمار على العلماء الذين اشتركوا فى الجهاد والقاهم فى السجن والغيت جميع المدارس واندية الثقافة ليتفشى الجهل والفقر وسوء الخلق . وهب تلاميذ الشاه عبد العزيز مرة أخرى لمقاومة الاستعمار وجاءت ثورة ١٨٥٧ التى هزت الاستعمار والتى لم تنجح وأوقع الاستعمار العلماء فى محنة شديدة ، فقتل الكثيرون ونفى الكثيرون الى جزيرة اندومان والبحر الأسود ، وأنشأ الاستعمار من ١٨٥٨ الى ١٨٨٧ خمس جامعات فى مدن الهند الكبرى (كلكتا — بمباى — مدراس — لاهور — اله أباد) وبدأت تدرس المواد الحديثة باللغة الأبجدية وكان تلاميذ هذه الجامعات هم الهندوس ، واراد الاستعمار بهذه الجامعات القضاء على المدارس الدينية والنشاط الاسلامى فى الهند فامتنع المسلمون عن دخول تلك الجامعات . ثم بدأ المسلمون ينشئون مدرسة دار العلوم بديوبند للمحافظة على تراث المسلمين وتخريج الدعاة لكى يقودوا المسلمين ضد الاستعمار فظهر محمد قاسم النانتوى ورشيد أحمد الكنولوهى وحاجى امداد الله ، وتخرج على أيديهم صفوة من العلماء .

ولما رأى المحايدون والمسالمون أن المسلمين لم يدخلوا هذه الجامعات ويدخلها الهندوس وحدهم ، انشأ احمد خان (كلية محمدية) ١٨٧٧ لكى يدرس فيها المسلمون وقد تعلم فيها محمد على ومحمد اقبال والزعماء المسلمون الكبار الذين قادوا الامة الاسلامية فى الهند فى منتصف القرن العشرين .

ويفرق بعض الباحثين بين دعوة أحمد خان وبين دعوة غلام احمد القاديانى ، ويرى البعض الآخر أن دعوة أحمد خان هى مقدمة للقاديانية ، ويرى الأولون أن أحمد خان شأنه فى الهند شأن محمد عبده فى مصر ، أراد أن لا تفوت المسلمين الفرصة وأن يأخذوا طريقا وسطا حتى لا يحرموا من التعليم الحديث وذلك بمسالمة الاستعمار .



ولم يلبث الانجليز أن عمدوا الى ابراز « القاديانية » لتحريف مفهوم الاسلام الأصيل ، وظاهرت حكومة الهند هذه النحلة ونقلت دعاتها الى بريطانيا وأوجدت جريدة باسمهم (اسلاميك رفيو) تنشر عقائدهم ودعايتهم ، وتبنى دعـوتهم جماعة من الانجليز وابتنوا جامعا فى حى ووكنج بلنـدن وقد عرفوا بجماعة الأحمدية ، وقد ترجموا القرآن الى اللغتين الانجليزية والأوردية .

وجرت محاولات للتفرقة بين الأحمدية والقاديانية ، فقال عبد الحميد السيد : ان غلام أحمد زعم انه مخلص ومجدد فى أول مرة ، ثم ترقى بـه الحال الى أن ادعى انه المسيح المولود والمهدى المعهود لهذه الامة ، ثم تجرأ فأعلن انه نبى ورسول من الله لكافة البشر ، وفى كل دور الف كتبا تناسب ادعاءه فيه ، وفى الدور الاخير من حياته بنحو سبع سنوات ألف وكتب مدعيا النبوة والرسالة بنصوص قطعية .

اما احمديو لاهور فهم ينكرون نبوته التى مات وهو يدعو اليها ويقصرون دعوتهم على أنه المسيح الموعود والمهدى المسعود والمصلح المجدد والهدف هو محاولة اضلال المسلمين فى شأن هذا الرجل ، فيحسن ظنهم به توطئة لاتباعه والدخول فى زمرة شياطينه ، وبعد أن هلك غلام أحمد ١٩٠٨ اجتمع حواريوه لانتخاب خليفة له ، فاختاروا حكيم نور الدين نحو ست سنوات ، ثم خوجه كمال الدين ومحمد على اللاهورى ، وقد خرج محمد على اللاهورى من قاديان مغلوبا على أمره فتوجه الى لاهور ، وهناك ألف هو ومن معه جماعة عرفت بالاحمدية اللاهورية .

ورأت هـذه الجماعة أن دعوى النبوة والرسالة بعد خاتم الرسل مما لا يستسيغه منطق المسلمين ، ولا ينخدع به مسلم أبدا ، فانفقوا بعد زمن يسير على أن يقولوا انه لم يدع النبوة ، مع أن كتبه التى يدعى فيها النبوة مطبوعة وادعاء النبوة صريح ، وهى مملوءة بشتم الانبياء والصحابة وآل البيت وسلف المسلمين ، وأعادوا طبع كتبه التى ألفها فى الدور الاول وليس فيها ادعاء للنبوة ، بل فيها انكار لها ، وتركوا الكتب التى ألفها أخيرا وقبل مماته .

وقد قاوم مسلمو الهند هذه الدعوة القاديانية والأحمدية مقاومة شديدة وحاصروا غلام وأتباعه فى بلدتهم الصغيرة قاديان ، وبعـد هلاك هـذا الكاذب أشكل على أتباعه وأسقط فى أيديهم ، ولمـا رأى القاديانيون ذلك لجأوا الى ظل الحكومة البريطانية ، وتعهدوا بالدعاية لهـا والدفاع عنها ،

وانتهزت الحكومة الفرصة لتفريق كلمة المسلمين عن طريق تشجيعهم ، فمهدت الطريق للتبشير بالقاديانية على أساليب المبشرين فى الدعوة الى الكنيسة . وساعدتهم على الدعوة لالغاء الجهاد الاسلامى والادعاء بأن الاسلام لم يعد دين جهاد بل صار الآن دين السلام أى دين الاستسلام للمستعمرين .

وكان محمد على اللاهورى زعيم الفرقة الأحمدية من كبار أصحاب غلام أحمد القاديانى ، وكان من ابرزهم فى الخطابة وابرعهم فى الكتابة ، فهو الذى ترجم القرآن الى الانجليزية وفسره وحرفه وغير معانيه فى مواضع شتى وفق نفسير متبوعه القاديانى ، ومنه ادعاؤه بنزول الوحى على غير الأنبياء عليهم السلام ، ويؤمن الاحمدية اللاهوريون بأن المسيح الموعود والمهدى المعهود المرزا غلام أحمد القاديانى هو منجى العالم ، والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وغلام أحمد معا .

وقد وجد الباحثون والمؤرخون وجوه لقاء واسعة ومتعددة بين البهائية والقاديانية ، فقد ظهرت الدعويان فى قرن واحد ، أما البهائى فقد عرف نفسه بأنه المثل الحقيقى للانبياء السابقين ، وأنه تجتمع فيه كل الرسالات الالهية ، وتلتقى فيه الديانات جميعا وهو لا يعتبر الرسالة المحمدية آخر الرسالات ويعتقد بالحلول ، ويقول أن اليوم الآخر والجنة والنار ليست الا رموزا للحياة الروحية .

وقد تبين أن البهائية هى ربيبة الصهيونية ، وهى التى احتضنتها واقامت مراكز لها فى جبل الكرمل فى حيفا فى فلسطين . وفى اسرائيل (٥ أغسطس ١٩٦٨) عقد المؤتمر البهائى العالمى ، حضره ٢٢٥ شخصا اختيروا من ٨١ جمعية وطنية تابعة للعقيدة البهائية فى القارات الخمس ، واعلن المؤتمرون أنهم يدعون الى وحدة الجنس البشرى والى السلام العالمى .

ويلتقى ما تروج له البهائية مع ما تروج له المنظمات الماسونية ، فهم جميعا يستهدفون تقويض « الدين من نفوس الناس ، ومحو آثاره فى المجتمع البشرى كله » .

وتعلن البهائية ما تعلنه الماسونية من الحديث عن سحق العدو الأزلى « الدين » مع ازالة رجاله ، وعدم التردد فى شن الحرب على كافة الأديان لانها فى دعواهم العدو الحقيقى للبشرية ، ولأنها سبب التطاحن بين الافراد والامم عبر التاريخ . ويزيد البهائيون على الماسون فى أنهم أنشأوا دينا جديدا يبشرون به وهو مزيج عجب من العقائد السماوية والفكر البشرى كحل وسط للصراع بين أهل الأديان ، ففى البهائية آيات من القرآن ونصوص من التوراة ، وفقرات من الانجيل ، واقتباسات من البوذية والكنفوشيوسية .

وقد تبين أن اليهودية العالمية وراء هذه الدعوى الزائفة .

(٥)

الـــروحيـــة الحـــديثـــة

ومن الدعوات الجديدة التى جـددت الفكر الباطنى والوثنى القديم دعوة الروحية الحديثة التى تتمثل فى ذلك التيار الذى يغمر عالم الاسلام بالجمعيات الروحية ، وما يتبع ذلك من مؤلفات وكتابات تحاول اقرار هذا المعنى فى النفوس .

وقد بدأت دراسـات الروحية فى الغرب على يد جماعات ظنت انها تسـتطيع أن تعارض المذهب المـادى وتكشف مفاسده ، ولـكن قوى الصهيونية العالمية استطاعت ان تسيطر على هذه الجماعات وتوجهها وجهة أخرى ، أرادت بهـا هدم المجتمعات وتصويرها على أنها دين جديد بنشر الفوضى والتشكيك فى كل المقررات الدينية والخلقية ، وبذلك تصبح شعبة من الدعوات المريبة التى تأخذ الناس من كل جانب والتى تلبس مختلف الأثواب وتخفى حقيقتها تحت شتى الاسماء ، وأبرز ما يكشف فساد مذهب الروحية الحديثة أنها تقيم تعاليمها على مفاهيم وحـدة الوجود وتناسخ الأرواح وخلود الحيـاة فلا فنـاء للدنيـا ، وانه ليس هناك يوم للبعث والحساب العام ، والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم ، وكذلك انكار خلق الله للكون ومحاولة الترويج لقدم العالم وانكار نهاية الخليقة ، وهى بذلك شبيهة بالبهائية الحديثة والدهرية القـديمة ، والمعروف أن فكرة تناسخ الارواح وخلود الدنيا وانكار الجزاء هى نفس مبادىء الماسونية مصوغة فى أسلوب جديد ، وتقوم الروحية الحديثة على معاداة الاديان وخاصـة الاسلام ، وتكشف فى كثير من ايماءاتها عن صلتها باليهودية التلمودية ، ولذلك فان دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة كمدخل الى مهاجمة الأديان نفسها ، ويركزون على السخرية منهم واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود الى غير ذلك مما يراد الصاقه بالدين نفسه ، فضلا عن انكار علماء الدين لما يدعونه من اتصـال بالارواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحى ، وهم فى نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ويعلون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسمائها رموزا لهم ولمحافلهم ــ وهم يشيدون ببعض الارواح الفرعونية مثل روح (رع آمون رع) و (هيمبوت) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محفلهم ويركزون على الآثار والكشف عنها ويولون هـذه الكشوف عناية كبيرة .

كذلك فان الروحية الحديثة تركز على هدم الاخلاق ونفى الاختيار

والقول بالجبر ، وهم فى دراساتهم الروحية يتخذون نفس الأسلوب الذى اتخذته الدراسات النفسية فى تبرير الجريمة والاعتذار عن المجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة ارجاع دوافعه الى عقد نفسية .

ومن اخطر دعواتهم واكذبها قولهم ان الجنةوالنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ، وان الناس على اختلاف اديانهم وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هى نفس حياتهم على الارض ، وان فرص التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم ، وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس على الظلم والفساد ، وهم يدعون أن القيامة هى قيامة آدم الجديد الذى يقوم على وجه الارض فى عالم لا يحكمه الا السلام وتسوده الروحية .

وهكذا نجد الروحية الحديثة صورة أخرى من الماسونية والبهائية والقاديانية فهى تقوم على رموز وأسرار ولها درجات ولم تنشأ للتسلية ، ولكن انشئت لأهداف خاصة . ويقول علماء الروحية أن الانسان خالد على الارض وان الوحى لم ينقطع بوفاة محمد وان الانبياء ليسوا الا وسطاء وان العالم يتهيأ الآن للقرآن الجديد الذى تأتى به الارواح لتنقذ العالم من حماة الصراع والشرور .

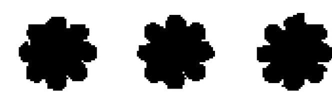
وهم يمهدون لنبى جديد يطلقون عليه اسم (سلفربوش) وهو من الأسماء اليهودية ، ولا ريب أن الدعوة الى أن الروحيـــة وحدها هى قوام الفكر والحياة ليست الا دعوة مماثلة للمادية التى نرى أنها وحدها قوام الفكر والحياة . والروحية بذلك انما تمثل معارضة للاسلام : دين الحق الجامع المتكامل بين الروح والمـــادة ، وهكذا نجد أن اليهودية العالمية تسيطر اليوم على الدعويين المادية والروحية وكلتاهما دعوة باطلة ويبقى الاسلام متميزا بنظامه ودعوته الى الايمان بالله وبجميع ما تنشـــده الروحية من مقاومة الالحـــاد والمادية .

ومن اكبر اخطاء الروحية الحديثة قولها أن العلم الروحى قد أصبح علما تجريبيا لا لبس فيه ولا غموض ، وان التواصل بين الأحبـــاء والموتى لا شك فيه ، ولا ريب أن الروح بعد الموت تدخل فى عالم آخر ومن الزيف أن يقال انها مما يمكن الاتصال به أو الحديث اليه .

وتلتقى الروحية الحديثة مع البهائية فى دعواها بالنبوة الجديدة والآفاق الجديدة ، ولا ريب ان اليهودية العالمية تمهد بذلك لمخططها الذى كشفت عنه بروتوكولات صهيون وتتخذ من هذه الدعوات منافذ ونبوءات الى هذا المخطط .

ويشير الأستاذ عبده الراجحى فى كتابه (الشخصية الاسرائيلية) الى هذا المعنى فيقول ان الجمعيات الروحية ذات صلة بالتخطيط اليهودى أكثر من صلتها بتحضير الارواح ، وان هذه الجماعات المنتشرة فى مصر وغيرها انما تخفى فى اعماقها التلمودية الخطيرة ، وان هـــذه الجمعيات لم تنشأ للتسلية ولكنها انشئت لأهداف خاصة ولها نشراتها وكتبها ومجالاتها .

ويقول : ان الروحية الحديثة مخطط اسرائيلي واضح الهدف والاسلوب. والهدف مثل الماسونية تماما هو انتزاع الشخص من دينه ومن قوميته وصبه فى قالب جديد من العالمية أو الكونية ، وهى تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى انها تستخدم الدين فى هدم الدين ، ويقول علماء الروحية : ان الانسان خالد على الأرض ، وان الوحى لم ينقطع بوفاة محمد وان الانبياء ليسوا الا وسطاء ، وان العالم يهتدى اليوم للقرآن الجديد الذى تأتى به الأرواح ، وللروحيين الآن قائد هو شخص هندى ذو ضفائر تجده مرسوما فى قاعاتهم ، واسمه سلفربرش ، وهو عندهم آدم الجديد الذى سيكون خليفة الله فى الارض ، وهم يؤولون الآيات القرآنية تأويلا عجيبا توصلا الى منهجهم ، وهم ينكرون القيامة على ما يفهمها الفقهاء لانهم يعتقدون أن الأرض خالدة ، وان الانسان خالد فيها ، وتتفق هذه المفاهيم مع التلمودية التى تقوم عليها الصهيونية ، ولقد كان من أخطر الدعاة الى ذلك ، فهمى أبو الخير وعبد الجليل راضى ، ومن قبل مجلة المقتطف ، ولقد اغرت المسائل الروحية بعض الكتاب المسلمين ، فظنوا أنها قوة جديدة فى مواجهة الفكر المادى ، ولكن تبين من بعد أن اليهودية العالمية قد احتوت هذه الدعوة وحولتها الى غايتها هى ، ولنفس الغاية التى عملت لها الماسونية لتحطيم الدين جريا وراء محاولتهم التى تقول انه لا بد أن يتحطم الدين بيد أتباعه فذلك هو السبيل أمام الصهيونية لكى تركب أكتاف العالم من جديد . وهكذا نجد أن المؤامرة على الاسلام تتجدد فى المجالين : مجال الفكر ومجال الحركة ، ونجد أن الفكر البشرى اليوم كله حافل بمطامع الصهيونية والماركسية وانه يستهدف احتواء الفكر الاسلامى ، وان هناك محاولة جديدة تعمل على تجديد المؤامرة القديمة التى واجهها المسلمون فى صدر الاسلام وحطموها تماما باعلان مفهومهم الأصيل ، واليوم تواجه حركة اليقظة الاسلامية المحاولة الجديدة وتكشف زيفها وتفسد أهواءها وتزيف شبهاتها وصولا الى القضاء عليها .



الباب الثامن

الأصالة الإسلامية
في مواجهة المؤامرة على الإسلام

أولا : من الفرق إلى السنة الجامعة

(١)

منذ اليوم الأول لظهور حركة (المؤامرة على الاسلام) فى القرن الثانى للهجرة فقد قامت المواجهة الصادقة والمعارضة الصريحة ، على يد السنة والجماعة فردت فسادها وكشفت زيفها ونقضت شبهاتها وأبانت بالدليل أنها حركة معادية للاسلام ناشئة من دين أجنبى وانها حركة خارجية أصلا تلتمس فى محيط المجتمع الاسلامى خيوطا لتدمير القيم الاسلامية كمقدمة لتدمير النظام الاسلامى نفسه ، وبينت انها وثيقة الصلة بأعداء الاسلام وقد تبين ان هناك معاهدات وعقودا بين دولة الروم وهذه القوى فضلا عن تآمر القوى المجوسية الفارسية القديمة وأكد الباحثون المسلمون أن الذين وضعوا أساس الشعوبية والباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين أسلافهم متطلعين الى هدم الاسلام عن طريق فكره بعد أن عجزوا عن هدمه عن طريق دولته .

أولا : انكرت السنة التشبيه والتعطيل وكشفت عن ان المشبهة وثنية والمعطلين ملحدون وتعقبت فى نفس الوقت الملحدين والوثنيين وكشفت عنهم .

ثانيا : عارضت السنة اخضاع الاسلام للجدل العقلى ودعت الى التماس المعين الأول والمنبع الاصيل (القرآن والسنة) .

ثالثا : كشفت السنة عن فساد الهيات أرسطو لان مقدماتها ونتائجها معارضة أشد المعارضة لمفهوم التوحيد الخالص وأبانت ان العقائد مرجعها الى الكتاب والسنة .

رابعا : استوعبت السنة كل المطامح والآمال التى كانت الفرق المختلفة تنادى بها فجعلت محبة أهل البيت جزءا من عقيدتها وجعلت العقلانية التى رفعت لواءها المعتزلة شطر المعرفة وجعلت الوجدانية التى حمل لواءها التصوف شطر المعرفة الأخرى وجعلت اختيار الحاكم على أساس الشورى وليس على أساس النسب أساسا من أسس مفهومها .

خامسا : قاومت السنة الاتجاه الزائف نحو القول بوحدة الوجود او الحلول أو الاتحاد كما قاومت انحرافات المعتزلة والفلاسفة والصوفية فالتقت كل هذه القطاعات فى أصل جامع .

سادسا : كشفت السنة عن أن النظر الفلسفى لا يمكن أن يكون أساسا للفكر الاسلامي ، ذلك أن هناك مجموعة من الحقائق الأولية لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق الوحى والنبوة ، وبينت أن الفلسفة ليست قرينة الوحى ولا مناظرة له فهى لاتزيد عن كونها استخداما للعقل وتفكيرا منظما يمكن أن يستخدمه الناس فى الدين أو فى أى موضوع آخر ، وهى فى احسن صورها تعمل على أن تعصم الذهن من الخطأ فى الاستنباط والبرهان .

سابعا : رأت السنة أن القرآن كلام الله القديم ولكن التعبير عنه بالكلمات والحروف قد خلق ووجد فى حدود الزمان ولكنه من عند الله وأن فى لغة القرآن العربية أحد الأدلة على أصله السماوى .

ثامنا : أصبحت السنة هى البوتقة التى انصهرت فيها كل الثقافات فهى بمثابة النهر الكبير ، والمذاهب والفرق روافد ، وخير ما فى هذه الرافد انصهر فى مفهوم جامع للاصالة الاسلامية وصب فى النهر الكبير ، وكان ابلغ ما وصلت اليه هذه الغاية هو قول الامام الغزالى أن أساليب القرآن أرجح فى سلامة العقيدة والتزام صفاء الفطرة من جملة أساليب اليونان والمتكلمين ، ومن ثم صهرت السنة المعتزلة والفلاسفة والمتكلمين والشيعة والصوفية فى بوتقتها فأصبح العقل فى خدمة الوحى يسير فى ضوئه ، وأتاح فقهاء المسلمين قدرا كبيرا من التأويل والاختلاف فى الفروع دون أن يتجاوزوا وجه الانحرافات الهدامة ودعموا هذه الأسس بمبدأ ينص على أنه اذا اجتمع الفقهاء المجتهدون على مسألة كبرى من مسائل العقيدة والفقه فان اجتماعهم حاسم قاطع ، أما المسائل الصغرى فلا مانع من الاختلاف حولها وتميزت السنة بأنها توجهت منذ البداية الى ابراز العناصر الجامعة لا الى ابراز دور الفرد ، حتى الافراد الذين قاموا بدور بارز كانوا بمثابة ممثلين للنظرة الجامعة لا مفكرين مبتدعين .

تاسعا : استطاعت السنة أن تتمثل فى أعمال ثلاثة رجال كبار : الشافعى والأشعرى وابن حنبل ، فقد قاوم هؤلاء أخطار المؤامرة على الاسلام ممثلة فى الهلينية الزاحفة وعمل فى هذا المحط كثيرون من العلماء الأبرار على نحو مكن من استئصال الباطنية من حيث أنها قوة معنوية ، وعندما تحطمت مفاهيم الباطنية تحت سنابك السنة سقطت كقوة سياسية .

عاشرا : كان لاحياء السنة وبناء معاهدها ومدارسها وتجديد فكرها فى مواجهة الفكر الشعوبى والباطنى وقيام جماعات التسلح الخلقى وايقاظ روح الجهاد عامل هام فى القضاء على القوى الخارجية كالحملات الصليبية والقوى الداخلية كالباطنية والحشاشين . وقد استطاع الامام الغزالى أن يزيل الحواجز بين الفقه ومفهوم التربية الاسلامية والأخلاق (التصوف والزهد) وذلك بالكشف عن أن الاسلام : عقيدة وشريعة وأخلاق وبذلك سقط ذلك الخلاف المصطنع بين الفقهاء والصوفية ذلك الخلاف الذى أغرت به مفاهيم الهلينية .

حادى عشر : استطاع مفهوم السنة : وهو مفهوم الأصالة الاسلامية الجامع أن يقضى على الغلو فى كل تلك الفرق وبذلك تعين أن السنة ليست مذهبا معينا بين المذاهب وليست طرفا من الأطراف . يقول ابن القيم الجوزيه : وأهل السنة لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم فمذهبهم حق جميع الطوائف بعضه الى بعض ، القول به ونصره وموالاة أهله فى ذلك الوجه . ونفى باطل كل طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه . فهم حكام بين الطوائف لا يعاملون بدعة ببدعة ولا يرمون باطلا بباطل ، ولا يحملهم شنآن قوم الا يعدلوا فيهم بل يقولون فيهم الحق ويحكمون فى مغالاتهم بالعدل » .

ومن هنا تسقط تلك الدعاوى الباطلة التى يدعيها أمثال زكى نجيب محمود وغيره من أن السنة فرقة أو طائفة ، بينما السنة هى مدرسة الأصالة الاسلامية التى تجمع خير ما فى الفرق وتحكم بينها وترتفع عن الخلاف حول الافراد والأشخاص . وتقرر أن هذا الخلاف هو الذى أفسد المفاهيم الاسلامية .

ثانى عشر : تبين بما لايدع مجالا للشك أن الاجتهاد بالرأى كان بداية النظر العقلى فى الفكر الاسلامى وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن ونشأت عنه المذاهب الفقهية وأينع فى جنباته علم أصول الفقه ونبت فى تربينه التصوف وذلك قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فيما وجهت به المسلمين الى البحث فيما وراء الطبيعة والالهيات ، وبذلك لم يكن هناك أى تأثير أجنبى فى تكوين الفقه الذى هو وليد القرآن وآثار الصحابة والجيلين الأولين من التابعين ، وكان المنطلق لذلك كله هو أن الرسول أذن لولاته فى الأمصار أن يجتهدوا برأيهم حين لا يجدون نصا ولذلك فقد كان طبيعيا أن يقاوم أهل السنة بالذات الهيات أرسطو لأنها فى مقدماتها ونتائجها كانت تعتبر متعارضة أشد التعارض مع مقتضيات عقائد الاسلام .

وقد التمس القرآن الى الاقناع أساليب مختلفة منها الاسلوب العقلى واسلوب الوجدان واسلوب العبرة التاريخية فلم يؤلف براهينه فى مقدمات وقضايا ونتائج كالفلسفة ومن هنا فان الرأى والقياس أمور عرفها المسلمون منذ عهد النبى وقبل الاتصال بالفلسفة اليونانية .

ثالث عشر : أن السلف هم أول من رد على الجهمية ومذهبهم فى التعطيل وانكار الصفات وفى القول بخلق القرآن فقد تصدى لذلك مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم وبينوا فساد ذلك كله وانحرافه عن مفهوم الكتاب والسنة ، وكانت مقالة الجهمية هى أول فتنة التأويل التى أدت الى تعطيل النصوص والتجاوز بها عن معانيها التى وضعت لها لغة وشرعا الى معانى وآراء مدخولة تحملها الباطنية والغنوصية وغيرها من النحل التى كانت ترمى الى هدم الشريعة واضلال معتقديها وبلبلة ما استقر فى قلوبهم وامتزج بنفوسهم من عقائد واضحة لا لبس فيها ولا شائبة من غموض .

وكان أبلغ من رد على هـذه الفرق الامام أحمد بن حنبل امام أهل السنة وناصر الملة . رد على الجهمية والزنادقة الذين يشككون الناس فى القرآن ويأخذون آيات معينة مقطوعة عن سياقها وعن جملة القرآن ويدعون انها متناقضة مع آيات أخرى ، والذين أخذوا بعض المتشابه من القرآن وضلوا به وأضلوا .

وقد اعتمد أحمد بن حنبل فى (تفسير القرآن بالقرآن) على أصول اللغة العربية ومواضعاتها ، وعلى لسان العرب وقانونه فى مخاطبتهم ومحاورتهم ، تلك اللغة التى لم يكن هؤلاء الزنادقة على معرفة بها ولا على اطلاع على أسرارها اطلاع ابن حنبل عليها وعلى كل ما يتصل بها من مواصفات الشرع وألفاظه واستعمالاته ، وأعلن ابن حنبل أن القرآن ليس قديما ولا حادثا وانه كلام الله لا أقول مخلوقا أو غير مخلوق .

رابع عشر : هاجم الامام بن حنبل فتنة تعطيل الصفات وتعطيل التكليف والشرع ازاء مؤامرة الجهمية فى القول بأن الانسان ليس له اختيار او ارادة أو كسب وقد جعلوا الانسان بمثابة جماد أو شجرة .

خامس عشر : قرر ابن تيمية انه لا سبيل الى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها اجمالا وتفضيلا واعتقادا واستدلالا الا من القرآن والسنة المبينة له والسير فى مسارهما فما يقرره القرآن وتشرحه السنة مقبول لايصح رده ورده خلع للشريعة فليس للعقل سلطان فى تأويل القرآن وتفسيره وتخريجه الا بالقدر الذى تؤدى اليه العبارات ، واذا كان للعقل بعد ذلك سلطان فهو فى التصديق والاذعان وبيان تقريب المعقول من المنقول وعدم المنافرة بينهما ، فالعقل يكون شاهدا ولا يكون حاكما ويكون مقررا مؤيدا ولا يكون ناقضا ولا رافضا ، ويكون موضحا لما اشتمل عليه القرآن من الادلة والعقل وراء النقل (أى الوحى) يعززه ويقويه ولا يستقل بالاستدلال بل يقوم على تقريب معانى النصوص .

سادس عشر : يقرر ابن تيمية أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء وأنه لا شىء فى الكون بغير ارادته وانه لا ينازعه أحد من خلقه وأن الله فاعل حقيقة وله مشيئة وارادة كاملة تجعله قادرا على ما يفعل وأن الله تعالى ييسر فعل الخير ويرضاه ويحبه ولا ييسر فعل الشر ولا يحبه وان العبد يفعل ما يشاء بقدرته وارادته (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون الا أن يشاء الله) .

سابع عشر : يقرر الشافعى أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره وانما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها .

واكدت الأدلة على كذب الادعاء بأن البلاغة العربية تأثرت بخطابة ارسطو وشعره فى نشأتها وتطورها ذلك أن العرب عرفوا البلاغة وفنونها قبل أن يترجم كتاب ارسطو وليس فى كتب البلاغة العربية ما يدل دلالة واضحة على هذا التأثر أو النقل الصريح ، والدليل على ذلك فشل منهج

قدامه فى نقد الشعر الذى اعتمد فيه على نهج أرسطو فقد أضفى عليه جفافا لا يقبله الذوق العربى السليم ووضع حدودا ورسوما لا تلائم الشعر العربى .

ثامن عشر : كشف رجال الأصالة الاسلامية (السنة) أن النزعة العقلية التى دافع عنها المعتزلة كادت تخنق العقيدة وانها حولتها من يسرها وبساطتها الى مذهب فلسفى معقد بعيد عن روح الاسلام . وكانت أخطاء المعتزلة : اخضاع العقل للوحى ، واعلاء العقل على الوحى .

وكانت حجة أهل السنة ان العقل واحد فى الناس وأن أهل الكلام ليسوا على رأى واحد فى المسائل التى يبحثونها . وعدم اتفاق المتكلمين دليل على عجز العقل وقصوره . والعقل ليس حكما فيما وراء الطبيعة ولا على ما جاء فى الشرع ، ذلك أن العقل عاجز عن ادراك ماوراء الحس وصاحب الشريعة الحق تبارك وتعالى أدرى بمصالح الناس من أنفسهم .

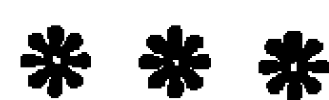
ويقول ابن تيمية : اذا كان للعقل سلطان فى التصديق والاذعان وبيان تقريب المنقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما فالعقل يكون شاهدا ولا يكون حاكما ويكون مقررا مؤيدا ولايكون ناقضا ولا رافضا .

تاسع عشر : وصل كثير من مفكرى الاسلام الى نفس النتيجة التى وصل اليها الغزالى ، حتى قال الرازى فى آخر أيامه : لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله تبارك وتعالى ويمنع من التعمق عن ابراز المعارضات والمناقضات وما ذاك الا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية .

عشرون : قرر ابن تيمية أن العقائد لا تؤخذ الا من النصوص وأن السلفيين يؤمنون بالنص لأنه موحى الى النبى وأن الاساليب العقلية المنطقية مستحدثة فى الاسلام ولم تكن معروفة قطعا عن الصحابة والتابعين ، فاذا قلنا أنها ضرورية لفهم العقائد فمؤدى ذلك أن هؤلاء السلف ما كانوا يفهمون العقائد على وجهها وأن الطريق الصحيح أن تؤخذ العقيدة من القرآن وفق مفهومها فى عهد الصحابة والتابعين وأن يتقيد الناس بأدلة القرآن .

ولقد كان لهذا الفهم اثره الواضح فى استئصال الباطنية والشعوبية وتحطيم مفاهيمها والقضاء على المؤامرة وكان ذلك منطلقا الى ظهور حركة الجهاد الضخمة الواسعة التى حررت العالم الاسلامى من التتار والصليبيين وحطمت بقايا القلاع الباطنية وجيوب الحشاشين .

ولن تستطيع أن نفعل اليوم فى مواجهة المؤامرة المتجددة (الصهيونية الشيوعية الاستعمارية) الا ما فعله المسلمون على النحو الذى قرره ابن تيمية والشافعى والأشعرى والغزالى فى اسقاط الهلينية والباطنية والشعوبية .



ثانيا : من التبعية إلى الأصالة

من سنن الفكر الاسلامى وقانونه القائم الذى لا يتحول ولا يتغير : قدرته على تصحيح مساره عندما ينحرف ، وانبعاث حركة اليقظة من داخله دون عامل خارجى ، وتوهج ضوء الأصالة فيه فيقضى على كل محاولات التزييف ، ففى حالة الأزمة التى تفرض فيها القوى الغازية « التبعية » لها ، تمكن الفكر الاسلامى من كسر هذا القيد والانطلاق بقوته الذاتية نحو المنابع خارجا من دائرة الأممية والاحتواء التى تفرض عليه .

وقد كان هذا جليا فى ازمات الاعتزال والفلسفة والتصوف الفلسفى وفى العصر الحديث نجد هذه الصورة واضحة تماما .

نجد المدرسة الحديثة التى حملت لواء الدعوة الى الفكر البشرى ممثلا فى الفكر الغربى تنهزم حثيثا وتنسحب من مواقعها فى فرض التبعية الى معادلة جديدة بعد أن اكتشفت عجزها عن اخضاع الفكر الاسلامى لمؤامرة التغريب والغزو الثقافى وتظن أنها كانت لا ترى ابعاد الأمور ، أو أنه قد غرر بها فى كلمات غريبة براقة كالحرية والاخاء والمساواة ، ولم تلبث الأيام أن اثبتت فساد ذلك وزيفه ، ومن ثم نرى هؤلاء الذين حملوا لواء الدعوة الى الفكر الغربى والى الفرعونية ، والباطنية والشعوبية والاقليمية (هيكل ومنصور فهمى والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى مبارك واسماعيل مظهر) يئوبون مرة أخرى الى التراث الاسلامى يستلهمونه ويرون أنه وحده القادر على العطاء ، والمصدر الأصيل لمد الجسور بين القديم والجديد .

وبالرغم من خضوع هؤلاء الكتاب لمناهج التحليل الغربى وهى مناهج لا تصلح للتطبيق على الفكر الاسلامى والتراث الاسلامى ، وأصح منها تلك المناهج التى طبقها مصطفى صادق الرافعى وجاد المولى وحسن البنا والمودودى وابو الحسن الندوى ، الا أن هذا يؤكد صدق ذلك القانون الثابت الذى يحرر الفكر الاسلامى من أى اضافات غير أصيلة اليه مهما بلغ من عنف التحدى ومهما حاول الاستعمار والتغريب (اغراق) الفكر

الاسلامى فى دوامة عاصفة من هـذه المذاهب والدعوات والنظريات . فان الفكر الاسلامى يأخـذ دائما حاجته وما يراه صالحا لتصحيح مساره ثم يرفض الباقى ويتخلص منه .

وقد فشلت التجربة ازاء الفكر الغربى الليبرالى وتجاه الفكر الماركسى فبعد اكثر من عشرين عاما من تجربة الاحتواء الماركسى ، وارتفاع مده حتى ظن أنه قد اغرق الفكر الاسلامى ، نجد لفيفا من هؤلاء الذين كانوا يتصدرون الدعوة الى التفسير المادى للتاريخ ونظريات الماركسية يعودون ليصححوا موقفهم ويلتمسوا مفهوم الاسلام .

وفى كلتا المرحلتين نجد أن الفكر الاسلامى هو الحاكم المسيطر والمصدر الأصيل الذى لا تجـد مجتمعات المسلمين والعرب سبيلا غيره وقد مروا بالتجربة من ديموقراطية الغرب الى ماركسية الشرق وتبين فشل التجربتين بحيث لم يعد أمام العرب والمسلمين الا منهج واحد هو منهجهم الأصيل .

كذلك نجد أن المحاولات الجديدة التى قام بها طه حسين واحمد أمين وعبـد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمـود وغـيرهم فى نطاق المؤامرة على الاسلام باحياء الفـكر الوثنى والفلسفى والمعتزلى من ركام الفكر البشرى القديم هى محاولات فاشلة لن تحقق شيئا ، وأن مفهوم الأصالة الاسلامية قادر على تحطيمها وكشف زيفها ، وكانت الانجازات التى حققها العاملون فى حقل التراث الاسلامى والتى حمل لواءها مصطفى عبد الرازق وسار بها قدما النشار وزيان والبهى وغـيرهم قد حطمت تلك المحاولة التى أرادت اعادة فرض مفهوم الفلسفة الالهية والكلام على الفكر الاسلامى الحديث ، وكشفت عن أن الفكر اليونانى لم يكن سليم المصادر وان اليونان احتقرت التجريب وأن المسلمين هم الذين قدموا المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة وان المسلمين رفضوا منطق أرسطو منذ اليوم الأول وأن مفهوم العقلانية الذى قدمه المعتزلة لم يكن سليما ولم يجـد تقبلا من المسلمين لأنه يتعارض مع مفهوم الاسلام الذى قدمه القـرآن الكريم والجامع للقلب وللعقل وعبرة التاريخ كأسلوب للمعرفة .

كما تبين أن الاسلام فصل تماما بين مفهومه الأصيل القائم على التوحيد وبين ركام الفـكر البشرى القديم الذى يقوم على الوثنية والتعدد والمادية والاباحيـة .

ولم يعد فى الامكان اعادة الربط بين هذا الركام القديم وبين المفهوم الأصيل ، كذلك فقد كشفت حركة اليقظة الاسلامية عن محاذير الاسرائيليات القديمة والجديدة التى تسربت الى التفسير والى التاريخ عن طريق بعض الأساطير والخرافات ، والمسلمون الذين يملكون النص الموثق الذى لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يجدون المنطلق الصحيح لفكرهم ، فانهم يعودون اليه يلتمسون الطريق المستقيم كلما أزمتهم الأزمات او احاطت بهم المؤامرات .

كذلك كشفت حركة اليقظة الاسلامية فساد الفكر الغنوصى والهلينى على السواء ، وما دسته حركة التغريب على تاريخ العرب والاسلام من سموم ، يراد بها اعادة اثارة الخلافات القديمة التى انتهت من قديم ولم يعد لها مكان .

وتبين أن محاولة الحديث عن المعتزلة وفكرهم أو الفلاسفة ودعواهم او التصوف الفلسفى وقضاياه منفصلا عن سياقه التاريخى هو من المؤامرات التى يراد بها رسم صورة زائفة لمنطلق الفكر الاسلامى ، ذلك أن هذه الفرق قد ظهرت ابان المحاولة التى فرضتها حركة الترجمة . وان كل هذه الفرق قد انصهرت فى مفهوم الاسلام الجامع ، فقد استصفاها الفكر الاسلامى وقبل عناصر القوة والحيوية منها فيما يتفق مع مفهوم التوحيد ورفض الباقى وكشف زيفه .

وقد كشفت حركة اليقظة الاسلامية اليوم زيف كل محاولات فرض الأساطير أو الوثنيات او ما يتصل بما يسمونه أحكام النجوم الذى كان يعزى الى اليونان والبابليين وابانوا رأى الاسلام الذى ابطل صناعة التنجيم وكشف فسادها .

وزيف المفكرون المسلمون الدعوة الى احياء وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من الوثنيات القديمة مجددة فى ابن عربى وابن الفارض والحلاج ، وكشفوا فساد وجهة هذه الشخصيات وتحالفها مع خصوم الاسلام لهدم الدعوة والأصالة .

وقد تبين من وراء المؤامرة على الاسلام ممثلة فى احياء الفكر الباطنى والصهيونى والفلسفى والمعتزلى محاولة جديدة لاذابة الاسلام فى الأديان والقضاء على ذاتية الاسلام ونفوذه وطابعه الخاص الذى تميز به بوصفه آخر رسالات السماء ، وما تحقق له من امتلاك كتابه الموثق وسنته الصحيحة مما لا يملكه غيره .

كذلك فقد كان الدفاع عن الفكر الباطنى هو محاولة لاسقاط الحدود الاسلامية والالتزام الأخلاقى وما يتصل بها من المسئولية الفردية والجزاء الأخروى لفتح الطريق أمام الاجيال للاهواء والشهوات .

وما تزال المعركة بين الذين يفرضون المؤامرة على الاسلام

وبين حركة اليقظة قائمة وممتدة ، ذلك لأن أهل الباطل لا يستسلمون من قريب ، وعلى المثقفين المسلمين أن يكونوا على يقظة دائمة ازاء هذه المؤامرة المستمرة ، وليس هناك من سبيل الى المقاومة الا بالتماس مفهوم القرآن والتمسك به والكشف عن صفاء التعاليم الاسلامية فى بساطتها ويسرها وقرآنيتها الأصيلة بعيدة عن الشروح والخلافات المذهبية التى تفسدها ، فعلى الجماعة الاسلامية أن تعود الى وحدة الفكر التى يحققها لها القرآن الكريم ، ولا ريب أن فكرة التماس المنابع الأصيلة هى الأهداف التى تعمل حركة التغريب والغزو الثقافى لصرف المسلمين عنها الى تلك الخلافات والمشابهات . وقد دعانا القرآن الى التمسك بالآيات المحكمات .

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة: ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت: ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٧/٣٣٢٥

معالم تاريخ الإسلام

هذا الكتاب

ان من أخطر التحديات التى تواجه الاسلام فى العصر الحديث : ابتعاث الفكر الوثنى والغنوصى القديم الذى كان معروفا قبل ظهور الاسلام فى البيئات الشرقية والغربية على السواء والذى تشكل فى احياء الفكر المعتزلى والفكر الصوفى الفلسفى والفكر الفلسفى المادى والفكر الشعوبى والباطنى .

تجددت هذه الأفكار مرة أخرى فى عصرنا الحديث ووضعت فى صور براقة لتخدع شباب الاسلام وتفتح لهم طريقا الى التحلل والفساد والاباحية ولتحطم مقومات الأخـلاق وضوابط القيم وحدود الله وقد ظهرت فى ظل هذه الأفكار الوثنية الفاسدة القديمة المتجددة مؤامرات القاديانية والبهائية ومحاولة اعادة كتابة تاريخ الاسـلام واحيـاء دعوات الزنج والقرامطة واخوان الصـفا ودعوات وحـدة الوجود والحلول والاتحـاد والاشراق كل ذلك تحت اسم تجديد الفـكر العربى ومن هنا فقد كان من الضرورى مواجهة (المؤامرة على الاسلام) وكشف هذه السموم ودحض هذه الشبهات الزائفة وتصحيح المفـاهيم وتحرير القيم الاسـلامية انتقـالا من الفرق الى السنة الجامعة وتحولا من التبعية الوافدة الى الأصالة الاسلامية .

دار الاعتصام



١٠٠ قرش